آية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي

مفاهيم القرآن

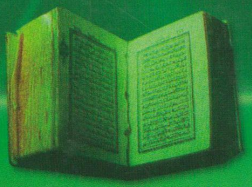

ترجمة: ماجد الخاقاني

أشرف على الترجمة: الشيخ محمّد عبد المنعم الخاقاني

دار الولاء

بيروت - لبنان

مفاهيم القرآن

لبـنان - بيـروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس: 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - ص.ب. 307/25
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com
E-mail:daralwalaa@yahoo.com

ISBN:978-9953-546-38-4

الكتاب:	مفاهيم القرآن
المؤلف:	آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي
ترجمة:	ماجد الخاقاني
أشرف على الترجمة:	الشيخ محمد عبد المنعم الخاقاني
الناشر:	دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة:	الثانية-بيروت ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

جميع الحقوق محفوظة للناشر©
ولمؤسسة الإمام الخميني "قده" إيران ـ قم المقدسة

مفاهيم القرآن

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

ترجمة

ماجد الخاقاني

اشرف على الترجمة

الشيخ محمد عبد المنعم الخاقاني

دار الولاء

بيروت ـ لبنان

شبكة الفكر
alfeker.net

الفهرس

تمهيد ١١

المقدمة ١٣

الفصل الأول: أسماء القرآن وصفاته

أ ـ الأسماء المستقلة ١٨

١و٢ ـ الكتاب والكتب ١٩

٣ ـ الصحف ٢١

٤ و٥ ـ الحديث وأحسن الحديث ٢٢

٦ ـ القول ٢٣

٧ و٨ ـ كلام الله وكلمات الله ٢٤

٩ ـ القرآن ٢٥

١٠ و١١ ـ تنزيل ومُنزّل ٢٧

١٢ ـ الآيات ٢٩

١٣ و١٤ ـ الحق وحق اليقين ٣٢

١٥ ـ الصدق ٣٣

١٦ ـ العلم ٣٣

١٧ ـ البرهان ٣٤

١٨ و١٩ ـ البيان والتبيان ٣٤

٢٠ و ٢١ ـ البينة والبينات ٣٤
٢٢ و٢٣ ـ بلاغ وبالغة ٣٥
٢٤ ـ الحكمة ٣٦
٢٥ ـ الحُكم ٣٧
٢٦ ـ الفرقان ٣٨
٢٧ و٢٨ ـ تفصيل ومفصّل ٣٨
٢٩ ـ النور ٣٩
٣٠ ـ بصائر ٤٠
٣١ ـ الهدى ٤١
٣٢ ـ الذكر ٤٢
٣٣ ـ الذكرى ٤٣
٣٤ ـ التذكرة ٤٤
٣٥ ـ موعظة ٤٥
٣٦ ـ ٣٩ ـ بشير وبشرى ونذير وعذر ونذر ٤٦
٤٠ ـ شفاء ٤٨
٤١ ـ رحمة ٤٨
٤٢ ـ الوحي ٥٠
تنويه ٥٠
الأسماء التابعة ٥١
١ ـ عليّ ٥١
٢ ـ حكيم ٥٢
٣ ـ العظيم ٥٣

٤ ـ ثقيل ٥٣
٥ ـ كريم ٥٤
٦ ـ مجيد ٥٤
٧ ـ مبارك ٥٤
٨ ـ عزيز ٥٥
٩ و١٠ ـ قيّم وغير ذي عوج ٥٦
١١ و١٢ ـ تصديق ومصدّق ٥٦
١٣ ـ مهيمن ٥٧
١٤ ـ فصل ٥٧
١٥ ـ مبين ٥٨
١٦ ـ متشابه ٥٨
١٧ ـ مثاني ٥٩
١٨ ـ عربي ٦٠
الخلاصة ٦١

الفصل الثاني: نزول القرآن

المفردات التي تتحدث عن نزول القرآن ٦٣
١ ـ نزول ٦٤
إنزال وتنزيل ٦٥
٢ ـ المجيء ٦٧
٣ ـ الإتيان والإيتاء ٦٩
٤ ـ الوحي والإيحاء ٦٩

٥ ـ القراءة والتلاوة ٧٠
٦ ـ الترتيل ٧٠
٧ ـ الإلقاء والتّلقي ٧١
٨ ـ التعليم ٧٢
٩ ـ القصّ ٧٢
١٠ ـ الفرض ٧٢
مُنزل القرآن ٧٣
على مَنْ نزل القرآن؟ ٧٦
المنزَّل وكيفية تلقي النبي(ص) ٨١
نزول القرآن باللغة العربية ٨٢
المراد من كون القرآن عربياً ٨٤
القرآن والمفردات الدخيلة ٨٤
السرّ في نزول القرآن باللغة العربية ٨٨
أنواع النزول ٨٨
وقت النزول ودفعاته ٨٩
السرُّ في النزول التدريجي ٩٤

الفصل الثالث: الأدلة على أن القرآن مُنزل من عند الله

١ ـ الآيات التي تبين الدليل العقلي ١٠٨
أسس إثبات إعجاز القرآن ١٢٠
السرّ في إعجاز القرآن ١٢٥
الأدلة القرآنية على نظرية الصرف ١٣٢

وجوه الإعجاز القرآني ١٣٦
التناسق وعدم الاختلاف ١٣٧
بيان التلازم ١٤٠
خصائص الإنسان ١٤٠
خصائص القرآن ١٤٢
بحث عدة شبهات ١٤٤
الفصاحة والبلاغة ١٤٧
بحث عدة شبهات ١٥٦
أمية الرسول ١٥٩
بحث عدة شبهات ١٦٣
المقدار المعجز من القرآن ١٦٤
إعجاز القرآن وإثبات التوحيد في الألوهية ١٦٩
٢ ـ الآيات الدالة على الدليل النقلي ١٧١
البشارة بنزول القرآن في تعاليم الأنبياء السابقين ١٧١
بحث طائفتين من سائر الآيات ١٧٩
الطائفة الأولى: آيات الشهادة ١٧٩
المراد من الشهادة ١٨١
أنواع الشهادة ١٨١
المراد من قوله تعالى ﴿مَن عنده علم الكتاب﴾ ١٨٢
الطائفة الثانية: آيات التهديد بالعقوبة ١٨٤

الفصل الرابع : صيانة القرآن من التحريف

مفهوم التحريف وأنواعه ١٩٠
الشواهد التاريخية ١٩١
الدليل العقلي ١٩٢
الدليل الروائي ١٩٣
الأدلة القرآنية على الصيانة من التحريف ١٩٤
١ ـ آيات التحدي ١٩٤
٢ ـ دلالة أوصاف القرآن على عدم التحريف ١٩٦
٣ ـ آية الذكر ١٩٨
بحث عدة شبهات ٢٠٠
الشبهة الأولى ٢٠٠
الشبهة الثانية ٢٠٢
٤ ـ آية العزة ٢٠٣
الشبهة الأولى ٢٠٦
الشبهة الثانية ٢٠٧
الشبهة الثالثة ٢٠٨
بحث استدلالين عقيمين ٢١١
الطائفة الأولى ٢١١
الطائفة الثانية ٢١٢
نظرة على أدلة القائلين بالتحريف ٢١٣

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

«كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلىٰ صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».[1]

ان القرآن الكريم افضل وآخر رسالة الهية واعظم جوهرة نفيسة تركها النبي الاكرمﷺ ومنهل متدفق للعلوم الاسلامية ومحور اتحاد المسلمين، وان هذا البحر الممتدة سواحله ولا يمكن بلوغ اعماق حقائقه ولا تنقضي عجائبه[2] يجري مع الزمان مجرى الشمس والقمر في اشراقهما على الامم على مر الدهور،[3] فتتساوق آية أو آيات منه مع افكار ورؤى واطباع كل أمة لتهدي التواقين من الناس الى الحقيقة.[4]

ان الخطوة الاولى لولوج بحر القرآن بسواحله التي لا تنتهي والارتواء من علومه التي تهب الحياة وارواء الآخرين منها، هي المعرفة الدقيقة لهذا الكتاب المجيد، وان الذين لم يعرفوا القرآن كما هو، وما قدروه حق قدره، ولا ينتفعون منه كما ينبغي،

---

١. ابراهيم: ١.

٢. عن حديث لعليعليه السلام حيث يقول: «لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه» (نهج البلاغة، الكلام ١٨).

٣. اشارة الى الحديث المروي عن الامام الصادقعليه السلام اذ يقول: «يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر» (بحار الانوار: ٢٣ / ٧٩).

٤. اشارة الى الحديث المروي عن الامام الباقرعليه السلام اذ يقول: «ان القرآن يجري من أوله الى آخره ما قامت السموات والارض ولكل قوم آية يتلونها».

ويعتريهم الملل والكسل بدلاً من الانس بالقرآن وينتهي بهم الامر الى سوء الاعمال لا ينالون منه سوى الخسران والضلال.[١]

ان اقرب وافضل طريق من بين الطرق المتعددة المتيسرة امام الانسان لمعرفة هذا الكتاب هو اللجوء الى كلماته النورانية، وهذه سنّة حسنة دأب عليها علماء الشيعة العارفون بالقرآن اتباعاً منهم للائمة المعصومين عليهم السلام ومن بينهم المرحوم العلّامة الطباطبائي رحمه الله الذي يدين له كافة المحققين في مجال القرآن في عصرنا، وهو أيضاً استاذ سماحة آية الله الشيخ محمدتقي مصباح اليزدي «مد ظلّه العالي» الذي روّى وعلى مدى دورات عديدة من تدريسه لمعارف القرآن في المدرسة الحقانية ومؤسسة في طريق الحق، الفضلاء في الحوزة العلمية بقم من ينبوع الآيات القرآنية بتعريفهم بهذا الكتاب المبارك.

بين ايديكم تقرير لمحاضرات هذا الاستاذ الجليل ومفسر القرآن الكريم، قمتُ بتدوينها واضافة بعض المسائل عليها في بعض المواطن، وبعيداً عن الاسفاف في الكلام فان ما ينطوي عليه هذا الكتاب من روعة ورصانة وغنىً في المضمون انما هو ثمرة الفكر الاصيل للاستاذ المبجل، وما فيه من نقاط ضعف ونواقص انما مصدره عجز الكاتب وقصوره، لذلك فانني اتقبل مقترحات وانتقادات القرّاء الكرام بكل اعتزاز واتقدم باعتذاري للاستاذ الكريم.

وارى لزاماً عليَّ ان اتقدم بالشكر من الاعماق لكافة الاعزة الذين بذلوا جهودهم باخلاص على امتداد مراحل الطباعة والنشر سائلاً الباري تعالى لهم مزيد الموفّقية. وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

محمود رجبي

---

١. «وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً» (الاسراء: ٨٢).

المقدمة

ان القاء نظرة عابرة على القرآن الكريم تدفع اي انسانٍ واعٍ لأن يجتهد من اجل فهم معانيه ومفاهيمه وان كان لمّا يزل يفتقد الايمان الراسخ بالمباني الدينية، لانه سيدرك منذ النظرة الاولى ما يدعيه هذا الكتاب بنزوله من قبل بارئ الكون لهداية الانسان باتجاه اقصى مراحل السعادة.

لو افترضنا أن المستقرئ للقرآن لمّا يزل يفتقد الايمان بأُسس الدين ـ أي التوحيد والنبوة والمعاد ـ فان فطرته تحثه للمبادرة لفهم معاني هذا الكتاب، لما تستدعيه غريزة البحث وطلب المنفعة وتجنب الخسران؛ أوَ لم تدفع هذه الدوافع الفطرية العديدَ من الاجيال البشرية للعمل على اكتشاف الخط المسماري؟ أو ان يسعى العلماء على اختلافهم وعلى مرّ التاريخ للسيطرة على العوامل الطبيعية واختراع الصناعات العجيبة وتسخير الاجرام السماوية؟ وان لم يكن الامل القوي يراودهم بالنجاح في خطواتهم الأُولى.

اذن أنّى لانسان واعٍ وحكيم أن يقف دون اكتراث أمام كتاب قد طرقت دعاواه اسماع العالمين على مدى اربعة عشر قرناً وتحدَّى مناوئيه بان يأتوا بسطرٍ واحدٍ على غراره وتوعَّد منكريه بعذاب دائم، ولا ينبري لمطالعته والتدبر والتعمق فيه؟ ألا يتوقع العاقل ـ حقاً ـ ان منفعةً على قدر من الاهمية تعود عليه بفهمه لهذا الكتاب واطلاعه على المخطّطات والبرامج التي يرسمها؟ ألا يحتمل ان هذا الكتاب نازل من عند الله حقاً، وانه سيُبتلى بذات الخسران الذي وُعد به الغافلون والمعرضون عن هذا الكتاب إن هو

امتنع عن التحقيق فيه والعمل بتعاليمه؟ فعجباً للذين تعرّفوا على هذا الكتاب ولم يبادروا لفهم معانيه.

والعجب العجاب من الذين يعتبرون انفسهم أتباعاً لهذا الكتاب ويعتقدون به منهلاً لكافة العلوم والمعارف الاسلامية، لكنهم في نفس الوقت يتقاعسون عن ادراك مفاهيمه وحقائقه، والاكثر عجباً من اولئك الذين يعدّون انفسهم علماء دين ومختصين بالعلوم الاسلامية وهم لا يجتهدون في اكتشاف كنوز المعارف التي ينطوي عليها هذا الكتاب الشريف كما يجب ويستحق.

لقد كان ـ بطبيعة الحال ـ في كل عصر علماء يحملون وسام الاجتهاد لمعرفة افضل لمعاني القرآن ومعارفه ووضعوا ثمرة جهودهم على هيئة كتب نفيسة في متناول الآخرين، بيد ان حق القرآن على البشرية عامّةً وعلى المسلمين خاصّةً وعلى علماء الاسلام على نحو أخصَّ اعظمُ من ادائه بمثل هذه الجهود، فمن المناسب ان يستثمر العلماء في كل عصر جهود أسلافهم ويقطعوا خطوات بعيدة في طريق بلوغ ذروة المعارف القرآنية والتقدم بهمم عالية وجهود لا تعرف الكلل بهذا الاتجاه، لا ان يتصوروا ان هذا الدرب مسلوك وقد نفدت كنوز القرآن، وبالتالي يتحول درس التفسير ومعارف القرآن الى درس ثانوي في الحوزات العلمية، بل ولا يُبذل الجهد الكافي للتحقيق حول الآيات ذات العلاقة بالدروس التحقيقية في الفقه والاصول ويُكتفى بتلاوة الآية تيمناً وللبركة.

اننا لم ننسَ الجهود القيمة لفقهائنا العظماء الذين كتبوا في تفسير آيات الاحكام، لكننا نعتقد ان القرآن الكريم، وكما صرّح بذلك القرآن الناطق: «بحر لا يُدرك قعره»[١] و«لا تفنى عجائبه».[٢]

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٨ للشريف محمد الرضي الموسوي، المصحح صبحي الصالح، الطبعة الاولى، دار الهجرة / قم، ١٤٠٧ هـ

٢. نفس المصدر: الخطبة ١٨.

ربما من الاسباب التي تقف وراء عدم إيلاء بعض العلماء العنايةَ الكافية لتفسير القرآن اعتبارهم حق تفسيره محصوراً بالمعصومين عليهم السلام، أو خشيتهم عدم القدرة على ايفاء حقه إن هم ولجوا هذا الوادي المقدس ووقوعهم في ورطة التفسير بالرأي الذي ورد النهي عنه في الكثير من الروايات. ومن ناحية اخرى يوحي الذين لا يريدون تكليف انفسهم عناءَ الدراسة والتحقيق والتعمق بأن القرآن لا يحتاج للتفسير وبمقدور كل من له احاطة باللغة العربية ادراك كافة حقائقه.

اننا نرى هذه الشبهات وما شابهها حريّة بالدراسة ونأمل بان نتلقى الرد عليها بكل صراحة ووضوح من القرآن نفسه. ولنفترض اننا لم تثبت لنا بعدُ أية واحدة من هذه المسائل بل وحتى المسائل المتعلقة باصول الدين، وما نحن الّا كمن صادف هذا الكتاب وسمع باسم الاسلام والقرآن لأول مرة، ومقدار معرفته هو ادعاء القرآن في انه نازل من الله لهداية الناس، وان اتّباعه يُفضي الى السعادة الابدية، ومخالفته والاعراض عنه من شأنه الشقاء الدائم. وان الشعور بحب الاطلاع والخوف من عواقب الاعراض عنه، والامل بالانتهال من المنافع التي وعد بها هي الدافع الوحيد الذي يدفعه للبحث في هذا الكتاب ودراسته. بل ونتوقّع توصيف القرآن والدليل على ما يزعم من القرآن نفسه ونتحرّى عن طريقه سبيل معرفة المفاهيم والانتفاع من الحقائق التي ينطوي عليها.

من الطبيعي أننا قد حققنا حول الكثير من القضايا وآمنّا بنتائجها من خلال طرق اخرى، ولكن نظراً لما تسببت به الشبهات الشيطانية ـ التي تزداد وتتنوع يوماً بعد يوم ـ من تعرُّض الكثير من القطعيات بل وحتى الضروريات للتشكيك بل وللانكار ايضاً، فلا مناص لنا من الانطلاق بعملنا على اساس في غاية الرصانة والمتانة ومنهج متقن لا يقبل الانكار، لا يكون مرتهناً بحل مسألة اخرى، لنثبت ـ تدريجياً وببركة هذا الكتاب الشريف والنور المبين ـ حقائق الدين بشكل منظّم وصحيح، ونشيد سداً

منيعاً في وجه سيل الشبهات والوساوس التي يثيرها مرضى القلوب والمنحرفون فكرياً وشياطين الانس والجن، لنؤدي قليلاً من حقوق القرآن وهي كثيرة ونساهم ـ ما استطعنا ـ في المحافظة على ايمان المؤمنين وهداية التواقين للحق.

ومن الله التوفيق وعليه التكلان.

الفصل الاول

اسماء القرآن وصفاته

هنالك الكثير من الآيات في القرآن الكريم تطرقت لبيان خصائص هذا الكتاب العظيم، فبعض هذه الآيات يصف القرآن بكلمة مفردة، وبعضها الآخر يصفه بواسطة جملة أو جمل متعددة. وما يجري بحثه في هذا الفصل تلك الآيات التي تختص بوصف القرآن بأسمائه المفردة.

لقد تعددت واختلفت آراء المفسرين والمختصين بعلوم القرآن في مجال عدد هذه الاسماء التي كثيراً ما يشيرون اليها باسماء القرآن، فقد عدَّها بعضهم اكثر من تسعين اسماً[1] وطائفة اخرى ذكرت اسماءً معدودات.[2]

وبالاضافة الى اختلاف الآراء في تفسير هذه الآيات، فان اختلاف هؤلاء العلماء في فهم عبارة «اسماء القرآن وصفاته» أصبح سبباً في اختلاف الآراء في عدد أسماء القرآن وصفاته ايضاً، وبناءً على هذا فان الذين ذكروا عدداً محدوداً من المفردات التي اطلقت على القرآن من قبيل الكتاب، والقرآن، والذكر والفرقان بوصفها اسماءً للقرآن

---

١. راجع البرهان في علوم القرآن: ج ١، ص ٣٤٣، لبدر الدين محمد الزركشي، الطبعة الاولى، دار الفكر ـ بيروت، ١٤٠٨.

٢. راجع التبيان في تفسير القرآن: ج ١، ص ١٧ ـ ١٩، لأبي جعفر محمد الطوسي، الطبعة الاولى، مكتب الاعلام الاسلامي ـ قم، ١٤٠٩.

انما قصدوا اسماً خاصاً أو مشهوراً او عنواناً مستقلاً، والذين اعتبروا العدد الكبير جداً من الكلمات المطلقة على هذا الكتاب اسماً أو صفةً انما مرادهم الاستخدام اللغوي لمفردات «الاسم» و«الصفة».

ومن الجدير بالذكر ان بعض الصفات والاسماء المذكورة من قبيل هدى، وموعظة ورحمة ليست صفات خاصة بالقرآن بل هي أُطلقت في القرآن أيضاً على الكتب السماوية السالفة.

ثمة ملاحظات عديدة في الاسماء والصفات المذكورة من الممكن إخضاعها للدراسة من قبيل المعنى أو المعاني اللغوية والاصطلاحية لها، وسرّ استخدامها بشأن القرآن، ووحدة معانيها أو تعددها في القرآن، والعلاقة فيما بينها، والتركيبة لمعرفة معنى كل منها، والسرّ في كثرة تكرارها أو قلتها في القرآن، وخصوصية أو عدم خصوصية بعضها،[1] بيد ان التطرق لها جميعاً لا يستوعبه هذا الكتاب، من هنا لا مفر لنا من انتقاء بعض هذه المحاور، كما يمكن تصنيف الاسماء المذكورة من حيث الاختلاف في الآراء ونكتفي بايراد صنفين منها فقط في بداية هذا الفصل ونهايته، وسنجعل في التصنيف الاول الذي سنتطرق في ضوئه لذكر الاسماء، اسماء القرآن وصفاته على طائفتين من الاسماء والصفات المستقلة والملحقة، وفي التصنيف النهائي سنقوم بتقسيمها استناداً لترابطها والتقارب في مضمونها.

أ ـ الاسماء المستقلة

المراد من الاسماء المستقلة أو الاستقلالية هي المفردات المطلقة على القرآن تلقائياً دون

---

١. لقد تطرق المتخصصون في علوم القرآن والمفسرون لبحث الاسم الخاص للقرآن في روايات المسلمين وتقاليدهم ايضاً بالاضافة الى كون بعض المفردات الواردة في القرآن اسماً خاصّاً له، لكننا نغضّ الطرف عنها نظراً لان بحوث الكتاب بحوث قرآنية.

ان تأتي صفةٌ لمفردة اخرى، فهنالك ما يربو على الاربعين اسماً مستقلاً في القرآن الكريم اطلق على هذا الكتاب النفيس، نتطرق لبحثها فيما يلي:

١ و ٢ـ الكتاب والكتب

أُطلقت كلمة الكتاب على القرآن في سبعة واربعين مورداً من قبيل:

«ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» البقرة / ٢، وفي سائر الموارد عبارة عن: البقرة / ١٧٦، ٢٣١، آل عمران / ٧ مرتين، النساء / ١٠٥، ١١٣، ١٢٧، ١٣٦ مرتين، ١٤٠، المائدة / ٤٨، الانعام / ١١٤، الاعراف / ١٩٦، يونس / ١، ٣٧، يوسف / ١، الرعد / ١، الحجر / ١، النحل / ٦٤، ٨٩، الكهف / ١، مريم / ١٦، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٦، الشعراء / ٢، القصص / ٢، ٨٦، العنكبوت / ٤٥، ٤٧، ٥١، لقمان / ٢، السجدة / ٢، فاطر / ٣١، ٣٢، الزمر / ١، ٢، ٤١، المؤمن / ٢، الشورى / ١٧، ٥٢، الزخرف / ٢، الدخان / ٢، الجاثية / ٢، الاحقاف / ٢.

ويبدو أو يحتمل ان يكون المراد من الكتاب في تسعة موارد اخرى هو القرآن: البقرة / ١٢٩، ١٥١، ١٧٧، آل عمران / ١١٩، ١٦٤، الاعراف / ١٧٠، الاحزاب / ٦، المؤمن / ٧٠، الجمعة / ٢.

وورد لفظ «كتاب الله» في ثلاثة موارد أيضاً:

الانفال / ٥٧، الاحزاب / ٦، فاطر / ٢٩.

حيث إن المراد في المورد الثاني هو القرآن، كما يُحتمل ان يكون المراد من كتاب الله في الآية ٣٦ من سورة التوبة هو القرآن أيضاً.

والمراد من «كتاب ربك» في أحد الموارد وذلك في الآية ٢٧ من سورة الكهف هو القرآن أيضاً.

وأُطلق لفظ «كتاب» نكرةً على القرآن في ستة عشر مورداً وهي:

البقرة / ٨٩، المائدة / ١٥، الانعام / ٩٢، ١٥٥، الاعراف / ٢، ٥٢، هود / ١، ابراهيم / ١، النمل / ١، ص / ٢٩، فصلت / ٣، ٤١، الاحقاف / ١٢، ٣٠، الانبياء / ١٠، الزمر / ٢٣.

ووصف في مورد واحد «فصلت / ٤١» بـ«عزيز» وفي موردين «المائدة / ١٥ والنمل / ١» بـ«مبين».

وفي الآية الثالثة من سورة البينة أُطلقت كلمة «كتب» بصفة الجمع على القرآن أيضاً «فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ».

الكتاب مصدر، وقال علماء اللغة: ان معناه الاصلي هو الجمع[1] والاثبات، لكن استخدامه الدارج بمعنى الكتابة والمكتوب، حيث يكون مراد الله من مفردة الكتاب فيما يخص القرآن هو المعنى الاخير أي المكتوب.

وهنا يتبادر هذا السؤال وهو: ما هي مناسبة إطلاق هذا الوصف على القرآن؟ وهل ان هذه المفردة استخدمت بشأن القرآن بعد كتابة آياته أم قبل ذلك؟ وفي الحالة الثانية كيف أُطلقت مفردة الكتاب «المكتوب» على الفاظ لم تُدوّن بعد؟

لم يتفق المفسرون والمحقّقون في العلوم القرآنية بهذا الصدد، فاعتبر البعض إطلاق الكتاب على القرآن بانه حقيقي وقالوا: ان الآيات التي استخدمت فيها مفردة الكتاب بشأن القرآن نزلت في وقت كانت طائفة من آيات القرآن قد كُتبت، ولهذا السبب أُطلقت مفردة الكتاب على القرآن.

وتتطابق هذه الرؤية مع روايات ترتيب نزول السور التي يراها الزركشي مروية عن الثقات، فاستناداً لهذا النقل ـ بغض النظر عن الآية الثالثة من سورة البينة الناظرة للألواح السماوية للقرآن ـ فان اول آية أُطلق فيها لفظ الكتاب على القرآن هي الآية

---

١. من هنا قال البعض ان مفردة الكتاب التي أُطلقت في هذا المجال على القرآن انّما تعني الكتاب الجامع لأن القرآن جمع انواع القصص والآيات والاحكام والاخبار بطرق خاصة. المصدر المتقدم لبدر الدين محمد الزركشي: ص ٣٤٧.

٢٩ من سورة «ص» التي نزلت بعد نزول ثلاث وخمسين سورة من القرآن، ومن الطبيعي ان المسلمين كانوا قد حفظوا الآيات المتقدمة ودوّنوها. بيد ان هذا الفهم قائم على التخمين وليس هنالك من دليل يثبته. اضف الى ذلك أنه اذا كان ثمة دليل فليس واضحاً ان اطلاق الكتاب على القرآن كان بسبب تدوين بعض منه.

ويعتقد البعض الآخر ان هذا استخدام مجازي بلحاظ أنه سيُكتب في المستقبل (بقرينة انه سوف يؤول الى ذلك أو انه مشرف عليه) أو ان هذه المفردة أُطلقت على القرآن بسبب انه حتماً سيُكتب.[١]

من المتعذر القبول بهذه النظرية ايضاً لانها خلاف الاصل والظاهر ولا دليل عليها. ولكن يمكن القول ان معنى الكتاب هو المكتوب الشأني «ما من شأنه أن يكتب» مثلما يعني القرآن ما هو مقروء «ما من شأنه ان يُقرأ» و«إله» الذي يعني المعبود «ما من شأنه ان يُعبد».

وبهذا التفسير تجد مثل هذه الإشكالات التي تثار حول الإله ـ ما إذا كان المراد منه المعبود الحق أو مطلق المعبود؟ـ الاجابةَ الواضحة عنها.[٢]

من الممكن تصور وجه آخر فيما يتعلق باطلاق لفظ الكتاب على القرآن وهو ان المراد من كتابته، الكتابة في اللوح المحفوظ والكتاب المكنون، وان معرفة طبيعة ذلك مرهونة بمعرفة اللوح المحفوظ ليتضح ما يناسبه من سنخ للكتابة.

٣ـ الصحف

استخدمت كلمة الصحف في موضعين من القرآن فيما يخص هذا الكتاب العظيم وهما:

---

١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي: ج ١ / ص ١٠٦، الطبعة الاولى، دار الفكر ـ بيروت، ١٤٠٨.

٢. لمزيد من التوضيح في هذا المجال راجع معارف القرآن لمحمدتقي مصباح اليزدي: ج ١ / ص ٢٥، الطبعة الاولى، الدار الاسلامية ـ بيروت، ١٤٠٨.

الاول: تقول الآية ١٣ من سورة عبس:

«فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ» اذ جُعلت الصحف ظرفاً للقرآن.

والثاني: الآية ٢ من سورة البينة:

«رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً» حيث اطلقت «الصحف» على اجزاء القرآن. والصحف جمع صحيفة، والصحيفة تعني المبسوط من الشيء، ومفاد الصحيفة في مثل هذه الموارد في غاية القرب من معنى الكتاب، والمراد منها الالواح النورانية وغير المادية التي دُوِّنَ عليها مفاد الوحي، وليس من الواضح لدينا طبيعة الالواح ولا كيفية إثبات الوحي الالهي عليها.

٤ و٥ـ الحديث واحسن الحديث

لقد اطلقت كلمة «حديث» على القرآن في اربعة موارد من قبيل:

«فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ» الطور: ٣٤، والموارد الثلاثة الاخرى عبارة عن: الكهف / ٦، والواقعة / ٨١، والقلم / ٤٤.

كما يُحتمل ان يكون القرآن هو المراد من كلمة الحديث في الآيتين ١٨٥ من سورة الأعراف، و ٥٠ من سورة المرسلات، فيما استخدمت كلمة «احسن الحديث» في الآية ٢٣ من سورة الزمر فقط.

تستخدم كلمة «حديث» بمعنيين: احدهما الجديد والآخر بمعنى الكلام والقول، وان كان اصل هذه المفردة يعني التجدد، ولعلها استخدمت في الكلام بسبب تتابع اجزائه وظهورها متجددةً، كما انها تستخدم للرؤيا لما فيها من نوع من الحوار، بيد ان استخدامها الفعلي ليس بسبب حداثة مفهوم الكلام ومضمونه، وبناءً على هذا فان «الحديث» اذا ما استخدمت بشأن القرآن فانما تعني «الكلام»، و«احسن الحديث» تعني «خير الكلام».

٦ـ القول:

يقول تعالى في الآية ٦٨ من سورة المؤمنون:

«أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ»، فالمراد من القول هو القرآن.

كما يبدو ان المراد منه في الآية ٥١ من سورة القصص هو خصوص القرآن ايضاً:

«وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

ويحتمل ان يكون المراد من «القول» في الآية ١٨ من سورة الزمر هو القرآن ايضاً:

«الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ».

وينبغي عدم التعجب لمدحه في هذه الآية للذين يتبعون احسنه بينما المتعيَّن اتّباع القرآن بأكمله، اذ يقول تعالى في الآية ٥٥ من نفس السورة:

«وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» حيث يأمر باتّباع أحسن ما أنزل اليكم من ربكم، كما يقول في الآية ١٤٥ من سورة الأعراف مخاطباً موسىعليه السلام: «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها»، في حين كان الاخذ بكل التوراة واجباً على بني اسرائيل، ولعل المراد من «احسنه» محكمات القرآن التي تقابلها المتشابهات التي يتّبعها مرضى القلوب.

«فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ» آل عمران / ٧.

ولعل ذكر «الاحسن» جاء نتيجة لافضلية بعض الاحكام من قبيل حكمي القصاص والعفو الواردين في القرآن ويجوز العمل بهما بيد ان العفو هو الاحسن والافضل. كما ذكر المفسرون وجوهاً اخرى.

كما اطلقت كلمة «قول» على القرآن في عدة موارد اخرى، فيقول في الآية ٥ من سورة المزمل:

«إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً»، حيث يبدو ان المراد هنا طائفة من آيات القرآن.

ويقول في الآية ١٣ من سورة الطارق:

«إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ»

ويقول في الآية ٤٠ من سورة الحاقة:

«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»

والمراد من «رسول» النبي الاكرمﷺ أو جبرئيل، وقد وردت هذه العبارة في الآية ١٩ من سورة التكوير ايضاً، والمراد من «رسول» فيها هو جبرئيل بقرينة الآيات اللاحقة.

٧ و٨ـ كلام الله وكلمات الله

استخدم التعبير بـ«كلام الله» في ثلاثة موارد من القرآن: أحدها في الآية ٧٥ من سورة البقرة:

«وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»

والآخر في الآية ٦ من سورة التوبة:

«وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ» ومصداقه القرآن.

والثالث في الآية ١٥ من سورة الفتح:

«يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ» والمراد به كلام خاص صرَّح به الباري تعالى بشأن المنافقين.

ويقول في الآية ٢٧ من سورة الكهف:

«وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ» فقد أُطلقت مفردة «كلمات» على القرآن.

وقد استخدمت «كلمات» و«كلام» في الآيات الكريمة بخصوص غير القرآن ايضاً، ووردت بحوث وآراء مختلفة في تفسيرها، ولكن نظراً لوضوح المراد من «كلام» و«كلمات» في الموارد التي تخص القرآن فاننا نتجنب الخوض في توضيحها وتفسيرها.

وسيرد الحديث عن كلام الله في باب صفات الله وافعاله ايضاً.

٩ـ القرآن

استخدمت كلمة «القرآن» خمسين مرة، والمراد منها في جميع الموارد هو هذا الكتاب الشريف، من قبيل:

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...» البقرة / ١٨٥، وسائر الموارد عبارة عن:

النساء / ٨٢، المائدة / ١٠١، الانعام / ١٩، الاعراف / ٢٠٤، التوبة / ١١١، يونس / ٣٧، يوسف / ٣، الحجر / ٨٧، ٩١، النحل / ٩٨، الاسراء / ٩، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٦٠، ٨٢، ٨٨، ٨٩، الكهف / ٥٤، طه / ٢، ١١٤، الفرقان / ٣٠، ٣٢، النمل / ١، ٦، ٧٦، ٩٢، القصص / ٨٥، الروم / ٥٨، سبأ / ٣١، يس / ٢، ص / ١، الزمر / ٢٧، فصلت / ٢٦، الزخرف / ٣١، الاحقاف / ٢٩، محمد / ٢٤، ق / ١، ٤٥، القمر / ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، الرحمن / ٢، الحشر / ٢١، المزّمل / ٤، ٢٠، الدهر / ٢٣، الانشقاق / ٢١.

كما استخدمت كلمة «قرآن» مجردة من «الـ» التعريف ثلاث عشرة مرة بخصوص هذا الكتاب هي:

يوسف / ٢، الحجر / ١، الاسراء / ١٠٦، طه / ١١٣، يس / ٦٩، الزمر / ٢٨، فصلت / ٣، ٤٤، الشورى / ٧، الزخرف / ٣، الواقعة / ٧٧، الجن / ١، البروج / ٢١.

واستعملت كلمة قرآن في سبعة موارد اخرى، المراد في ثلاثة منها مطلق القراءة، وفي الموارد الاربعة الاخرى أُريد منها المعنى المصدري، وهي كما يلي: يونس / ١٥، ٦١، الرعد/ ٣١، الاسراء / ٧٨ (مرتين)، القيامة / ١٧ ، ١٨.

«القرآن» في اللغة يعني القراءة. وقد استخدمت هذه المفردة بادئ الرأي بصيغة الوصف فيما يخص هذا الكتاب السماوي لكنها اتخذت صفة العَلَم تدريجياً، ولا يُعتنى بالرأي القائل ان هذه الكلمة مأخوذة من مادة «قرن» وهمزتها زائدة،[1] وربما لا

١. شبيه هذا الوجه الرأي القائل ان مفردة القرآن اسم جامد وعَلَمٌ للقرآن نظير التوراة والانجيل قد أُخذت من قرائن أو قرء بمعنى الق أو أخذ.

يمكن العثور على شبيه له، اضف الى ذلك ان هذا اللفظ ـ كما تقدمت الاشارة ـ استُخدم في القرآن نفسه وفي عدة موارد بمعنى القراءة.[١]

ويبدو أن ليس هنالك من مراد في إطلاق كلمة «قرآن» على هذا الكتاب سوى أنها الفاظ مقروءة، مثلما لا يُفهم ايُّ معنى في اطلاق كلمة «كتاب» سوى انها آيات مكتوبة أو أُثبتت في اللوح المحفوظ، ولكن بالامكان ذكر وجوه اخرى لهذه الصفة منها:

١ـ اصل مادة «قرأ» التي تعني الجمع، و«قُرء» بضم القاف تُطلق على الأيام التي يتجمع فيها دم الحيض في رحم المرأة، والقرآن صفة مشبّهة على وزن فعلان وتعني «الجامع» أو مصدر يعني «الجامع» أو «المجموع فيه» وما يؤيد ذلك ايراد كلمة «قرآن» بعد كلمة «جمع» في الآية ١٧ من سورة القيامة:

«إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ»[٢]

وسبب تسمية هذا الكتاب بهذا الاسم هو جامعيته لكل الموضوعات التي يحتاجها الانسان.

٢ـ ان اختيار هذا الاسم لهذا الكتاب جاء ليعرف الناس على الدوام بان عليهم قراءته ولا ينبغي لهم هجرانه، وهذا هو الأمر الذي مهّد لتواتر قراءة القرآن وهو يضمن صيانة القرآن من التحريف.[٣]

٣ـ ان هذا الكتاب مرتبة من كلام الله بل من علم الله وان منزلته الحقيقية ارفع من ان يأتي على هيئة الفاظ، غير ان الله تعالى منَّ على الناس وأنزله نوعاً ما حتى جاء بصورة الفاظ مقروءة، وان هذا الاسم للاشعار بهذا الأمر، كما في قوله تعالى في الآية

---

١. للاطلاع على مختلف الاقوال والوجوه بهذا الصدد، راجع المصدر المتقدم لبدر الدين محمد الزركشي: ج ١، ص ٣٥٠ـ ٣٤٧.

٢. بناء على هذا فان عطف «قرآنه» على «جمعه» عطف تفسيري.

٣. النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز: ص ١٣، الطبعة الثالثة، دار القلم، الكويت، ١٣٩٤.

٣ من سورة الزخرف:

«إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»

٤ـ جاء هذا الوصف لأن الله عزّ وجلّ قرأ هذا الكتاب للنبيﷺ، كما في قوله تعالى في الآية ١٨ من سورة القيامة:

«فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»

وقوله في الآية ٦ من سورة الاعلى:

«سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسىٰ»

وجرى بيان هذا المعنى في موارد اخرى بلفظ «التلاوة» كما في الآية ٢٥٢ من سورة البقرة:

«تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ»

ويستفاد من ذلك ان هذا الكتاب الشريف نزل على النبي الاكرمﷺ بهذه الالفاظ وليس ان معناها فقط أُلقي في قلبه المبارك والفاظها منهﷺ.

ويبدو ان الوجهين الاخيرين هما الاقرب من بين هذه الوجوه.

١٠ و١١ـ تنزيل ومُنَزَّل

أُطلقت كلمة «تنزيل» على القرآن في خمسة موارد من قبيل:

«وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» الشعراء / ١٩٢.

والموارد الاربعة الاخرى عبارة عن:

فصلت / ٢، ٤٢، الواقعة / ٨٠، الحاقة / ٤٣، واستخدمت عبارة «تنزيل الكتاب» في خمسة موارد هي: السجدة / ٢، الزمر / ١، غافر / ٢، الجاثية / ٢، الاحقاف / ٢.

يقول تعالى في الآية ٤ من سورة طه:

«تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلىٰ»

ويقول في الآية ٥ من سورة يس:

«تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ»

وورد في موردين آخرين بصيغة المفعول المطلق، وهما: الاسراء / ١٠٦ والدهر / ٢٣.

يقول تعالى في الآية ١١٤ من سورة الشعراء:

«وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ»

من الواضح ان المراد من اطلاق هذه المفردة على القرآن في الموارد الخمسة الاولى هو اسم المفعول.

التنزيل من مادة «نزول» وتعني الهبوط، وصيغة التفعيل لها دلالة على الكثرة، إما لكثرة نزول القرآن أو لتعدد الآيات أو لكثرة مراتب النزول،[1] والوجه الاخير اكثر وضوحاً وهو الاكثر انسجاماً مع موارد الاستعمال، كما سيأتي توضيحه.

النزول يقابل الصعود والعروج وقد يستخدم فيما يخص الحسيات، أي انتقال جسم من نقطة عليا الى نقطة ادنى منها، وتارة يستخدم في الامور الاعتبارية كالذي يتنزل من منصب رفيع الى منصب ادنى منه، كما يقال «نزل الملك عن عرشه» والمراد به خلعه أو تخلّيه عن منصب الملكية، واخرى يستخدم في الامور الحقيقية غير الحسية من قبيل نزول القرآن من لدن الباري تعالى على قلب النبي الاكرمﷺ، وهو في الواقع قد نزل من مرتبة العلم الالهي الى مرتبة الالفاظ والمفاهيم البشرية، فمن الواضح ان نزول القرآن لا يعني حركة شيء جسماني من مبدأ مادي نحو غاية مادية اخرى، ولا يعني تنزل مرتبة واعتبار حقيقة القرآن.

---

١. سيأتي في الفصل القادم المزيد من الايضاح لهذا الموضوع والفرق بين النزول، والانزال والتنزيل التي استخدمت بشأن القرآن.

١٢ـ الآيات

استخدمت كلمة «آيات» بشأن القرآن بصيغ مختلفة منها:

قوله تعالى في الآية ٥٨ من سورة آل عمران:

«ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ»

ويبدو ان المراد من الآيات في ثلاثة وعشرين مورداً آخر هو القرآن وهي:

البقرة / ٢١٩، ٢٦٦، آل عمران / ١١٨، المائدة / ٧٥، الانعام / ٤٦، ٥٥، ٦٥، ٩٧، ١٠٥، ١٢٦، الاعراف / ٣٢، ٥٨، ١٧٤، التوبة / ١١، يونس / ٥، ٢٤، الرعد / ٢، النور / ١٨، ٥٨، ٦١، الروم / ٢٨، الحديد / ١٧.

وأُطلقت «آيات الله» على القرآن في سبعة موارد هي:

البقرة/٢٥٢، آل عمران / ١٠١، ١٠٨، القصص / ٨٧، الاحزاب / ٣٤، الجاثية / ٦، ٨.

والظاهر ان المراد منها في سبعة موارد اخرى هو القرآن ايضاً وهي:

البقرة / ٦١، آل عمران / ٧٠، ١٩٩، النساء / ١٤٠، الأنعام / ٣٣، ١٥٧، الأعراف / ٢٦، التوبة / ٩، يونس / ٩٥، النحل / ١٠٤، ١٠٥، الزمر / ٦٣، المؤمن / ٤، ٣٥، ٥٦، ٦٣، ٦٩.

وفي خمسة موارد اخرى أضيفت كلمة آيات الى كلمة «رب» واطلقت على القرآن وهي: الكهف / ٢٢، ٥٧، المؤمنون / ٥٨، الفرقان / ٧٣، الجاثية / ١١.

والظاهر ان المراد من كلمة «آياتي» في اربعة موارد هو القرآن وهي:

البقرة / ٤١، المائدة / ٤٤، الاعراف / ١٤٦، الزمر / ٥٨.

كما يبدو ان مصداق «آياته» في سبعة عشر مورداً آخر هو القرآن وهي: البقرة / ١٨٧، ٢٢١، ٢٤٢، آل عمران / ١٠٣، ١٦٤، المائدة / ٨٩، الانعام / ٢١، ١١٨، الانفال / ٢، التوبة / ٦٥، يونس / ١٧، هود / ١، النور / ٥٩، ص / ٢٩، فصلت / ٣، الجاثية / ٦، الجمعة / ٢.

وفي اربعة وعشرين مورداً أُطلقت كلمة «آياتنا» على القرآن، وهي:

البقرة / ١٥١، النساء / ٥٦، الانعام / ٥٤، ٦٨، ١٥٠، ١٥٧، الاعراف / ١٨٢، الانفال / ٣١، الحج / ٥١، ٧٢، النمل / ٨١، القصص / ٤٥، العنكبوت / ٤٧، ٤٩، الروم / ٥٣، لقمان / ٧، سبأ / ٥، ٣٨، فصلت / ٢٨، ٤٠، الشورى / ٣٥، القلم / ١٥، المدثر / ١٦، المطففين / ١٣.

والظاهر ان المراد من «آياتنا» في اثني عشر مورداً آخر هو القرآن، وهي:

المائدة / ١٠، ٨٦، الانعام / ٣٩، الاسراء / ٩٨، مريم / ٧٧، الحج / ٥٧، النمل / ٨٢، لقمان / ٣٢، السجدة / ١٥، الجاثية / ٩، الحديد / ١٩، البلد / ١٩، واستعملت «آيات» في موارد اخرى بمعناها العام حيث تشمل القرآن ايضاً.

واستخدمت عبارة «آيات بينات» بحق القرآن في خمسة موارد وهي: البقرة / ٩٩، الحج / ١٦، العنكبوت / ٤٩، الحديد / ٩، المجادلة / ٥.

ووردت عبارة «آياتنا بينات» في ستة موارد اخرى هي: يونس / ١٥، مريم / ٧٣، الحج / ٧٢، سبأ / ٤٣، الاحقاف / ٧.

ووردت عبارة «آيات مبيّنات» في موردين هما: النور / ٤٣، ٤٦.

ويقول تعالى في الآية ١١ من سورة الطلاق:

«رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ»

ويقول في الآيتين الاوليين من سورتي الرعد والحجر:

«تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ»

ويقول في الآية الاولى من سورة النمل:

«تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ»

ويقول في الآية الاولى من سورة يوسف والآية الثانية من سورة الشعراء والآية الثانية من سورة القصص:

«تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ».

والمراد من الآيات في جميع هذه الموارد هو القرآن.

والآية تعني العلامة والدلالة الواضحة والناطقة وتُطلق على البناء والبرج الشاهق، كما في قوله تعالى في الآية ١٢٨ من سورة الشعراء:

«أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ».

كما يقال «آية» لكل ما فيه عبرة وموعظة، من قبيل ما جاء في الآية ٩٢ من سورة يونس:

«فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً»

ان الآيات الالهية امورٌ تشهد على وجود الخالق وقدرته وحكمته وعظمته وسائر صفاته العليا، من هنا يمكن استخدامها بشأن كافة المخلوقات، ففي مواضع كثيرة يقول القرآن الكريم بعد ذكره لظواهر عالم الخلقة:

«إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ»

كما تُسمّى الامور الخارقة ومعجزات الانبياء على وجه التحديد «آيات» لانها تحمل دليلاً واضحاً على قدرة الله وعظمته، كما ان المعجزات دليل على صدق الانبياء في ادعائهم للنبوة. يقول تعالى في الآية ٥٠ من سورة المؤمنون:

«وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً»

ويقول في الآية ١٠١ من سورة الاسراء:

«وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسىٰ تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ»

وتارة كان المعاندون يطالبون بآية تُرغم من يشاهدها على الاذعان، ويشير القرآن الى هؤلاء قائلاً:

«إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ» الشعراء / ٤.

لقد اقتضت الحكمة الالهية فتح باب الاختيار أمام البشر، فمن شاء اختار الطريق

القويم ومن شاء اختار الضلال، وإلّا فقد كان بمقدور الله ان يُظهر معجزة كبرى وضخمة في السماء بحيث لا مفرّ أمامهم إلّا الاذعان أمام الحق.

من موارد استعمال كلمة «آية» هو القرآن الكريم حيث أُطلقت «آيات الله» في موارد كثيرة ـ كما جرت الاشارة ـ على هذا الكتاب بجزئياته وعباراته.

بناءً على هذا، من الممكن تقسيم الآيات الالهية الى قسمين: تشريعي وتكويني، والآيات التشريعية عبارة عن القرآن الكريم، أما الآيات التكوينية فهي على طائفتين: عادية وخارقة، أو انها تُقسم الى آيات بالمعنى العام وآيات بالمعنى الخاص، والآيات بالمعنى العام تشمل ظواهر الكون، أما الآيات بالمعنى الخاص فهي تشمل الامور الخارقة للعادة ومعجزات الانبياء.

١٣ و١٤: الحق وحق اليقين

أُطلقت مفردة «حق» على القرآن في ستة وثلاثين موضعاً من قبيل:

«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» البقرة / ٢٦.

وسائر الموارد عبارة عن:

البقرة / ٩١، ١٤٤، ١٤٧، ١٤٩، آل عمران / ٦٠، النساء / ١٧٠، المائدة / ٨٤، الانعام / ٥، ٦٦، يونس / ٩٤، ١٠٨، هود / ١٧، ١٢٠، الرعد / ١، ١٩، الكهف / ٢٩، الحج / ٥٤، المؤمنون / ٧٠، ٩٠، القصص / ٤٨ ، ٥٣، العنكبوت / ٦٨، السجدة / ٣، سبأ / ٦، ٤٣، فاطر / ٣١، الصافات / ٣٧، الزخرف / ٢٩، ٣٠، الاحقاف / ٧، محمد / ٢، ٣، ق / ٥، الحديد / ١٦، الممتحنة / ١.

ويبدو أو يُحتمل ان المراد من الحق في سبعة موارد أخرى هو القرآن، وهي:

المائدة / ٤٨، ٨٣، الانعام / ٥٧، الاسراء / ٨١، سبأ / ٤٩، فصلت / ٥٣، الزخرف / ٧٨.

وفي الآية ٥١ من سورة الحاقة أُطلقت كلمة «حق اليقين» على القرآن، ويُحتمل ان يكون المراد من هذه الكلمة في الآية ٩٥ من سورة الواقعة هو القرآن ايضاً.

١٥ـ الصدق

يقول تعالى في الآية ٣٢ من سورة الزمر:

«فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ»، حيث القرآن هو مصداق «الصدق» في هذه الآية، كما يبدو ان المراد من «الصدق» في الآية ٣٣ من سورة الزمر هو القرآن ايضاً.

الحق مصدرٌ ويعني الثبوت، وتستعمل ايضاً بالمعنى الوصفي «الثابت»، ان كل شيء حقٌ في ظرف ثبوته، وعلى هذا الاساس فان كل الموجودات وحتى الاعتبارية منها تسمى حقاً بلحاظ نوع الثبات الذي تتميز به، غير ان الحق يستعمل احياناً بمعنى الثابت الدائم والمطلق، وفي مقابله تسمى الاشياء التي تفنى باطلاً، وقد يستعمل بمعنى الثابت بالذات وهذا ما ينحصر بالله سبحانه وتعالى.

كما يستعمل الحق بمعنى الكلام أو الاعتقاد أو الادعاء المطابق للواقع وهو ما يرادف الصدق تقريباً، وقد قيل اذا كان المراد مطابقة القول مع الواقع اذ ذاك تستعمل مفردة «الصدق»، واذا كان المراد مطابقة الواقع للقول أو المعتقد يستعمل لفظ «حق».

وتستعمل مفردة «حق» فيما يخص الاعمال لما فيها من مصالح واقعية، وفي الامور الاعتبارية لثبوتها في ظرف الاعتبار. واستعمال مفردة حق بشأن القرآن إما لما يتحدث عنه من حقائق أو لصدق ادعائه بانه نازل من عند الله عزّ وجلّ.

١٦ـ العلم

يخاطب تعالى النبي الاكرمﷺ في اربعة مواضع قائلاً:

«مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ» البقرة / ١٢٠، ١٤٥، آل عمران / ٦١، الرعد / ٣٧، ويمكن اعتبار القرآن هو المصداق الوحيد المراد في الآية أو أحد مصاديقها أو السبب في حصول العلم على اقل تقدير.

١٧ـ البرهان

يقول تعالى في الآية ١٧٣ من سورة النساء:

«قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ»

والمراد من البرهان في هذه الآية الكريمة هو القرآن، ومعناه الدليل الواضح الذي لا يدع مجالاً للشك والشبهة.

١٨ و١٩: البيان والتبيان

يقول تعالى في الآية ١٣٨ من سورة آل عمران:

«هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ»

ويقول في الآية ٨٩ من سورة النحل:

«وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ»

٢٠ و٢١: البينة والبينات

يقول في الآية ١٥٧ من سورة الانعام:

«فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ»

ويُحتمل ان يكون مصداق البينة في الآية ٥٧ من سورة الانعام، والآية ١٧ من سورة هود، والآية ١٣٣ من سورة طه، والآية ١٤ من سورة محمد ﷺ وكذلك المراد من البينة في الآيتين الاولى والرابعة من سورة البينة هو القرآن.

يقول تعالى في الآية ١٨٥ من سورة البقرة في صفة القرآن:

«وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ»

ويظهر ان المراد من البينات في الآيات التالية هو القرآن ايضاً وهي:

البقرة / ٢٠٩، ٢٥٣، آل عمران / ٨٦، المؤمن / ٦٦، وقد قيل آنفاً ان آيات القرآن وُصفت في بعض المواضع بالبيّنات.

«بيان» مصدر فعل لازم وتعني الواضح والجلي، كما تستعمل كمصدر واسم فاعل متعدٍّ بمعنى ايضاح وموضّح.

و«بينة» صفة مشبهة لفعل متعدٍّ وتعني الموضّح.

و«تبيان» مصدر سماعي لفعل متعدٍّ وتعني الايضاح.

كما ان «مبين» الذي سيأتي ذكره لاحقاً في الاوصاف التابعة للقرآن، هو من نفس هذه المادة ايضاً، وهو يعني اسم فاعل من «أبان» ويستعمل بمعنىً لازم ومتعدٍّ وهو واضح وموضّح.

ويأتي اطلاق «بيان» و«تبيان» على القرآن لان هذا القرآن يوضح كافة الحقائق التي يتعين على الانسان معرفتها ويتعذر عليه سلوك طريق السعادة دون معرفتها، ويبدو ان المراد من قوله «تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ» هو ايضاح الامور التي من شأن القرآن بيانها، ومفردة «شيء» مقيدة ويُفهم قيدها من القرائن المقامية ومناسبة الحكم والموضوع[1] كما هو المراد من كل شيء في الآية ٢٣ من سورة النمل «وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» فالمقصود كافة مستلزمات المَلِكية وليست كافة الاشياء في الكون.

٢٢ و٢٣ـ بلاغ وبالغة

يقول في الآية ٥٢ من سورة ابراهيم:

---

١. سيأتي المزيد من التوضيح للآية الكريمة «تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ» في بحث الجامعية.

«هٰذا بَلاغٌ لِلنّاسِ»

ويُحتمل ان يكون المراد من «بلاغ» في الآية ٣٥ من سورة الاحقاف، القرآن ايضاً.

يقول تعالى في الآية ٥ من سورة القمر:

«حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ»

تستعمل كلمة «بلاغ» بمعنى «ابلاغ» أو «كفاية»، ويُحتمل كلا المعنيين بهذا الخصوص، ولعل المعنى الثاني اكثر مناسبة.

والمراد من «بالغة» التي جاءت صفة «حكمة» إما لسلاسة البيان القرآني حيث يتحدث عن معارفه بأبلغ كلام، أو لمضمونه الذي هو في غاية الصواب والصدق، والمعنى الثاني اكثر تناسباً مع سياق الآية.

٢٤ـ الحكمة

يقول في الآيات ١٢٩ من سورة البقرة و١٦٤ من سورة آل عمران و٢ من سورة الجمعة بحق النبي ﷺ:

«وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ»

ويقول في الآية ١٥٢ من سورة البقرة:

«وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ»

ويخاطب المسلمين في الآية ٢٣١ من سورة البقرة قائلاً:

«وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَالْحِكْمَةِ»

ويقول في الآية ١١٣ من سورة النساء:

«وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ»

ويخاطب نساء النبي ﷺ في الآية ٣٤ من سورة الاحزاب قائلاً:

«وَاذْكُرْنَ ما يُتْلىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ...»

ويقول في الآية ٥ من سورة القمر:

«وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ»

والظاهر ان المراد من «الحكمة» المعطوفة على الكتاب في العديد من الآيات تلك الحِكَم المسطورة في الكتاب من باب ذكر الخاص بعد العام، أو بعبارة ادق ذكر الجزء بعد الكل. ويُحتمل ان يكون المراد من الكتاب في هذه الآيات خصوص القوانين أو سائر مقاطع الكتاب ما سوى الحكمة، وفي مثل هذه الحالة سيكون ذلك من قبيل عطف المتباينين.

على أية حال، المراد من الحكمة قسمٌ من القرآن، والآية ٣٩ من سورة الاسراء التي تردف بعد مجموعة من التعاليم الحكيمة فتقول:

«ذٰلِكَ مِمّا أَوْحىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ» تدعم هذا الاستنباط. كما ان هذه الآية تضعّف الاحتمال بان المراد من الحكمة خصوص الحكمة النظرية، لأن هذه الآيات تشتمل على كلتا الحكمتين النظرية والعملية، وقد رأينا ما وصف به هذا الاسم للقرآن الكريم «حكمة» في الآية ٥ من سورة القمر بصفة «بالغة».

٢٥ـ الحُكم

يقول في الآية ٣٧ من سورة الرعد:

«وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا»

والمراد منه القرآن الكريم، وقد ذكر للحُكم في الآية الكريمة معنيان مختلفان: الاول هو الحكم بمعنى الامر القاطع أو القضاء الخاص بالامور موضع الاختلاف، وبما ان القرآن يشتمل على احكام الزامية ويقضي بين الناس لاسيما في الامور التي هي موضع الاختلاف فقد سمي «حكماً»، والثاني هو ان الحكم يعني الحكمة وقد أُطلق «حكم» على القرآن لاحتوائه على المعارف الالهية، والظاهر ان المعنى الاول هو الاكثر تناسباً مع سياق الآية.

٢٦ـ الفرقان

يقول في الآية الاولى من سورة الفرقان:

«تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً»

والظاهر ان المراد من «الفرقان» في الآية ١٨٥ من سورة البقرة، والآية ٣ من سورة آل عمران هو القرآن.

٢٧ و ٢٨ـ تفصيل ومفصّل

يقول في الآية ١١٤ من سورة الانعام:

«وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً»

ويقول في الآية ٣٧ من سورة يونس:

«وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ»

ويقول في الآية ١١١ من سورة يوسف:

«وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ»

وتعني مادة «فرق وفصل» التفريق والتميز، و(فرقان) مصدر أو اسم مصدر وهي اكثر بلاغة في الدلالة على هذا المعنى، كما ان «تفصيل» تدل على الكثرة لانها جاءت بصيغة تفعيل.

يستعمل الفصل احياناً بخصوص الامور الحسية ويدلّ على الفصل بين أمرين ماديين ومحسوسين، وتارة يستخدم في الامور الاعتبارية من قبيل القضاء، واخرى في الامور المعنوية من قبيل التفريق بين الحق والباطل.

وقد استعمل لفظ (فرق) بمعناه الحسي في الآية ٥٠ من سورة البقرة من القرآن:

«وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ»

والمقصود شق نهر النيل لبني اسرائيل.

وبالرغم من ان مفردة (فرقان) ربما تُطلق على القرآن بمعنى الاسم المفعول لتدرج الآيات وتفرقها، بيد ان الظاهر انها وفي جميع الموارد التي استعملت بشأن القرآن أو التوراة كانت بمعنى اسم الفاعل لتمييز هذين الكتابين بين الحق والباطل. وكلمة (فصل) في الآية ١٣ من سورة الطارق القائلة «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ» ـ التي سيجري التطرق لها في الصفات التابعة ـ تدل أيضاً على هذا المعنى.

ان اطلاق (تفصيل ومفصّل) على القرآن جاء بسبب بسط الموضوعات وتفصيلها وهو يرادف التبيين تقريباً، ويؤيد ذلك استعمال لفظ «تبيين» تارة و«تفصيل» اخرى في ذيل الآيات، اذ يقول ـ على سبيل المثال ـ في الآية ١١٨ من سورة البقرة:

«قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»

ويقول في الآية ٩٧ من سورة الانعام:

«قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»

وبناءً على هذا سيكون «تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ» نظير قوله «تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ».

٢٩ـ النور

يقول في الآية ١٧٤ من سورة النساء:

«وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً»

ويقول في الآية ١٥ من سورة المائدة:

«قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ»

ويقول في الآية ١٥٧ من سورة الاعراف:

«وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ»

ويقول في الآية ٥٢ من سورة الشورى:

«ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلاَ الْإِيمانُ وَلٰكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً»

ويقول في الآية ٨ من سورة التغابن:

«فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا»

والمقصود في جميع هذه الموارد هو القرآن الكريم.

ويُحتمل ان المراد من النور في مواضع عديدة اخرى هو القرآن، من قبيل: الآية ٣٢ من سورة التوبة، والآية ٨ من سورة الصف، والآية ٣٥ من سورة النور.

والظاهر ان اطلاق «نور» على القرآن جاء لأنه ينير طريق السعادة للانسان ويعرّفه حقائق الكون، ولعل ذلك لما يمثله من حقيقة سامية صادرة عن مصدر النور الازلي وهو الله سبحانه وتعالى، وفي حالة كون المراد من النور في آية النور «مَثَلُ نُورِهِ» هو القرآن فان الوجه الاخير يصبح اكثر تناسباً.

٣٠ـ بصائر

يقول في الآية ١٠٤ من سورة الانعام:

«قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ»

ويقول في الآية ٢٠٣ من سورة الاعراف:

«هٰذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ»

ويقول في الآية ٢٠ من سورة الجاثية:

«هٰذا بَصائِرُ لِلنّاسِ»

«بصائر» جمع بصيرة وتعني الرؤية، وتُطلق ايضاً على الاشياء التي تؤدي بالعقل والقلب الى الرؤية من قبيل الدليل والموعظة.

ان آيات القرآن تهب الانسان امكانية رؤية الطريق القويم وتميزه عن البئر، وان يفتح بصيرته ليشاهد الحقائق بنوره الباطني، لكنه اذا ما ابدى عناداً واغمض عينيه وأبى الانتفاع منها فانه سيتلقى النتيجة عكسية، كما في قوله تعالى في ذيل الآية ١٠٤

من سورة الانعام:

«فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا»

ومن الواضح وجود العلاقة بين الابصار والبصائر، ففي الآية ٤٤ من سورة فصلت يقول تعالى:

«وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى»

٣١ـ الهدى

يقول تعالى في الآية ١١ من سورة الجاثية:

«هٰذَا هُدىً»

ويقول في الآية ١٨٥ من سورة البقرة:

«هُدىً لِلنَّاسِ»

ويقول في الآية ١٥٧ من سورة الانعام:

«...فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً...»

ويقول في الآية ٨٨ من سورة الانعام والآية ٢٣ من سورة الزمر:

«ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ...»

ويقول في الآية ١٣ من سورة الجن:

«وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدىٰ آمَنَّا بِهِ».

وقد ذكر في آيات كثيرة بعد وصفه للقرآن بـ«الهدى» اقواماً معيّنين بانهم الذين يهتدون بالقرآن ويسترشدون به، وهذا ما سيأتي في بحث شروط الانتفاع بالقرآن.

كما يُحتمل ان يكون القرآن هو المراد من الهدى في المواضع التالية: النساء / ١١٥، الاعراف / ١٩٣، ١٩٨، التوبة / ٣٣، الاسراء / ٩٤، القصص / ٥٧، سبأ / ٣٢، محمد / ٢٥، ٣٢، الفتح / ٢٨، النجم / ٢٣، الصف / ٩.

ان وصف القرآن هذا يدل على ان الانسان يسير نحو هدف وغاية، وهو يحتاج الى دليل لمعرفة الطريق الذي يوصله الى هدفه، وقد تولى القرآن هذه المهمة. ولكن ما هو الهدف النهائي، وما هو صراطه الأمثل، وكيف يهدي القرآن الانسان، هذا ما سيخضع للدراسة في بحث الغاية من فعل الله عز وجل وكذلك اهداف القرآن.

٣٢ـ الذكر

أُطلقت كلمة «الذكر» على القرآن في ثمانية مواضع هي: الحجر / ٦، ٩، النحل / ٤٤، يس / ١١، ص / ٨، فصلت / ٤١، القمر / ٢٥، القلم / ٥١.

ويقول تعالى في الآية ٥٨ من سورة آل عمران:

«ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ»

ويُحتمل ان القرآن هو المراد من «الذكر» في ثلاثة مواضع هي: الفرقان / ١٨، ٢٩، الزخرف / ٥.

كما اطلقت «ذكر» مجردة من «الـ» التعريف على القرآن في ثلاثة مواضع هي: يس / ٦٩، طه / ٩٩، الطلاق / ١٠، ويُحتمل ان يكون المراد من الذكر في الآية ٤٩ من سورة ص، والآية ٣ من سورة الصافات، والآية ٥ من سورة المرسلات هو القرآن، ويقول تعالى في الآية ٥٠ من سورة الانبياء:

«وَهٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ...»

ويقول في الآيات ١٠٤ من سورة يوسف و٨٧ من سورة ص و٢٧ من سورة التكوير:

«إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ»

ويقول في الآية ٥٢ من سورة القلم:

«وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ»

وفي الآية ٤٤ من سورة الزخرف:

«وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ»

ويقول في الآية ٢٤ من سورة الانبياء:

«هٰذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي»

ويقول في الآية ٨ من سورة ص:

«بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي»

ويُحتمل ان يكون القرآن هو مصداق «ذِكْرىٰ» في الآيات ١٠١ من سورة الكهف، و١٢٤ من سورة طه، و١١٠ من سورة المؤمنون، و«ذِكْرِ رَبِّهِمْ» في الآية ٤٢ من سورة الانبياء، و«ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ» في الآية ٣٦ من سورة الزخرف، و«ذِكْرِنا» في الآية ٢٨ من سورة الكهف والآية ٢٩ من سورة النجم، و«ذِكْرِهِمْ» التي تكررت في الآية ٧١ من سورة المؤمنون، وقد قال تعالى في الآية ١٠ من سورة الانبياء:

«لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ...»

ويقول في مستهلّ سورة ص:

«ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ»

٣٣ـ الذكرى

يقول في الآية ٩٠ من سورة الانعام:

«إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرىٰ لِلْعالَمِينَ»

ويقول في الآية ٢ من سورة الاعراف:

«وَذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ»

ويقول في الآية ١٢٠ من سورة هود:

«وَجاءَكَ فِي هٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ»

ويقول في الآية ٥١ من سورة العنكبوت:

«إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

٣٤ـ التذكرة

يقول تعالى في الآية ٣ من سورة طه:

«إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ»

ويقول في الآية ٤٨ من سورة الحاقة:

«وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ»

ويقول في الآيتين ١٩ من سورة المزمل و٢٩ من سورة الدهر:

«إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً»

ويقول في الآية ٥٤ من سورة المدثر: «كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ» فيما يقول في الآية ١١ من سورة عبس: «كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ».

كما يقول أيضاً في الآية ٤٩ من سورة المدثر:

«فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ»

تستعمل كلمة الذكر بمعنى الاستحضار والتذكر وكذلك بمعنى الاتيان باسم أحدٍ أو التحدث عنه ـ لان لازم ذكر الانسان على الاغلب الاتيان باسمه، كما تستعمل بمعنى الصيت والشهرة والشرف أيضاً، وتطلق مفردة ذكر ايضاً على كل ما فيه التذكّر والاعتبار والاتعاظ، و«ذكرى» و«تذكرة» من هذه المادة ايضاً وتعنيان كثرة التذكر وما يُتذكر به الشيء.

ان اطلاق «ذكر» على القرآن إما لأنه يُذكّر الناس بالله سبحانه وتعالى، أو يدفعهم لما يجب ان يتذكروه، أو لانه يذكّر بقصص السالفين وينقلها ويروي مواعظهم ونصائحهم، واذا ما اخذنا بنظر الاعتبار تقابل ذلك مع الغفلة ووضعنا في الحسبان

الآيات التي تعتبر الغفلة سبباً في انحدار الانسان وشقائه من قبيل الآية ١٧٩ من سورة الاعراف التي تقول:

«...أُولٰئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ»

فانه تتجلى جيداً اهمية هذا الوصف القرآني، وللايضاح نقول: ان الانسان في بداية حياته شأنه شأن الحيوانات منقاد للغرائز والاهواء النفسية، وتُكرّس كافة جهوده لإشباعها، ولا يولي الناس ـ عادة ـ أيَّ عناية للسرّ الكامن وراء خلقهم أو الهدف النهائي من حياتهم، كما ان علومهم الفطرية والحضورية تكون غامضة وغير واعية، والمفردة التي تنبئ عن هذه الحالة هي الغفلة، وان اول اهداف الانبياء والكتب السماوية هو اخراج الانسان من هذه الحالة وحثه على التفكير والتأمل والبلوغ به الىٰ مرحلة الوعي واليقظة «ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكّروهم منسيَّ نعمته»[1] وبعبارة اخرى العبور به من حدود الحيوانية وادخاله الى دائرة الانسانية، وعلى هذا الاساس يمكن القول: لهذا السبب سمي القرآن الكريم «ذكر».

«وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» القمر / ١٧

٣٥ـ موعظة

يقول تعالى في الآية ١٣٨ من سورة آل عمران والآية ٣٤ من سورة النور:

«وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ»

ويقول في الآية ٥٧ من سورة يونس:

«يٰا أَيُّهَا النّاسُ قَدْ جٰاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ»

ويقول في الآية ١٢٠ من سورة هود:

«وَجٰاءَكَ فِي هٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ»

---

١. نهج البلاغة: الشريف محمد الرضي الموسوي الخطبة الاولى، ص ٣٣.

موعظة اسم مصدر من وعظ وتعني التذكير المقترن بالتخويف، كما تُطلق على الحادثة التي ينجم عنها الاعتبار من قبيل الآية ٦٦ من سورة البقرة:

«فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ»

والموعظة في الحقيقة عبارة عن الشيء المؤدي الى رقة القلب وجعله ينعطف نحو الله وقبول الحق وصدّه عن العصيان والطغيان والتمرد. وبناءً على هذا فانها لا تأتي لإفهام الأمر فحسب بل للتأثير في القلب وترقيقه، وبعبارة اخرى انها على تماسٍّ مع القلب وليس مع العقل.

٣٦ ـ ٣٩: بشير وبشرى ونذير وعذر ونذر

يقول تعالى في الآية ٤ من سورة فصلت:

«بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ»

كما يُحتمل ان القرآن هو المراد من «نذير» في الآيات (١) من سورة الفرقان و٥٦ من سورة النجم و٣٦ من سورة المدّثر. وفي الآيات ٩٧ من سورة البقرة و٨٩ و١٠٢ من سورة النحل و٢ من سورة النمل و١٢ من سورة الاحقاف وصف القرآن بـ«بشرى» ويقول تعالى في الآيتين ٦ و٧ من سورة المرسلات:

«فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً * عُذْراً أَوْ نُذْراً»

البشرى كالبشارة وتعني الخبر السار، ويقال لمن يأتي به «البشير».

الانذار، الإخبار بما هو مخوف كي يتسنى الاحتراس منه.

النذير تعني الانذار، كما تستعمل بمعنى «المنذر»، وتُطلق احياناً على متعلق الانذار ـ ما يجب التخوف منه ـ ايضاً. ونُذُر على وزن «كُتُب» مصدر وتعني الانذار.

ان اطلاق «بشير ونذير» على القرآن جاء بسبب احتوائه على الاخبار السارة للمؤمنين والمطيعين، والاخبار المخيفة للكافرين والعاصين، واهمية هذه الصفات تأتي

لأن الخوف والرجاء هما الحافز في نشاطات الانسان، وان معرفة الحق والباطل وحدها ليست كافية لتحريكه، وربما يكون ـ بالطبع ـ مصدر الخوف تارة الآلام والوان العذاب المادي العابر، واخرى العذاب الابدي، وثالثة الحرمان من الوصال مع المحبوب السرمدي، كما ان مصدر الامل يكون تارة المتع والمنافع الدنيوية، واخرى النعم الخالدة، وثالثة القرب والرضوان الالهي.[١] فالذين لم يؤمنوا بعد بالآخرة وعالم الخلود يخافون الحرمان المادي ويتعلق رجاؤهم بالمصالح الدنيوية، فيما يخاف الضعفاء والمتوسطون من المؤمنين عذاب جهنم ويأملون دخول الجنة، أما الكُمَّل من المؤمنين فانهم يخشون البُعد عن الله ويرجون رضاه وقربه.

ان القرآن ينطوي على كافة أشكال الانذار والتبشير بما يتناسب مع كل فئة من الناس، من هنا فهو يتضمن برنامجاً تربوياً هو الاشمل بالنسبة لمختلف طبقات الناس على اختلاف قابلياتهم ورؤاهم وهمهم، ويأخذ بيد كل انسان نحو الكمال والسعادة ببيان يتناسب مع فهمه وقابليته.

«عذر» مصدر وجاء بمعنى الاعتذار والمعتذر،[٢] والمراد من اطلاق عذر على القرآن هو ان الله يتم الحجة بانزاله للقرآن، أو انه جعل لعباده المؤمنين عُذراً سيكونون معذورين أمام الله سبحانه وتعالى من خلال عملهم به.

إن إكمال الحجة أحد اهداف القرآن وهو بشكل عام أحد الاهداف من ارسال الرسل وانزال الكتب السماوية، وهذا ما سنتطرق اليه في بحث اهداف القرآن، وان عذر العمل بالقرآن انما يأتي لعدم قدرة أي أحد من اداء حق الله كما ينبغي.[٣]

---

١. قال الامام الصادق عليه السلام: «ان العباد ثلاثة، قوم عبدوا الله خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأُجراء، وقوم عبدوا الله عزّ وجلّ حباً فتلك عبادة الاحرار» بحار الانوار: محمد باقر المجلسي: ج ٧٠، ص ٢٥٥، الطبعة الثانية، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٣٦٤هـ.ش.

٢. اعتبر البعض عُذر ونذر جمع عذير ونذير.

٣. ورد في حديث نبوي «ما عبدناك حق عبادتك وما عرفناك حق معرفتك» المصدر السابق، محمد باقر المجلسي: ج ١٧، ص ٢٣.

٤٠ـ شفاء

وردت هذه المفردة ثلاث مرات بصيغة النكرة في القرآن الكريم، يقول تعالى في الآية ٥٧ من سورة يونس:

«يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ...»

ويقول في الآية ٨٢ من سورة الاسراء:

«وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ»

ويقول في الآية ٤٤ من سورة فصلت:

«قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ»

«شِفاء» ـ بكسر الشين ـ مصدر وتعني المداواة من المرض وعلاجه، واسم مصدر وتعني العافية وتستخدم كذلك بمعنى العلاج، كما تُطلق على الدواء وما فيه العافية.

ان اطلاق «شفاء» على القرآن الكريم هو من قبيل القسم الثالث لما فيه من علاج لامراض الانسان المعنوية، كما ورد التصريح بذلك في الآية المتقدمة من سورة يونس، واختصاص ذلك بالمؤمنين في الآيتين الأُخريين بالنظر الى تأثيره الفعلي على غرار اختصاص هداية القرآن بالمتقين والمحسنين...الخ الواردة في طائفة من الآيات.

من الواضح ان شفاء القرآن لامراض الانسان المعنوية لا يعني عدم صحة الاستشفاء بالآيات الكريمة من الامراض الجسمية، مثلما لا تعد صحة الاستشفاء بها من الامراض الجسدية المستفادة من الاحاديث الشريفة، دليلاً على تعميم المعنى الظاهري لهذه الآيات ـ وفقاً للاستعمال الدارج ـ للاستشفاء من الامراض الجسدية، فلربما تكون استفادتها من قبيل البطن للآيات أو غير ذلك.

٤١ـ رحمة

يقول تعالى في الآية ١٥٧ من سورة الانعام:

«فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ»

ويقول في ثلاثة مواضع:

«هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» الاعراف / ٥٢، يوسف / ١١١، النحل / ٦٤.

ويقول في الآية ٢٠٣ من سورة الاعراف:

«هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

ويقول في ثلاثة مواضع:

«وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» يونس / ٥٧، الاسراء / ٨٢، النمل / ٧٧. ويقول في الآية ٨٩ من سورة النحل:

«وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ»

وورد في الآية الثالثة من سورة لقمان: «هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ»

ويقول في الآية ٢٠ من سورة الجاثية:

«وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»

واستُخدم التعبير بـ«رحمة» بشأن نزول القرآن في الآيتين ٥١ من سورة العنكبوت و٦ من سورة الدخان، ويبدو انها صفة للقرآن.

ان اطلاق «رحمة» على القرآن جاء لأنه ومن خلال هدايته للبشر ورفدهم بالرؤى الضرورية لبلوغ السعادة الحقيقية يوفر رحمة عامة لكل اصناف البشر من ناحية، ويوفّر رحمة خاصة لاصناف خاصة من البشر وهم الذين يستجيبون لهذه الرؤى والارشادات. بناءً على هذا فان تخصيص رحمة القرآن بالمؤمنين والمحسنين والمسلمين و«قوم يوقنون» و«قوم يؤمنون» الذين ورد ذكرهم في الآيات انما جاء لأن الفئات المذكورة تتنعم بمواهبه وتشملهم رحمة الهية خاصة من خلال عملهم بها على امتداد مسيرتهم التكاملية نحو السعادة والفلاح والقرب من الله.

٤٢ـ الوحي

اطلقت مفردة «وحي» على القرآن في آيتين، الاولى:

«إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحىٰ» النجم / ٤

والآية الثانية هي:

«قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ» الانبياء / ٤٥

الوحي يعني السرعة، و«أمر وحيّ» يعني الأمر الذي جاء سريعاً، وبما ان الإفهام بالرمز والاشارة يحدث سريعاً فيقال له «وحي»، ثم اتسع استخدام مفردة وحي واخذت تُطلق على كل نوع من الإفهام الخفي سواء كان خفاؤه لانخفاض الصوت أو لطريقة البيان عن طريق الرمز والاشارة.

ويعني الوحي باصطلاح علماء الاسلام إلقاء أمرٍ من الله سبحانه وتعالى الى انبيائه سواء كان بواسطة أو بشكل مباشر، وسواء سمعه الآخرون أم لم يسمعوه، مكتوباً كان فيراه الانبياء أو الهاماً في قلوبهم، وسواء حصل ذلك في المنام أو اليقظة.

وقد استخدم الوحي في القرآن الكريم بمعناه اللغوي الواسع في مجال غير الانسان وفي مجال الناس الذين لم يكونوا انبياء، كما في القصص / ٧، الانفال / ١٢، النحل / ٦٨، الزلزال / ٥. وقد اطلق «الوحي» على القرآن لأن النبيّ يتلقى معارف القرآن من الله عز وجل بطريقة غير محسوسة بالنسبة للآخرين وتتسم بحالة من السرّية.

تنويه

هنالك تعابير اخرى في القرآن الكريم يمكن ان تنطبق على هذا الكتاب العزيز، ولكن بما انها لم تُطلق عليه بشكل صريح فاننا لا نذكرها في عداد اسماء القرآن، ومنها:

«خير»، فيقول في الآية ١٠٥ من سورة البقرة:

«مٰا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ»

وفي الآية ٣٠ من سورة النحل:

«وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً»

وكذلك «روح»، اذ ورد في الآية ٥٢ من سورة الشورى:

«وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا»

و«حبل الله» الواردة في الآية ١٠٣ من سورة آل عمران:

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا»

و«أمر الله»، كما في الآية ٥ من سورة الطلاق:

«ذٰلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ»

كما ان هنالك اسماء اخرى أُطلقت على قسم من القرآن من قبيل «أم الكتاب» الواردة في الآية ٧ من سورة آل عمران:

«مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ»

الاسماء التابعة

١ـ عليّ

استخدمت هذه المفردة مرة واحدة فقط بشأن القرآن الكريم، اذ يقول تعالى في الآية ٤ من سورة الزخرف:

«وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ»

«عليّ» صفة مشبهة من العلو وتعني الرفعة والسمو، وتستخدم في الامور الحسية والاعتبارية والمعنوية، واستعمالها بخصوص القرآن تكتسب طابعها الاعتباري تلقائياً إذ تعني «الرفعة والشرف»، ولكن في ضوء الظرف المذكور لها في الآية اعلاه «فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا» فانه يتحتّم القول انها جاءت ناظرة للمرتبة المعنوية لحقيقة القرآن المسطور في اللوح المحفوظ وعند الله سبحانه وتعالى، وليس ذلك المسطور على الاوراق الذي يُتلفظ به وهو موجود عندنا.

٢ـ حكيم

ورد لفظ «الحكيم» في اربع آيات كصفة للقرآن الكريم. يقول تعالى في الآية ٥٨ من سورة آل عمران: «ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ»

وتبتدئ سورة لقمان بالآية:

«الٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ»

وجاءت بصيغة النكرة في الآية ٤ من سورة الزخرف:

«وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ»

«حكيم» تعني صاحب الحكمة، ووصف القرآن بها لاحتواء هذا الكتاب العزيز على المعارف اليقينية «الحكمة النظرية» أو التعاليم الحكيمة «الحكمة العملية» أو لاشتماله على كلا الأمرين.

وثمة احتمال آخر في معنى حكيم وهو المحكم ويعني المتقن الذي لا يقبل الترديد والنقض، كما في قوله تعالى في الآية الاولى من سورة هود:

«كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ»[1]

وقد لوحظ في تبرير اطلاق «حكيم» ـ بمعنى المحكم ـ على القرآن عدم وجود الاختلاف والتناقض فيه، وعدم نسخه أو صيانته من التغيير والتحريف.

وفي ضوء ما يُحتمل في الآية الاخيرة (الزخرف / ٤) من ان المراد هي المرتبة الوجودية البسيطة للقرآن قبل نزوله الى هذا العالم، تبلغ الاحتمالات بخصوص كلمة «حكيم» الى ثلاثة هي:

١ـ الحكيم تعني صاحب الحكمة.

٢ـ الحكيم تعني المحكم والمتقن.

٣ـ الحكيم تعني ذا الحقيقة البسيطة.

---

١. سيأتي بيان آخر لـ«احكام الآيات» الذي تحدثت عنه هذه الآية الكريمة، في بحث النزول التدريجي للقرآن.

والاحتمال الاخير الذي تتضمنه الآية ٤ من سورة الزخرف هو الاكثر وضوحاً في ضوء استعمال ظرف «فِي أُمِّ الْكِتَابِ» وظرف «لَدَيْنَا».

ووردت احتمالات اخرى ايضاً ليست جديرة بالعناية نوعاً ما من بينها ان المراد من حكيم هو الحاكم بين الحق والباطل، أو الحاكم بالحلال والحرام أو الحاكم بالجنة والنار للمطيع والعاصي.

٣ـ العظيم

وردت هذه الكلمة في موضع واحد فقط كصفة للقرآن وذاك في الآية ٨٧ من سورة الحجر حيث تقول:

«وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ».

«العظيم» صفة مشبهة وتعني الكبير، وكأن اصلها من العظم، وإن «عَظُم الشيء» انما تعني غلاظة عظمه.[1] وقد جرى تعميم العظمة بالمعنى المطلق لتوقف ضخامة المخلوقات العظيمة على ضخامة عظامها.

استخدمت هذه المفردة في البداية في مجال الامور الحسية ومن ثم في الامور الاعتبارية والمعنوية، وان وصف القرآن الكريم بـ«العظيم» لحقيقته التي تمثل مرتبة من العلم الالهي وكذلك لاهميته في تكامل الانسان.

٤ـ ثقيل

وردت مفردة «ثقيل» في الآية ٥ من سورة المزمّل في وصف القرآن حيث تقول:

«إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً»

---

١. راجع معجم مفردات الفاظ القرآن للراغب ابي القاسم حسين الاصفهاني، الطبعة الاولى، مطبعة التقدم العربي، بيروت، ١٣٩٢.

وظاهر الآية أنه وصفٌ للقسم الاعظم من القرآن الذي لم يكن نـازلاً وقـتذاك، وثقله انما بسبب المسؤولية الضخمة التي يلقيها على عاتق النبي الاكرمﷺ أو المعارف السامية التي يصعب تحمُّلها.

٥ـ كريم

وجاءت هذه المفردة في موضع واحدٍ كوصف للقرآن، وذاك في الآية ٧٧ من سورة الواقعة اذ تقول:

«إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»

«كريم» تعني القيّم والشريف ولها موارد استعمال واسعة حيث توصف بها أمور كثيرة بدءاً من الجماد والنبات ومروراً بالانسان والملائكة وانـتهاءً بـالذات الالهـية المقدسة، ووصف القرآن بها انما جاء لمنزلته السامية وشرفه عند الله وغزارة خيراته وبركاته للناس.

٦ـ مجيد

وردت هذه الصفة في موضعين لوصف القرآن، أحدهما الآية الاولى من سورة «ق»:

«قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ»

والآخر في الآية ٢١ من سورة البروج:

«بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ»

لعل الاصل في معنى المجيد هي السعة، ولعل وصف الذات الالهية المقدسة بها إنما جاء لسعة رحمة وجوده تعالى، والسبب في وصف القرآن بها هو سعة بركاته.

٧ـ مبارك

وردت هذه الكلمة في وصف القرآن في اربعة مواضع، فيقول تعالى في الآيـتين ٩٢

و١٥٥ من سورة الأنعام:

«وَهٰذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ»

ويقول في الآية ٢٩ من سورة «ص»:

«كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ»

ويقول في الآية ٥٠ من سورة الانبياء:

«وَهٰذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ»

«مبارك» اسم مفعول من «باركَ» يستعمل متعدياً اذ يتعدىٰ بـ«في» و«على» ويستعمل في وصف الاشخاص والاشياء والزمان والمكان، كما في:

«وَجَعَلَنِي مُبارَكاً» مريم / ٣١

«شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ» النور / ٣٥

«فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ» الدخان / ٣

«فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ» القصص / ٣٠

والاصل في معنى البركة هو الثبوت، ويقال للمنخفض الذي يتجمع فيه الماء ويقف عن الحركة «بركة»، والبركة تعني الخير الثابت، ووصف القرآن بها لأنه مصدر ومنبع لخيرات ثابتة لا تُحصى.

٨ـ عزيز

وردت هذه المفردة في موضع واحد فقط في وصف القرآن وذاك في الآيتين ٤١ و٤٢ من سورة فصلت:

«وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ»

ولعلها مأخوذة من اصل «ارض عزاز» وتعني الصلدة، وهي تستخدم بمعنى الصعب والقوي والغالب والذي لا يُقهر، ويبدو ان المراد هنا المعنى الاخير ويؤيد ذلك عبارة «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ ...».

٩ و ١٠: قيِّم وغير ذي عوج

ورد كلّ من هاتين الصفتين في آية واحدة لوصف القرآن، يقول تعالى في الآيتين ١ و ٢ من سورة الكهف:

«وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً...»

ويقول في الآية ٢٨ من سورة الزمر:

«قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ»

«قيم» مأخوذة من مادة قيام، واذا ما تعدت بحرف جرٍّ فانها تعني الإقامة والمراقبة والمحافظة. فالقيِّم على الطفل هو الذي ينجز اعماله ويحفظ مصالحه. وقد تؤخذ قيِّم احياناً من القيمة وتعني الثمين.

والظاهر انها جاءت في سورة الكهف بمعنى المستقيم الذي لا انحراف ولا اعوجاج فيه، وتعادل قوله «غَيْرَ ذِي عِوَجٍ» تقريباً وتؤيد ذلك وتبيّنه عبارة «وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً» وفي الآية ٣ من سورة البينة يقول تعالى: «فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ»، واطلقت القيم على القرآن بمعنى النفيس.

١١ و١٢: تصديق ومصدّق

يقول تعالى في الآيتين ٣٧ من سورة يونس و١١١ من سورة يوسف:

«وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...»

ويقول في الآية ٨٩ من سورة البقرة:

«مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ»

ويقول في الآية ٩٢ من سورة الانعام:

«وَهٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ»

ويقول في الآيتين ٤١ من سورة البقرة و٤٧ من سورة النساء:

«مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ»

ويقول في الآية ٩١ من سورة البقرة:

«مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ»

ويقول في الآيات ٩٧ من سورة البقرة و٣ من سورة آل عمران و٤٨ من سورة المائدة و٣١ من سورة فاطر و ٣٠ من سورة الاحقاف:

«مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ»

والمراد في جميع هذه المواضع هو ان القرآن الكريم يصدِّق نزول الكتب السابقة (التوراة والانجيل) من عند الله سبحانه وتعالى. ومن الواضح ان ذلك لا يستلزم تصديق كل ما تتضمنه الكتب التي تُسمى حالياً بالتوراة والانجيل.[1]

١٣ـ مهيمن

وردت هذه المفردة في الآية ٤٨ من سوزة المائدة فقط في وصف القرآن:

«مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ»

مفردة «مهيمن» مأخوذة من «هيمن على كذا» أي «صار قيّماً وحافظاً عليه» فيما اعتبر البعض اصلها «أيمن» أي «صار رقيباً وشاهداً». وعلى أية حال لوحظ في هذه المفردة نوع من التسلط والاشراف، ولهذا اطلقت على القرآن لاشراف هذا الكتاب وسيطرته على سائر الكتب السماوية، وبالتالي بامكانه ان ينسخ بعض احكامها وامضاء وتثبيت البعض الآخر، ولا يمكن ـ بطبيعة الحال ـ الاستنتاج من اطلاق هذه المفردة على القرآن الكريم بأنه يتضمن كافة احكام ومعارف الكتب السماوية السابقة.

١٤ـ فصل

استخدمت هذه الصفة في الآيتين ١٣ و١٤ من سورة الطارق فقط:

«إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ»

---

١. سيأتي وجه آخر لاستعمال هاتين المفردتين في بحث الادلة على نزول القرآن من عند الله.

كما ذُكر في نهاية تفصيل ومفصَّل من الاسماء المستقلة للقرآن، فان «فصل» مصدر وتعني التمييز بين شيئين أو عدة اشياء وتستخدم في الامور المادية والاعتبارية والمعنوية. واذا ما استخدمت «فصل» صفة للقول والحكم فهي تأتي بما يلازم معناها الاصلي أي القاطع الذي لا رجعة عنه. وبناءً على هذا فان المراد من كون القرآن قولاً فصلاً إنه قول قاطع يميز الحق عن الباطل ولا يدع مجالاً للغموض والشك، ومن هنا يطّرد تعالى قائلاً: «وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ» فليس القرآن مزاحاً ولا فارغاً بل هو قول جادٌّ.

١٥ـ مبين

وردت هذه المفردة في وصف القرآن في خمسة مواضع بصيغة النكرة وفي خمسة مواضع اخرى بصيغة المعرفة، والمواضع الخمسة الاولى عبارة عن: الآية ١٧٤ من سورة النساء حيث يقول:

«وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» والآيات ١٥ من سورة المائدة و(١) من سورة الحجر، و(١) من سورة النمل و٦٩ من سورة يس اما المواضع الخمسة الثانية فهي عبارة عن: الآيات (١) من سورة يوسف و٢ من سورة الشعراء و٢ من سورة القصص حيث يقول تعالى:

«تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ»، و٢ من سورة الزخرف، و٢ من سورة الدخان اذ يقول:

«حم ۞ وَالْكِتابِ الْمُبِينِ»

وقد مرّ توضيح معنى مفردة مبين في ذيل اسم «بيان».

١٦ـ متشابه

جاءت هذه المفردة في الآية ٢٣ من سورة الزمر فقط كصفة لكل القرآن:

«اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً...»

ووردت في الآية ٧ من سورة آل عمران صفة لقسم من آيات القرآن في مقابل القسم الآخر الذي يسمى بالمحكمات:

«مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...»

«متشابه» من مادة «شبه» وتعني المِثْل، وبما ان باب التفاعل يفيد التشابه بين شيئين، فحيثما اتصف شيء واحد بها فان ذلك بلحاظ اجزائه أو بلحاظ تعددٍ آخرَ مفترض. وقد يُراد احياناً من هذه المفردة ايضاً لازم المعنى الاصلي أي الاشتباه مثلما يقال للآيات المتشابهة ـ في مقابل الآيات المحكمات ـ التي يُتصور لكلٍّ منها معانٍ متعددةٌ بحيث تتشابه فيما بينها.

في ضوء ما تقدم فان وصف كل القرآن بالمتشابه انما هو لتشابه آياته، وهذا التشابه إما ظاهري وإما معنوي، والتشابه الظاهري لأن كافة آياته بمستوى الاعجاز ولما فيها من بلاغة، أما التشابه المعنوي فهو لعدم وجود تناقض وتضارب في مفاهيم القرآن، بل انها تتناسب وتتناسق فيما بينها وتتّجه بأجمعها نحو غاية واحدة.

وسيأتي الحديث بالتفصيل حول متشابهات القرآن في الفصول القادمة ان شاء الله.

١٧ـ مثاني

يقول تعالى في الآية ٢٣ من سورة الزمر:

«كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ»

ويقول في الآية ٨٧ من سورة الحجر:

«وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»

للمفسرين آراء مختلفة في توضيح هذه الكلمة نوردها باختصار فيما يلي:

١ـ جمع غير قياسي، لـ«مثنّى» اسم مفعول لتثنية وتعني المكرر. وقد سُمّي القرآن بهذا الاسم لتكرار موضوعاته بل وحتى آياته احياناً، أو لأنه يُتلى بصورة متكرّرة ولا يبلى.

٢ـ جمع مثنى ـ بفتح الميم والنون ـ ويعني ازواجاً ازواجاً، والسبب في هذه التسمية هو ازدواج احكام القرآن بمعارفه، وانذاره ببشارته، ومواعظه بقصصه.

٣ـ جمع «مثناة» من مادة ثناء وتعني تضمُّن آيات القرآن على الثناء الالهي، أو لان بلاغته واعجازه تدفع المستمع للثناء عليه.

٤ـ جمع «مثنية» من مادة ثنى وتعني الميَلان وإمالة شيئين أو تقريب طرفي شيء واحدٍ من بعضهما واستمالتهما نحو بعضهما، وقد وُصفت آيات القرآن بالمثاني لانها تشكِّل مجموعة متناسقة ومترابطة ومتلاحمة مع بعضها ويوضح بعضها بعضاً.

واعتبر بعض المفسرين «مثنية» من مادة «ثناء»، كما ذكروا وجوهاً اخرى ليست جديرة بالعناية كثيراً، ولكن بالامكان بيان وجه آخر ربما يكون الاكثر وضوحاً من سائر الوجوه وهو:

ان القرآن ـ ووفقاً لاسلوبه ـ كلام يتضمن مقاطع محددة تنفصل عن بعضها تلقائياً، وليس كسائر الاقوال والكتابات التي يتعين الفصل بين مقاطعها في ضوء معانيها.

بناءً على هذا فان «مثاني» من مادة «ثنى» التي تعني العطف والإمالة. وقد قال اللغويون: «مثاني الوادي: معاطفه»، وان كلمة مثاني تفيد في الحقيقة معنى الآيات التي تتميز بخصوصية انفصالها عن بعضها تلقائياً، ولها مقاطع محددة في نفس الوقت الذي تترابط فيما بينها كالورقة الملفوفة التي تتعدد طبقاتها.

١٨ـ عربي

ورد تعبير «قُرْآناً عَرَبِيًّا» في ست آيات هي: يوسف / ٢، طه / ١١٣، الزمر / ٢٨، فصّلت / ٣، الشورى / ٧، والزخرف / ٣.

يقول تعالى في الآية ٣٧ من سورة الرعد:

«حُكْماً عَرَبِيًّا»

وورد في الآية ١٢ من سورة الاحقاف:

«وَهٰذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا»

كما ورد في الآية ١٠٣ من سورة النحل:

«وَهٰذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»

ويقول في الآيات ١٩٣ ـ ١٩٥ من سورة الشعراء:

«نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»

وبما ان الحديث حول كون القرآن عربياً سيأتي بالتفصيل في البحوث اللاحقة ـ ان شاء الله ـ فاننا لن نتطرق اليه هنا.

ومن الممكن العثور على اوصاف تابعة اخرى نادر ذكرها وهي أيضاً مستغنية عن البحث فيها من قبيل «عجب» الواردة في الآية الاولى من سورة الجن:

«إِنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً»

الخلاصة

ان هذه الاسماء والصفات التي يبلغ مجموعها ستين عنواناً يمكن تقسيمها الى عشرة اقسام هي:

١ـ الصفات العامة للقرآن التي هي بمثابة عناوين مشيرة أو معاني جنسية ولا تحمل أية دلالة على خصائصه أو اهداف نزوله من قبيل: كتاب، حديث، قول، قرآن.

٢ـ الاوصاف التي تدل على خصائص القرآن من حيث طريقة بيانه من قبيل: عربي، مبين، متشابه، مثاني، تفصيل، مفصّل.

٣ـ اوصاف الثناء التي تشير على نحو الاجمال الى اهمية وكثرة فوائده وبركاته من قبيل: عظيم، ثقيل، كريم، مجيد، مبارك واحسن الحديث.

ويمكن وضع صفات «علي، وحكيم، وعزيز» في عداد هذه الطائفة من الصفات، كما يمكن اعتبارها قسماً خاصاً لما تفيده من ملاحظات خاصّة.

٤ـ الاوصاف التي تبين وضع هذا الكتاب بالنسبة لسائر الكتب السماوية من قبيل: تصديق، مصدِّق، مهيمن.

٥ـ العناوين التي تدل على نزوله من عند الله تعالى وهي من قبيل: كلام الله، آيات الله، تنزيل من...، منزّل من...

وبالامكان اعتبار عناوين (حق، حق اليقين، صدق) جزءاً من هذا القسم؛ ولكن في ضوء الاحتمال الآخر ـ حيث المراد منها صحة الموضوعات ـ يمكن إلحاقها بالقسم التالي.

٦ـ العناوين التي تثبت صحة مضمونه واتقان مضامينه ووضوح مفاهيمه، هذه المفاهيم التي تغذي القوى الذهنية والعقلية للانسان وتميّز الحق عن الباطل من قبيل: علم، برهان، بيان، تبيان، بيّنات، فرقان، فصل، قيم وغير ذي عوج.

٧ـ العناوين التي تدل على القوة المحرّكة للقرآن، هذه القوى التي تدفع الانسان للنشاط في حركته التكاملية وهي من قبيل: بشرى، بشير ونذير.

٨ـ العناوين التي تدل على ميزة القرآن في ايقاظ قلب الانسان واخراجه من الغفلة واللاوعي واعداده لقبول الحق وهي من قبيل: ذكرى، ذي الذكر، تذكرة وموعظة.

٩ـ العناوين الدالة على ازالة العراقيل وعلاج الامراض الباطنية من قبيل: شفاء.

١٠ـ العناوين الدالة على ايضاح القرآن لكافة مراحل الكمال أو على أبعاد الانسان، أي انه في مجال المعرفة يهدي الفكر والعقل ويهبه الرؤية السليمة واليقين، ويمنح القلب الوضوح والحكمة ويعدّه لاتباع الحق وقبوله ايضاً، ويواكب الروح في سيرها الصعودي خطوة فخطوة كي تتسلق مراتب الكمال العليا الواحدة بعد الاخرى وتبلغ هدفها النهائي، وهي من قبيل:

«يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ» المائدة / ١٦

«يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً» النساء / ١٧٥

الموضوعات المستفادة من الاقسام الستة الاخيرة تحتاج الى مزيد من البحث والتحقيق على امل ان نتناولها بالدراسة ضمن البحوث القادمة في ضوء الآيات الواردة في هذه المجالات.

الفصل الثاني

نزول القرآن

وهو أحد المحاور المهمة في علوم القرآن لما يتضمن من مسائل عديدة، فالمُنزل للقرآن، وطبيعة الوحي القرآني، والمُنزَل عليه القرآن، وكيفية النزول، وزمان وانواع ومراتب النزول هي من بين المواضيع التي يمكن إخضاعها للبحث في هذا المحور.[1]

وقبل الدخول في المباحث المهمة لنزول القرآن سنمر على مختلف المفردات التي استعان بها القرآن الكريم في الحديث عن نزول القرآن والتي تتناول ـ احياناً ـ ميزة أو بعداً خاصاً من نزول القرآن.

المفردات التي تتحدث عن نزول القرآن

نصادف في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تتحدث عن نزول القرآن ونسبته الى الله، ونظراً لعدم ضرورة ذكر هذه الموارد باجمعها وعدم تناسبها مع حجم هذا الكتاب فاننا نكتفي بايراد نموذج أو نموذجين لكل مورد، كما ان هنالك آراء مختلفة حول مفاد ومدلول المفردات المستعملة في هذه الآيات، وبحثها ونقدها يستدعي فرصةً اخرى،

---

١. من الممكن تناول الموضوعات الآنفة الذكر بالبحث من وجهات نظر مختلفة قرآنية ونفسية واحياناً تاريخية وعقلية فلربما تتأتى عنها نتائج متباينة ولعلها متناقضة مع بعضها فتصبح سبباً في مسألة أو مشكلة اخرى وهي كيفية علاج تناقض هذه النتائج.

ويجري التطرق هنا لواحدٍ من هذه الآراء وهو الاكثر تناسباً ـ في نظرنا طبعاً ـ مع ظاهر الآيات.

١ـ نزول

هذه المفردات التي لها مادة لغوية واحدة هي الاكثر استخداماً ولعلها الاكثر افصاحاً من بين المفردات التي استخدمت في بيان نزول القرآن. يقول تعالى في الآيتين ١٩٣ و١٩٤ من سورة الشعراء:

«نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ»

وورد في الآية ١٧٦ من سورة البقرة:

«ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ»

ويقول في الآية ٢١ من سورة الحشر:

«لَوْ أَنْزَلْنا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خٰاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ»

ان بعض الآيات التي استعملت هذه المفردات لبيان نزول القرآن من قبيل الآيات الثلاث اعلاه تتعلق بالقرآن كلّه، والبعض الآخر من قبيل الآية الاولى من سورة النور «سُورَةٌ أَنْزَلْنٰاهٰا» ناظرة لقسم من القرآن، والطائفة الثالثة من هذه الآيات ـ وان كانت على لسان غير الله وهي تبين نزول القرآن بصيغة الاستهزاء ـ لكنها تبتني على هذا الفرض بانه قرآن من عند الله عز وجل، من قبيل الآية ٣٢ من سورة الفرقان:

«وَقٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً»

على أية حال، مجموع هذه الطائفة من الآيات على اختلاف مراتب دلالتها تبيّن ادعاء هذا الكتاب بانه نازل من عند الله سبحانه وتعالى.

لقد تمّ بيان مفاد «نزول» التي يتضح تبعاً لها معنى الانزال والتنزيل من حيث مادتها، لدى توضيح العنوان السابع من العناوين الاستقلالية للقرآن، وهنا سيتمّ بيان الاختلاف بين الانزال والتنزيل من حيث الهيئة والشكل لهاتين المفردتين.

انزال وتنزيل

أوضح بعض المفسرين وعلماء اللغة الفارق بين الانزال والتنزيل بما يلي: الانزال يدل على النزول الدفعي، والتنزيل يدل على النزول التدريجي، ومتى ما لوحظت الوحدة والدفعية في نزول القرآن فانه تستعمل مفردة انزال، كما في الآية ١٨٥ من سورة البقرة:

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»

وفي الموارد التي يُعنى فيها الكثرة والتدريج فانه يستفاد من لفظ تنزيل من قبيل:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» الحجر / ٩.[1]

ولكن من الصعب اثبات هذا الأمر في كافة الموارد، فعلى سبيل المثال يقول في الآية ١١٤ من سورة الانعام:

«أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً»

ويقول في الآية ١٦ من سورة الحج:

«وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ»

فقد استخدم التعبير بـ«انزال» بالرغم من ان المراد هو التكثير والتدريج، ومن ناحية اخرى استخدم التعبير بـ«التنزيل» في الآية ٣٢ من سورة الفرقان:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً»

---

١. هنالك اختلاف في الآراء حول تفاصيل المسألة في كلام القائلين بهذه الرؤية من قبيل ان البعض مثل الراغب الاصفهاني يرى ان هذا الاختلاف يختص باستخدام هاتين المفردتين في نزول القرآن والملائكة؛ وبعض آخر من امثال المرحوم العلّامة الطباطبائي يرى ان هذا الاختلاف اختلاف في اغلب الموارد، ولكن يبدو ان ثمة اتفاقاً في الآراء حول اصل الأمر (دلالة التنزيل على التدريج والانزال على الدفعية في الآيات الدالة على نزول القرآن) وللمزيد من التوضيح راجع: كتب التفسير، الآيات ذات العلاقة ومنها: الميزان في تفسير القرآن للعلّامة محمدحسين الطباطبائي: ج ٢، ص ١٥، وج ٣، ص ٧، وج ١٥، ص ٣١٦ الطبعة الاولى، جماعة المدرسين، قم، ومفاتيح الغيب [التفسير الكبير] لفخر الدين محمد الرازي: ج ٢، ص ١١٦، الطبعة الثالثة، دار احياء التراث، بيروت، ومفردات الراغب الاصفهاني.

حيث المراد نزول القرآن بأكمله دفعة واحدة.

ويقول في الآية ١٤٠ من سورة النساء:

«وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»، حيث استخدمت مفردة «نزّل» بالرغم من ان المراد موضوع واحد.[١]

من هنا انبرى القائلون بدلالة التنزيل على النزول التدريجي، والانزال على النزول الدفعي الى محاولة توجيه الآيات اعلاه وما شابهها من الآيات التي توجد بكثرة في القرآن، أو انهم بادروا لتوجيه المراد من النزول الدفعي والنزول التدريجي.[٢]

والوجه الآخر في الفارق بين هاتين الكلمتين والذي يبدو اكثر وضوحاً وربما يمكن تطبيقه على كافة الآيات الواردة في البحث دون استثناء هو: ان الانزال تدل على اصل الانزال «تعدية النزول» ولا ينطوي في مفهومه على الدفعي أو التدريجي ولا على الوحدة أو الكثرة، ومن هنا فهو ينسجم مع الوحدة والكثرة أو الدفعي والتدريجي، أما في التنزيل فقد لوحظ معنى الكثرة ـ وليس التدريج ـ بما يتناسب مع صيغة «التفعيل».

ان هذه الكثرة تأتي تارة في مجال الفعل من قبيل «طوّفت الكعبة» أي طفت حول الكعبة مراراً، واخرى في الفاعل من قبيل «موّتت الاغنام» وثالثة في المفعول من قبيل «غلّقتُ الابواب» وتعني إيصاد الكثير من الابواب.[٣]

---

١. وردت في كتب التفسير موارد اخرى لا تتطابق مع هذه الرؤية. راجع على سبيل المثال: اسئلة القرآن المجيد واجوبتها لزين الدين محمد الرازي: ص ٢٦، الطبعة الثانية، مطبعة مهر، ١٣٩٠، والمصدر المتقدم للسيد محمود شهاب الدين الآلوسي: ج ١، ص ١٩٣.

٢. راجع المصدر المتقدم للعلّامة محمدحسين الطباطبائي: ج ٢، ص ١٥ وج ٣، ص ٧.

٣. راجع: شرح التصنيف لمسعود التفتازاني المطبوع في «جامع المقدمات»: ص ٧٣، الطبعة الاولى، المكتبة العلمية الاسلامية، طهران، ١٣٦٦هـ

وهكذا الحال في ما يخص نزول القرآن، ربما يكون المراد الكثرة بلحاظ تعدد الآيات (الكثرة في المفعول) وقد يكون المراد منها تعدد مراتب النزول (الكثرة في الفعل)، لأنه، وكما تقدمت الاشارة اليه، هنالك فارق كبير بين المرتبة الحقيقية للقرآن (انه مرتبة من علم الله) ومرتبة مفاهيمه والفاظه، وبهذا فان استخدام مفردة «تنزيل» بشأن نزول آية واحدة أو موضوع واحد، وبشأن نزول مجموع القرآن حتى وان كان بعنوان وحدته الاعتبارية او الحقيقية يكون صحيحاً ايضاً.

وعلى افتراض عدم القبول بهذا الرأي، يمكن القول: ان كلاً من الانزال والتنزيل متعدي النزول وهما من قبيل المترادفين، واستعمال كلٌ منهما بديلاً للآخر صحيح، من هنا نرى ان موضوعاً واحداً تجري الاشارة اليه في سورة بمفردة «تنزيل» وفي سورة اخرى بمفردة «انزال» كما في الآية الكريمة:

«وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» الانعام / ٣٧، والآية:

«وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» يونس / ٢٠

حيث تشيران الى احتجاج المشركين القائم على انه: لماذا لم تنزل آية من الله على النبي ﷺ؟[١]

٢ـ المجيء

استعملت اكثر من ٣٥ مورداً من مشتقات هذه المادة اللغوية في الآيات القرآنية الكريمة لإفهام نزول القرآن من قبيل (جاء، جاءك، جئناك...).

---

١. من هنا ادعى البعض اذا ما استُخدم الفعل اللازم في باب التفعيل وأصبح متعدياً، فان ذلك يعني انه لا دلالة له على الكثرة، والكثرة انما تستفاد في الموارد التي لا يكون الفعل متعدياً أو يكون متعدياً قبل مجيئه في صيغة التفعيل، ولا يوجد في كلام العرب موردٌ يصبح فيه الفعل اللازم متعدياً ويدل على الكثرة اذا اصبح بصيغة التفعيل، راجع نفس المصادر لزين الدين محمد الرازي والسيد محمود شهاب الدين الآلوسي.

تدل بعض هذه الآيات على اصل مجيء القرآن كأمرٍ حق دون الحديث عمّن جاء به ودون ان تحدد مَنْ جاء اليه القرآن، كما في الآية ٨١ من سورة الاسراء:

«وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً»

وكذلك الآية ٤٩ من سورة سبأ.

وتدل طائفة اخرى من هذه الآيات على نزول القرآن على النبي الاكرمﷺ من قبيل:

«وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» المائدة / ٤٨، وكالآيتين ٩٤ من سورة يونس و ١٢٠ من سورة هود.

وطائفة ثالثة تتحدث عن نزول القرآن من الله الى الناس، من قبيل:

«وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدىٰ» النجم / ٢٣، والآيات ٥٧ و١٠٨ من سورة يونس، و١٧٤ من سورة النساء، ويشابه هذه الآيات، الآيات ٥٢ من سورة الاعراف و٨٧ من سورة الزخرف.

وآيات اخرى تتحدث عن مجيء القرآن الى الناس فقط دون الحديث عمّن جاء به، من قبيل:

«وَلَمّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هٰذا سِحْرٌ وَإِنّا بِهِ كافِرُونَ» الزخرف / ٣٠، ومثلها الآيتان ٣٢ من سورة الزمر و٦٨ من سورة العنكبوت.

واخيراً جرى التصريح في طائفة اخرى من الآيات بانّ النبيﷺ هو الذي جاء بالقرآن الى الناس، من قبيل:

«قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ» النساء / ١٧٠، وكذلك الآيات ٧٠ من سورة المؤمنون و٣٧ من سورة الصافات و٦ من سورة الصف.[1]

---

١. هنالك عدة احتمالات في هذه الآيات، فاذا كان المراد من مفردة الحق ـ اي مصداقه ـ هو القرآن فهي من الآيات ذات الصلة بهذا البحث، وإلا فلا علاقة لها بالبحث الحاضر.

ان بيان موضوع واحدٍ بهذه الأطر المتعددة والمتنوعة جاء بسبب الظروف الخاصة التي وقع فيها نزول هذه الآيات، وربما يكون في كلٍّ منها اشارة الى ملاحظة أو ملاحظات جرى التطرق اليها في كتب المعاني والبيان في ابواب ذكر الفاعل والمفعول والمتعلق وخصوصياتها وحذفها.

٣ـ الإتيان والايتاء

جرى بيان نزول القرآن بمشتقات هاتين المفردتين فيما يقرب من عشرة مواضع، منها:

«وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» الحجر / ٨٧

و«بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ» المؤمنون / ٧١، وكذلك الآيتان ٩٩ و١٣٣ من سورة طه.

٤ـ الوحي والايحاء

جاءت هذه الكلمة ومشتقاتها «أُوحي، يوحى...» بياناً لنزول القرآن فيما يقرب من (٤٠) موضعاً في القرآن من قبيل:

«وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا» الشورى / ٧

«ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ» الاسراء / ٣٩

بعض هذه الآيات ـ من قبيل الآية الاولى ـ تقصد نزول القرآن كلّه، والمراد في بعضها الآخر نزول قسم من القرآن، كما في:

«تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ» هود / ٤٩

وقد يشمل بعضها ايحاءات غير قرآنية أيضاً كما في:

«وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» الاحزاب / ٢

حيث تتضمن الاحاديث التي أُوحيت الى النبيﷺ، وقد مرَّ توضيح معنى الوحي

واستعمالاته القرآنية في نهاية الحديث عن مفردة الوحي من بحث الاسماء المستقلة، وورد تفصيل خصوصيات الوحي للانبياء وانواعه في بحث معرفة الرسالة والرسول.

٥ـ القراءة والتلاوة

استعملت مشتقات مفردة القراءة اربع مرات في بيان نزول القرآن وهي عبارة عن:

«إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» القيامة / ١٧ و١٨

و«سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى» الاعلى / ٦

كما استعملت مشتقات مفردة التلاوة ست مرات في مجال نزول القرآن ايضاً منها:

«تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ» البقرة / ٢٥٢ والآيات ٥٨ و١٠٨ من سورة آل عمران و٦ من سورة الجاثية و٣ من سورة القصص و٣ من سورة الصافات.[١]

وقد مرَّ توضيح معنى القراءة في نهاية مفردة القرآن من الفصل السابق؛ والاقراء يعني قراءة مكتوب لشخص آخر لغرض تأييد موضوعاته أو تصحيح الخطأ، والمراد هنا ان الله أو الملك سيقرئك ـ ايها النبي ـ وحي القرآن بحيث لن تنساه. وسيأتي المزيد من الايضاح للموضوع في بحث كيفية تلقي النبيﷺ للوحي.

ان مفردة «إقراء» من بين التعابير التي ربما تتضمن إشعاراً بان النبيﷺ كان مطلعاً على حقائق القرآن قبل النزول التدريجي ويُقرأ عليه مرة ثانية لتوكيدها.

والتلاوة تعني القراءة، وتختلف عن القراءة باختصاصها بالكتب المقدسة.

٦ـ الترتيل

استعملت هذه المفردة في موضع واحد فقط لبيان نزول القرآن، وهي:

---

١. يُحتمل ان يكون المراد في الآيتين ٣ من سورة البينة و١١ من سورة الطلاق هو تلاوة الملائكة للوحي وبالتالي فهي تُعدّ من الآيات الخاصة بهذا الباب، وإن كان هذا الاحتمال ليس هو الأرجح.

«وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً» الفرقان / ٣٢

وفي الآية ٤ من سورة المزّمّل يأمر تعالى نبيه ﷺ بان يقرأ القرآن ترتيلاً:

«وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً»

والترتيل يعني القراءة بتأنٍ وتؤدة وبطء بحيث يتم تلقي الأمر جيداً ويترك تأثيره في النفس. وقد فسرت الروايات ترتيل القرآن بما يلي:

«هو أن تتمكث فيه وتُحسّن به صوتك»[١] و«بيّنه تبياناً ولا تهذّه هذّ الشعر ولا تنثره نثر الرمل ولكن (اقرعوا به) قلوبكم القاسية».[٢]

٧ـ الالقاء والتلقي

يقول تعالى في الآية ٦ من سورة النمل:

«وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ»

ويقول في الآية ٥ من سورة المزمل:

«إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً»

ويقول في الآية ٥ من سورة المرسلات:

«فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً»

وفي الآية ٢٥ من سورة القمر ينقل عن المخالفين والمنكرين ما يلي:

«أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ»

ويقول في الآية ٨٦ من سورة القصص مخاطباً النبي ﷺ:

«وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ»

والالقاء تعني طرح الشيء، والتلقي تعني استقبال الشيء، والمراد من الالقاء في هذه الآيات جعل معارف الوحي تحت تصرف النبي، والمراد من التلقي استلامها.

---

١. وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٦، ص ٢٠٨، الطبعة الاولى، المكتبة الاسلامية، طهران ١٣٧٧ هـ

٢. نفس المصدر السابق: ص ٢٠٧.

٨ـ التعليم

استعملت مشتقات مفردة التعليم في اربعة مواضع في باب نزول القرآن وهي عبارة عن:

«الرَّحْمٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ» الرحمن / ١ و٢، النساء / ١١٣، يس / ٦٩، النجم / ٥

وواضح معنى التعليم، وسمي نزول القرآن بالتعليم لأن الله ومن خلال نزول القرآن يعلّم النبيﷺ معارفه وتعاليمه.

٩ـ القصّ

استعملت مشتقات هذه المفردة في مواضع عديدة، غالباً ما تكون في بيان نزول الآيات التي تتضمن قصصاً قرآنية من قبيل:

«نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ» يوسف / ٣، وكذلك الآيات ١٠٠ و١٢٠ من سورة هود، و٥٧ من سورة الانعام و١١٨ من سورة النحل، و١٦٤ من سورة النساء، و٧٨ من سورة غافر، و١٠١ من سورة الاعراف، و١٣ من سورة الكهف، و٩٩ من سورة طه.

المعنى الاصلي للقص هو التتبع ـ ومن هذا جاءت مفردة القصاص وتعني تتبع الجرم المرتكب، كما تعني بيان ورواية الموضوع، ومن بين استعمالاتها رواية القصة.

١٠ـ الفرض

«إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلىٰ مَعَادٍ» القصص / ٨٥

الفرض يعني الالزام والحتم والوجوب، ويقال للصلوات الواجبة فريضة، كما يُعبَّر عن الاحكام الوجوبية بـ«الفرائض»، والمراد من فرض القرآن وجوب تلاوته وتبليغه على النبيﷺ.

وقال البعض ايضاً ليس المراد من هذه الآية كل آيات القرآن، بل احكامه الوجوبية ولهذا استعملت مفردة (فرض)، غير ان الاحتمال الاول هو الاكثر تناسباً مع ظاهر الآية.

وكما هو الملاحظ فان هذه الآيات بالاضافة الى بيانها لانتساب القرآن الى الله سبحانه وتعالى، تدل على بعض خصوصيات نزول القرآن من قبيل بطء وتتابع النزول؛ وكونه خفية وعدم الاحساس به واقترانه بالتعليم.

وبالاضافة الى التعابير الآنفة الذكر فقد مرّت بعض اوصاف القرآن في الفصل السابق من قبيل:

آيات الله، وكلام الله وما شابهها وهي تدل على كون القرآن من عند الله، وهنالك آيات اخرى لا تُعد من ضمن الموضوعين أعلاه لكنها تبين بصراحة ان القرآن من لدن الله سبحانه وتعالى، من قبيل الآية ٣٧ من سورة يونس التي تقول:

«وَمَا كَانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللهِ وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

الآن وبعد ايراد أهم التعابير التي استعملت فيما يخص نزول القرآن، نتطرق للمحاور ذات الصلة بنزول هذا الكتاب العظيم.

مُنزل القرآن

يمكن تقسيم مجموع الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن نزول القرآن في ضوء هذه الرؤية الى ثلاثة اقسام هي:

القسم الاول: الآيات التي لا تشير الى مُنزل القرآن، واختارت السكوت ازاءه من قبيل الآية الكريمة:

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ...» البقرة / ١٨٥

«أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاٰ يَكُونُوا كَالَّذِينَ

أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» الحديد/١٦[١]

القسم الثاني: الآيات التي تشير الى ان الله تعالى هو منزل القرآن، وهي من قبيل:

«اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ اللهِ ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» الزمر / ٢٣

القسم الثالث: الآيات الكريمة التي تتحدث عن دور طائفة من الملائكة في نزول القرآن وبالخصوص انها تعتبر جبرئيل منزِّلاً للقرآن، وهي من قبيل:

«نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ» الشعراء / ١٩٣ و١٩٤.

«قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ» النحل / ١٠٢.

«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» التكوير / ١٩ ـ ٢١.

«قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ» البقرة / ٩٧.

«فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ» عبس/١٣ـ١٦.

«عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ» الجن / ٢٦ و٢٧[٢]

---

١. تأتي هذه الآية ضمن هذا القسم اذا كانت «من» في عبارة «ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» بيانية أو تبعيضية. لكنها تقع في القسم الثاني اذا كانت نشوية.

٢. قال البعض ان المراد من «رسول» في الآية الاربعين من سورة الحاقة هو ملك الوحي ايضاً، ولكن يبدو ان المقصود فيها هو النبي الاكرم ﷺ، وفي كلتا الحالتين انها تدل على وساطة مجموعة من الملائكة وحراستهم للوحي اثناء نزوله، وان كانت في الحالة الاولى اكثر تناسباً مع البحث. وتشابه هذه الآية الآيتان الخامسة والسادسة من سورة النجم التي تقول: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلىٰ» حيث ظاهرها تعليم القرآن للنبي على يدي ملك الوحي، وان كان من المحتمل فيها تعليم الله للنبي ﷺ.

هنالك عدة ملاحظات جديرة بالاهتمام فيما يخص هذه الطائفة من الآيات وهي:

الاولى: ان ملائكة الوحي تقوم بادوار عديدة من قبيل الانزال، والامساك بألواح الوحي والمحافظة عليها، وهذا ما سنتطرق اليه في كيفية النزول.

الثانية: ان جبرئيل عليه السلام يتولى قيادة مجموعة ملائكة الوحي، ويستفاد هذا الأمر من مفردة «مطاع» ومن التصريح باسمه وبأوصافه وانتساب النزول اليه في عدة آيات.

الثالثة: ان الروح الامين، وروح القدس والرسول الكريم من اوصاف جبرئيل عليه السلام وقد وُصف بهذه الاوصاف لامانته وقدسيته وكرامته لدى الباري تعالى وليست اسماً عَلَماً له عليه السلام. بناءً على هذا لا اشكال في اطلاق هذه المفردات في آية[١] أو رواية على ملك آخر.[٢]

الرابعة: ذُكر في القسمين الاخيرين من الآيات مُنزِلَيْن للقرآن وهما «الله عز وجل» و«ملائكة الوحي»، حيث ظاهر كلتا الطائفتين هو ان النسبة حقيقية، ولا وجه للحمل على المجاز في واحدة وعلى الحقيقة في اخرى.

من ناحية اخرى لا معنى للاسناد الحقيقي لفعل واحدٍ لفاعلَيْن في عرضٍ واحد لاسيما في هذا الموقع[٣] اذ ليس هنالك مخلوق في عرض الله.[٤] بناء على هذا فالوجه الصحيح هو ان نقول فقط: ان المراد هو الاسناد الحقيقي لفاعلين يسيران طولياً، وفي

---

١. مثلما وُصف روح القدس في الآيات ٨٧ و٢٥٣ من سورة البقرة و ١١٠ من سورة المائدة على انه الملك المؤيد لعيسى عليه السلام.

٢. ويُحتمل ايضاً ان جبرئيل عليه السلام بالاضافة الى دوره في نزول الوحي، له دور في امور اخرى من قبيل تأييد الانبياء، ولعله هو المراد من «روح القدس» الذي نُسبت اليه بعضٌ من هذه الاعمال.

٣. أي بالاضافة الى شمول القاعدة الفلسفية المسلَّم بها «امتناع ورود علتين حقيقيتين على معلول واحد» لهذا المورد فان لخصوصية المورد دورها ايضاً، لانه وبغض النظر عن هذه القاعدة فلا عليّة أو فاعلية لأي مخلوق في عرض الله وفقاً للرؤية القرآنية، وان الجميع خلق الله.

٤. ان وجه الجمع بان الله منزل طائفة من الآيات ومُنزل الطائفة الاخرى هم الملائكة (وإن كان باذن الله)، يتنافى مع ظاهر الآيات ولا صحة له.

هذه الحالة ملائكة الوحي هم منزلوا القرآن باذن الله وهو تعالى فوقهم طولياً، المنزل الحقيقي للقرآن.

يستفاد هذا الوجه بوضوح من الآيات الآنفة الذكر والتعابير من قبيل «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ» و«نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ» تدل على ان هذين الاسنادين يسيران طولياً وان ملك الوحي ينزل بالقرآن باذن الله وأمره.

النتيجة الاخرى المستحصلة من الأمر اعلاه هي في ضوء وجه الجمع هذا لا يبقى مجال للتوهم بأن جبرئيل عليه السلام قد ألقى شيئاً من عنده على النبي صلى الله عليه وآله.[1]

على مَنْ نزل القرآن؟

لقد حصل في المنزَّل عليه القرآن شبيه ما كان حصل فيمن نزَّله، فلم يرد الحديث في بعض الآيات عمَّن نزل عليه القرآن، من قبيل:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» الحجر / ٩

«إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ» الاعراف / ١٩٦

وفي آيات كثيرة يُذكر النبي الاكرم صلى الله عليه وآله بانه المنزَّل عليه القرآن، من قبيل:

«وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» محمد / ٢

«إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ...» الزمر / ٢

وهناك طائفة ثالثة من الآيات تدل على نزول القرآن على الناس، وهي من قبيل:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» النساء / ١٧٤

---

١. بالرغم من احتمال ان المراد من الروح في الآيتين الكريمتين «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» النحل / ٢ و«تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» القدر / ٤، هو جبرئيل عليه السلام ولكن استناداً للروايات وما فيها من استدلال، ان الروح ملكٌ اعظم من جبرئيل. للاطلاع على الروايات، راجع: تفسير نور الثقلين لعبد علي العروسي الحويزي: ج ٣، ص ٣٩ و٢١٥ وج ٥، ص ٦٣٨، الطبعة الثانية، المطبعة العلمية، قم، ١٣٥٨.

«وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ» البقرة / ٢٣١

كما هو ملاحظ فقد نُسب نزول القرآن الى النبيﷺ والى الناس معاً من خلال حرفي التعدي «إلى» و«على»، ومما لا شك فيه ان القرآن نزل على النبيﷺ مباشرة، وهو وحده يمثل الظرف لنزول كنز العلم الالهي والمستودع لسرّ الله، وان الناس ليتنعمون بمعارف القرآن عن طريق النبيﷺ ومن خلال تلاوة الآيات عليه وسماعها وفهمها منه.

بناءً على هذا يصبح المراد من نزول القرآن على الخلق هو ان القرآن قد تنزّل الى المستوى الذي جاء بصيغة الفاظ وعبارات يسهل فهمها على الناس، إذ لا وجود للالفاظ والعبارات المادية في قضية النزول على النبيﷺ وهو نزول على القلب، واذا ما كان ثمة الفاظ ـ وهو المستفاد من ظاهر الآيات ـ فهي الفاظ غير مادية، والتنزل الى مستوى الالفاظ والعبارات المادية انما هو لازمٌ للناس. أو ان المراد هو بما ان القرآن نزل ليكون في متناول الناس وليفهموه ويعملوا به، فيمكن اعتباره نازلاً على الناس واليهم، ونزوله عليهم في واقع الأمر هو عن طريق النبيﷺ، من هنا يقول تعالى في الآية ٤٤ من سورة النحل:

«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»

ويقول في آية اخرى:

«أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ» العنكبوت / ٥١

المنزَّل وكيفية تلقي النبيﷺ

كما هو ملاحظ في البحث السابق فقد صرح تعالى في الآيات ١٣ و١٤ من سورة عبس و٢ من سورة البينة: ان القرآن الكريم في صحف قيّمة مرفوعة مطهرة تُقرأ على

النبيﷺ من قبل ملك الوحي، أو ان النبيﷺ يقرؤها بنفسه.[١] وهذه الآيات تدل على ان الوحي من سنخ المرئيات.

من جانب آخر تدل الآيات ١٩ من سورة التكوير و١٨ من سورة القيامة على ان الآيات النازلة هي من سنخ المسموعات، وقد جرى الحديث بأن القرآن قول ملك الوحي، وان النبيﷺ مكلّفٌ بتلاوة الآيات بعد قراءتها من قِبل ملك الوحي أو من قِبل الله سبحانه وتعالى.

وهناك آيات اخرى تُنبئ عن نزول القرآن على قلب النبي الاكرمﷺ من قبيل الآية ٩٧ من سورة البقرة التي تقول:

«قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ»

والآيتين ١٩٣ و١٩٤ من سورة الشعراء القائلتين:

«نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ»

والآيات الاخيرة تبين هذه الحقيقة وهي ان ما ينزل على النبيﷺ ليس صوتاً مادياً أو صحيفة يسيرة الاحساس بالحواس الظاهرية، بل يُتلقى ببصيرة الفؤاد وسماع الروح. فظاهر مجموع الآيات المتقدمة هي انها بأجمعها تتحدث عن حقيقة واحدة، وفي مثل هذه الحالة إن كانت هنالك صورة أو صحيفة مادية فلا معنى عندئذ للنزول على القلب.[٢]

بالاضافة الى ذلك ـ كما سيرد في هذا الفصل ـ ان نزول القرآن ليس نزولاً مادياً

---

١. لا يتنافى هذا الأمر مع أميّة النبيﷺ الذي سيأتي في بحث الاعجاز في القرآن، لان هذه الكتابات ليست مادية، وان مسألة الأمية لها صلة بالقراءة والكتابة المتعارف عليها وهي مادية أولاً، وان المراد من الأمية عدم القدرة على القراءة المتأتية بالطرق العادية، وان هذه القراءة انما هي خارقة للعادة ثانياً.

٢. ان نظرية اختلاف بيانات القرآن في هذا الموضوع بما انها ناظرة لمختلف اقسام القرآن، بمعنى ان قسماً من القرآن نزل على هيئة صوت، وان قسماً آخر نزل بهيئة صحيفة وان قسماً ثالثاً نزل على القلب، تتنافى مع ظاهر الآيات، وان تناسب المقام وسياق هذه الآيات يشهد على خلاف ذلك.

واعتبارياً، بل هو نزول معنوي، والنزول المعنوي لا ينسجم مع الصحيفة والصورة المادية. من هنا لم يكن الآخرون يسمعون صوت الوحي ولا يرون صحيفته اثناء نزوله.[١] وتؤيد هذا الكلام الحالة المذهلة والصورة من تعطّل الحواس الظاهرية للنبيﷺ اثناء نزول الوحي التي نصّ عليها التاريخ والروايات. كما بالامكان اعتبار الآية الكريمة:

«وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا» الشورى / ٥٢ مؤيداً بل شاهداً على هذا الأمر.

يتضح هذا الأمر مما تقدم ايضاً وهو كيفية تلقي النبيﷺ للوحي، فالآيات الكريمة تدل على ان الوحي كان يستحوذ على كافة مشاعر النبيﷺ وقواه المدركة النفسانية، وانهﷺ كان يتلقى الوحي بكل كيانه، ولم يكن تلقي النبيﷺ من سنخ العلم الحصولي بل من المراتب العليا للعلم الحضوري.

على هذا الاساس تتضح عدم صحة الرؤية القائلة بحاجة النبيﷺ الى دليل أو برهان آخر من غير الوحي الذي تلقاه لتمييز الوحي السماوي عمّا سواه ولإدراك ما اذا كان ما يتلقاه كلام الله أم لا. وينكشف بطلان الرواية التاريخية القائلة بان النبيﷺ كان يشكّ احياناً بكون ما يسمعه من ملك الوحي هل هو من الوحي، أو كان يتصور صوت الشيطان على انه حديث ملك الوحي.

من جهة اخرى ان هذا التلقي الذي كان يحصل بشكل خفي (وحي) هو نوع من التعلّم، وفي «النزول التدريجي» نوع من التأييد لما تلقاه النبيﷺ سابقاً عن طريق النزول الدفعي وهو ينطوي على «الاقراء» بنحو يتم تلقيه بشكل جيد (ترتيل) ولا يُنسى أبداً (فلا تَنسى).

---

١. ما ورد في الخطبة ١٩٢ من نهج البلاغة من قول النبيﷺ لعليؑ: «انك تسمع ما اسمع وترى ما أرى الّا انك لست بنبي» لا يتنافى مع هذا المدّعى، لان علياًؑ نفس الرسولﷺ وهو في مرحلة عليا من الكمال تؤهله لان يرى ملك الوحي وصحيفة الوحي أو يسمع صوته.

ثمة سؤال في هذا المجال واجه المفسرين وعلماء القرآن منذ القِدم وهو: هل ان النبيﷺ لدى تلقيه للوحي القرآني يستلم المعاني والمعارف فقط ثم يصوغها في إطار الفاظ وعبارات، وعليه فان الالفاظ والعبارات هي من صنع النبيﷺ وصياغته، أم إنه يتلقى الالفاظ وحدها وعن طريق هذه الالفاظ ينتقل الى المعاني والمعارف ويفهمها كالآخرين، أم ان الالفاظ والمعاني جميعاً هي من الله وان النبيﷺ يتلقاهما من الله عز وجل؟[1]

وهناك آيات كثيرة تدل على ان الالفاظ والعبارات نزلت من الله الى النبيﷺ ايضاً، نشير اليها باختصار:

أ ـ آيات التحدي: لا شك في ان تحدي القرآن يشتمل على طلب الاتيان بالمثل بالفصاحة والبلاغة، والبلاغة ناظرة الى الالفاظ والعبارات وبتعبير آخر القوالب التي يستخدمها المتحدث للتعبير عن مراده. بناءً على هذا فان مفاد آيات التحدي هو: إن كنتم في شك بالنسبة لهذه الالفاظ والقوالب التي تتضمن هذه المعاني في كونها من عند الله، فأتوا بالفاظ وعبارات اخرى مشابهة لها ان كنتم تحتجون عليها ولكي تثبتوا مزاعمكم.

هذا الكلام دليل على ان هذه الالفاظ والعبارات نازلةٌ من لدن الباري عز وجل، وهي ليست من صنع وصياغة عقل أيّ انسان وحتى النبيﷺ داخل في هذا العموم.

---

١. هنالك نظرية اخرى هي ان اللفظ والمضمون من النبيﷺ، وان نسبتها الى الله في الآيات على غرار الكثير من افعال البشر وشؤونهم التي تُنسب الى الله لان الله هو الذي وفّر مقومات تبلور مثل هذا اللفظ والمضمون لدى النبيﷺ، أو ان المراد من الروح ومن الله نفس النبي وقواه النفسية.
هذه النظرية تعني في واقع الأمر نفي اعجاز القرآن، وهي لا تنسجم مع ظاهر الآيات بل صريحها فيما يخص القرآن ونزوله، ولا يمكن الاعتناء بها، وهنالك قول رابع ايضاً يرى ان المعاني من الله والالفاظ من جبرئيل. راجع: نفس المصدر لمحمدحسين الطباطبائي: ج ١٥، ص ٣١٧، وراجع: بدر الدين محمد الزركشي: ج ١، ص ٢٩١، والاتقان في علوم القرآن لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي: ج ١، ص ١٣٩، الطبعة الاولى، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٠٧.

ب- إن تعابير من قبيل القراءة «فَإِذَا قَرَأْنَاهُ»، والتلاوة «نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ» والترتيل «وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً» التي استخدمت في مقام الحديث عن نزول القرآن، لها ظهور قوي في نزول الالفاظ والعبارات من عند الله، ولا يمكن التنازل عن هذا الظهور الّا بقرينة ودليل واضح على خلافه، ولا وجود لمثل هذه القرينة وهذا الدليل، وتشبه هذه التعابير الآيات التي تصرّح بأن النبيﷺ ولدى تلقيه الوحي القرآني يستلم قرآناً، وكتاباً، وصحفاً، أو يتلو صحفاً فيها كتب قيمة: «رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ».

ج- ان بعض اوصاف القرآن من قبيل «كلام الله»، «القرآن»، «كلمات الله» تفيد ان القرآن نزل على هيئة الفاظ وعبارات، كما ان استخدام مفردة «لسان» بشأن القرآن من قبيل «وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ» تدل على ان الالفاظ من عند الله ايضاً، اذ ليس من المتعارف استخدام مفردة «لسان» بخصوص المفاهيم ومضمون الالفاظ، كما ان مفردة «عربي» التي اعقبت مفردة «لسان» كوصف لا تتناسب مع المضمون، سواء كانت مفردة «عربي» تعني اللغة العربية أو الكلام الفصيح.

نزول القرآن باللغة العربية

الآيات الاخيرة التي كانت تتحدث عن نزول القرآن باللغة العربية تمهد لثلاثة ابحاث اخرى على صعيد معرفة القرآن هي:

الاول: ما المراد من نزول القرآن باللغة العربية؟

الثاني: هل ان نزول القرآن باللغة العربية يعني ان كافة المفردات المستخدمة في القرآن هي مفردات عربية اصيلة، أم ان كون القرآن عربياً لا يتنافى مع وجود مفردات دخيلة في القرآن الكريم؟

الثالث: ما هو السر في نزول القرآن باللغة العربية؟ وهل ان نزول القرآن باللغة العربية أمرٌ طبيعي أم كان بسبب ملاحظة معيّنة؟

نتناول بالبحث هنا وبايجازٍ المسائلَ الثلاث المتقدمة وفي ضوء الآيات الكريمة.

المراد من كون القرآن عربياً

ان للآيات التي جرى الاستدلال بها لاثبات كون القرآن عربيّاً ثلاثَ تركيبات متفاوتة، فهناك آيات عديدة تتحدث عن نزول القرآن على انه «مكتوب باللغة العربية»، «كتاب في هيئة مقروء بالعربية» و«حكم عربي» من قبيل الآية ١٢ من سورة الاحقاف:

«وَهٰذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ»

والآيتين ٢ و٣ من سورة فصّلت:

«تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»

والآية ٣٧ من سورة الرعد:

«وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ».

وكذلك الآيات ٢ من سورة يوسف، ١١٣ من سورة طه، ٢٨ من سورة الزمر، ٧ من سورة الشورى و١٩٥ من سورة الشعراء.

وطائفة اخرى من الآيات تطرح عدم اعجمية «كونه غير عربي» القرآن والحكمة من عدم نزول القرآن على شخص أعجمي وبلغة أعجمية من قبيل الآية الكريمة:

«وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهٰذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» الزخرف / ١٠٣.

والآية: «وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» فصّلت / ٤٤.

والآية: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ» الشعراء / ١٩٨، وعلى غرارها الآيات ٣ من سورة الزخرف و٧ من سورة الشورى.

والطائفة الثالثة تتحدث عن ارسال كل نبي بلسان قومه وعن تيسير القرآن على لسان النبيﷺ من قبيل الآيات الكريمة التالية:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» ابراهيم / ٤

والآية: «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا» مريم / ٩٧.

و«فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» الدخان / ٥٨،[1] والآيات ٨ من سورة الاعلى و١٧، ٢٢، ٣٣، ٤٠ من سورة القمر.

هنالك نظريتان فيما يخص المراد من مفردتي «عربي» و«اعجمي»، الاولى: هي ان العربي تعني الكلام أو الانسان العربي، والاعجمي تعني الكلام أو الانسان الناطق بغير العربية. والثانية: هي ان المراد بالعربي الانسان أو الكلام الفصيح، وفي مقابلها فان الاعجمي تدل على الانسان أو الكلام غير الفصيح.

ان الدقة في طريقة البيان وسياق الآيات تدل على ان غالبية الآيات تتفق تقريباً على ان المراد من «عربي» و«اعجمي» هو المعنى الاول، ويُحتمل المعنى الثاني في الآيتين ٤٤ من سورة فصلت و١٠٣ من سورة النحل فقط وإن كان هذا الاحتمال لا يتمتع بالقوّة.

على أية حال، ان هذه الآيات بالاضافة الى دلالتها على كون القرآن عربي المضمون وكذا الفاظه وعباراته فانها تدل ايضاً على ايحاء القرآن من لدن الله عز وجل الى النبيﷺ.

---

١. حاول البعض ان يستشفوا من هذه الآية الكريمة ان القرآن لم ينزل باللغة العربية فحسب بل بلهجة قريش ـ الذين يعتبرون قوم النبيﷺ ـ أيضاً، وهذا استشفاف خاطئ، لان كلمة قوم اطلقت في القرآن على من لا ينتسب اليهم الشخص عرقياً، كما في اطلاقها على قوم لوط في الآية ٧٠ من سورة هود بالرغم من انه لم يكن من عرق قوم هود. فدلالة هذه الطائفة من الآيات على كون القرآن عربياً ليست سواءً، ودلالة الطائفة الاخيرة لا تبدو قوية نوعاً ما، فيما دلالة الطائفة الاولى أكثر وضوحاً من غيرها.

القرآن والمفردات الدخيلة

قسَّم المختصون بعلوم القرآن بحثهم حول وجود المفردات غير العربية في القرآن الى قسمين، اولهما: هل هنالك مفردات دخيلة في القرآن؟ وعلى افتراض وجود مثل هذه المفردات فما هي مواردها؟ وما السرّ في استخدامها؟

وثانيهما: كيف ينسجم وجود المفردات الدخيلة مع كون القرآن عربياً وهو الأمر الذي تنص عليه الآيات؟

بالرغم من ان البعض ادعى ـ من ناحية ـ ان مفاد الآيات هو: ليس هنالك أية مفردة غير عربية في القرآن، فيما تحدث آخرون ـ من ناحية اخرى ـ عن وجود مفردات غير عربية كثيرة في القرآن، ولكن يمكن القول: ان وجود المفردات المشتركة بين اللغة العربية وغيرها من قبيل بعض الأعلام وكذلك المفردات المعرّبة التي ثبت تعريبها في زمن نزول القرآن وكانت رائجة في لغة العرب آنذاك، لا يتنافى بأي حال مع كون القرآن الكريم عربياً، وان البحث في الآيات ينبئ عن وجود مثل هذه الموارد، بيد ان تحديد مثل هذه الالفاظ بأجمعها ودراسة وجود أو عدم وجود صيغ اخرى للمفردات غير العربية في القرآن يحتاج الى بحث تفصيلي لا يسعه هذا الكتاب.[1]

السرّ في نزول القرآن باللغة العربية

بما ان أول المخاطبين وان النبيﷺ بالذات كانوا من الناطقين بالعربية فان نزول القرآن باللغة العربية أمر طبيعي، فكل متحدث أو عالم انما يدلي أو يكتب احاديثه بلغة

---

١. بالاضافة الى كتب التفسير وعلوم القرآن التي تطرقت الى ذكر نماذج من المفردات الدخيلة في القرآن احياناً، فقد صنَّف بعض العلماء كتباً مستقلة حول الكلمات الدخيلة في القرآن، فعلى سبيل المثال ألَّف جلال الدين السيوطي كتاباً تحت عنوان «المهذّب في ما وقع في القرآن من المعرّب» وبحث فيه ١٢٥ مفردة دخيلة في القرآن. كما ألَّف ارتور جيفري كتاباً يحمل عنوان «المفردات الدخيلة في القرآن» ذكر فيه ماعدا الاعلام ٢٧٥ مفردة.

مخاطبيه، إلا ان يتعذر سلوك مثل هذا المسير الطبيعي لاسباب معينة، أو يظهر من الضروري اتخاذ منهج آخر.[١]

وهذا الاسلوب أيده الله سبحانه وتعالى واستخدمه لدى ارساله الرسل وابلاغ رسالاته:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» ابراهيم / ٤

إن رسل الله كانوا يأتون برسالة بلغة اقوامهم ومخاطبيهم، وكانوا يبينون معارف تتناسب مع مستواهم الثقافي والعلمي، كما انهم كانوا يأتون بمعجزات تنسجم مع اختراعاتهم والعلوم والثقافة المتطورة الدارجة عندهم لاثبات ارتباطهم بالله.

في ضوء ما تقدم، لو نزل القرآن بلغة غير اللغة العربية لكان مجالاً لأن يثار التساؤل عن الحكمة في نزول القرآن بتلك اللغة فيقال: بما ان أول المخاطبين بهذه الرسالة هم الناطقون بالعربية، فلماذا لم تنزل هذه الرسالة باللغة العربية؟

اذن نزول القرآن باللغة العربية أمر طبيعي بالدرجة الاولى يجري بشأن جميع الكتب السماوية بل كافة الرسالات التي يكون مخاطبوها الاولون أمة أو قوماً أو طائفة معينة، ولكن هنالك وجه آخر فيما يخص القرآن ايضاً يضاعف ضرورة استخدام هذا المنهج ونزول القرآن باللغة العربية وهو التحدي والمطالبة بمثيل لهذا الكتاب، فكيف تصح مطالبة مخاطبين لا يجيدون سوى اللغة العربية أو انهم لا يحيطون بما فيه الكفاية بسائر اللغات، بأن يأتوا بمثيل للقرآن لاثبات حقانية أو عدم صحة زعم النبي في حين ان القرآن ليس باللغة العربية؟ اذ ذاك سيقولون بسهولة: نحن عربٌ ولا نفهم رسالتك فكيف نأتي بمثيل لها؟

---

١. يرى البعض ان كافة الكتب السماوية نزلت باللغة العربية وان الانبياء الذين لم تكن امهم ناطقة باللغة العربية ابلغوا الرسالات السماوية العربية بلغات اقوامهم.

اذن تحدي القرآن يقتضي ان تكون هذه الرسالة بلغة يدركها مخاطبوها الاولون، ليتسنّى لهم اختبار صدق أو عدم صدق ما يدعيه النبي ولتتضح الحقيقة امامهم.

وتشير الى هذه الحقيقة الآية الثانية من سورة يوسف والآية الثالثة من سورة الزخرف اللتان تريان الغاية من نزول القرآن باللغة العربية وهي التعقل وادراك هذا الكتاب من قبل المخاطبين، وتؤيد ذلك ايضاً الآيات الدالة على تيسير القرآن على لسان النبيﷺ وأخذ العبرة منها. كما ان التناسب بين نزول القرآن باللغة العربية وبين الانذار والتبشير والتقوى التي وردت في الآيات ١٩٥ من سورة الشعراء، ١١٣ من سورة طه، ٢٨ من سورة الزمر، ٧ من سورة الشورى، ١٢ من سورة الاحقاف، ٨٥ من سورة الدخان و٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠ من سورة القمر على انها الغاية من مثل هذا النزول يمكن تفسيرها بهذا الوجه، لان الشرط الاول في تأثير الانذار والتبشير وفي حصول التقوى لدى المخاطبين هو امكانية فهم الرسالة بالنسبة اليهم، وان مثل هذا الشرط انما يحصل بالنسبة لأوائل المخاطبين بالقرآن حينما ينزل القرآن بلغتهم أي باللغة العربية.[١]

بالرغم من ذلك، فان بعض الآيات الناظرة الى كون القرآن عربياً تشير الى امور وحِكَمٍ اخرى فيما يخص نزول القرآن باللغة العربية نوردها بايجاز:

أ ـ سدّ الطريق امام ذرائع المخالفين: اذ يقول تعالى في الآية ٤٤ من سورة فصّلت: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ

---

١. يرى المرحوم العلّامة الطباطبائيﷺ ان الآية ٣ من سورة فصّلت التي تقول: «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» ناظرة الى هذا الوجه ايضاً، وإن ذكر وجهاً آخر. يقولﷺ في ذيل الآية: ومفعول «يعلمون» إما محذوف والتقدير لقوم يعلمون معانيه لكونهم عارفين باللسان الذي نُزّل به وهم العرب، وإما متروك والمعنى لقوم لهم علم، ثم يواصلﷺ موضحاً الوجه الاول (حذف المفعول). نفس المصدر للطباطبائي: ج ١٧، ص ٣٥٩.

آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ»[١]

كما هو ملاحظ، فقد اعتُبر ـ في هذه الآية ـ السبب وراء عدم نزول القرآن بلغة غير اللغة العربية هو: في مثل هذه الحالة سيكون غموض الآيات وعدم فهمها ذريعة بيد المنحرفين بان يعتبروا غموضها وعدم وضوح المراد وعدم تناسب الكتاب مع المخاطبين سبباً في عدم قبولهم إياها، ويتخذونها احياناً دليلاً على عدم حقانيته. وذيل الآية الكريمة يشير الى ان: المخالفين وحيث نزل هذا الكتاب بلغتهم وبصيغة يسهل فهمها بالنسبة اليهم ومع ذلك فانهم لا يذعنون ايضاً لان في آذانهم وقراً، ولو انه لم يكن باللغة العربية لحصلوا على ذريعة وحجة، وان نزول القرآن باللغة العربية سلبهم هذه الذريعة والحجة، والآيتان ١٩٨ و١٩٩ من سورة الشعراء اللتان تقولان:

«وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ»

تشير الى هذا الأمر وهو: ان العرب ـ أو العرب الذين عاصروا نزول القرآن على اقل تقدير ـ لم يكونوا يتقبلون كلام الله ورسالته من شخص غير عربي، ولو ان القرآن كان قد نزل على شخص غير عربي لم يذعنوا لنبوته ولما استمعوا كلامه، والآية ٩٧ من سورة مريم التي تتحدث عن تيسير القرآن على لسان النبيﷺ لتبشير المتقين وانذار المعاندين، ربما تشير الى هذا الامر.

والفائدة الاخرى التي يجنيها القرآن من نزوله باللغة العربية هي ان كون القرآن عربياً يُبطل شبهة المخالفين القائلة بان النبيﷺ قد تعلَّم القرآن من شخص آخر وان هذا الكتاب ليس وحياً سماوياً، لأن لغة الذي ينسبون اليه القرآن اعجمية، في حين ان لغة القرآن عربية مبينة، وعلى افتراض ان مضامينه قد أُخذت من شخص آخر غير

---

١. هنالك اقوال مختلفة حول هذه الآية واكثر الوجوه تناسباً البيان الوارد في النص. للمزيد من الاطلاع في هذا المجال، راجع المصدر المتقدم لشهاب الدين محمود الآلوسي: ج ٢٤، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

ان امكانية صدور الفاظه عن انسان اعجمي في حكم المنتفية، وقد ورد هذا الأمر في الآية ١٠٣ من سورة النحل حيث تقول:

«وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ».

والمحصّلة النهائية لهذا البحث هي ان نزول القرآن باللغة العربية أمر طبيعي وتتضاعف ضرورته في ضوء تحدي القرآن، وان نزول القرآن بلغة غير العربية أو على شخص غير عربي يسبب الابهام واختلاق الحجج والذرائع وعدم القبول به.

انواع النزول

وضعت مفردة النزول ـ بالاصل ـ التي تنطوي على مفهوم الهبوط، لتفيد هبوط شيء مادي من مكان الى آخر، وبهذا المعنى استخدمت في بعض آيات القرآن الكريم.[١]

وهذه المفردة كغيرها من المفردات الكثيرة شهدت توسعاً فيما بعد فاستخدمت في النزول الاعتباري والحقيقي أو المعنوي.

فالمراد من النزول الاعتباري هو تنزل موجود في عالم الاعتبار من درجة عليا الى درجة ادنى، وبعبارة اخرى انه ينتقل من منزلة ومرتبة اعتبارية ارفع الى منزلة ومرتبة اعتبارية ادنى، كذاك الذي يفقد منصب الملكية ويهبط الى منصب اعتباري واطئ فيقال «نزل الملك عن عرشه». ولم تستخدم مادة نزول في القرآن الكريم بهذا المعنى.

والمراد من النزول المعنوي هو ان موجوداً يتنزل من حيث المرتبة الوجودية ويوضع في مرتبة وجودية ادنى، وفي هذا النوع من النزول يتنزل الموجود من حيث

---

١. من قبيل الآية الكريمة «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ» النور / ٤٣.

حقيقة الوجود الى مرتبة ادنى، بالرغم من عدم هبوطه الى مكان ادنى من الناحية المكانية ولم ينقص من منزلته.

والمراد من نزول القرآن هو القسم الاخير، فلا معنى للتنزل المكاني في نزول القرآن، لان المنزِّل هو الله والمنزَّل مرتبة من العلم الالهي وهو «القرآن»، وواسطة النزول هي الملك أو ملائكة الوحي، والمنزَّل عليه هو القلب المقدس للنبيﷺ وليس أيٌّ منها ماديّاً.

كما ان النزول الاعتباري لا معنى له فيما يتعلق بالقرآن، لان الله لا يريد القول في آيات النزول اننا انقصنا من قدر القرآن ومنزلته. كما ان الاهداف المذكورة في الآيات لنزول القرآن لا شأن لها باي حال بالنزول الاعتباري.

ان نزول القرآن الكريم يعني: ان لهذا الكتاب وجوداً حقيقياً آخر في غاية الرفعة ويمثل مرتبة من العلم الالهي، ولغرض ان يضع الله تعالى هذه الحقيقة في متناول الانسان ويسهل فهمها عليه فقد انزلها عدة مراحل في مراتب الوجود حتى تجلت في آخر المطاف على هيئة الفاظ وعبارات، أي في مرتبة متواضعة وضعيفة جداً عن مرتبة «عند الله»، وبعبارة اخرى كما ورد في الروايات: القرآن هو تجلي الذات والصفات الالهية في قالب الالفاظ والعبارات (المرتبة الدنيا من الوجود).[1]

وقت النزول ودفعاته

يستفاد من الآية الكريمة

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقَانِ» البقرة ١٨٥، ان القرآن الكريم أُنزل في شهر رمضان المبارك.

---

١. «فتجلى سبحانه لهم في كتابه من غير ان يكونوا رأوه»، نهج البلاغة، الشريف محمد الرضي الموسوي: الخطبة ١٤٧.

يقول تعالى في الآية الثالثة من سورة الدخان:

«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ»

وفيها دلالة على نزول القرآن في ليلة مباركة، وفي ضوء الآية السابقة يتضح انها احدى ليالي شهر رمضان المبارك.

ويتضح من اول آية في سورة القدر التي تقول «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» ان وقت نزول القرآن هي ليلة القدر. بناءً على هذا يستفاد من هذه الآيات الثلاث ان في شهر رمضان المبارك ليلة مباركة سميت ليلة القدر وفيها نزل القرآن الكريم.

ومن ناحية اخرى، بالاضافة الى ان النزول التدريجي للقرآن على مدى ٢٣ عاماً من البعثة وحتى رحيل رسول الله ﷺ يعدّ من المسلّمات التاريخية والروائية، فان آيات القرآن تشهد على النزول التدريجي ايضاً؛ مضمون الكثير من الآيات يشير الى وقائع مختلفة وقعت على امتداد مرحلة النبوة، وجاء منطوق الآيات بنحو يفيد تزامن نزولها مع الوقائع المشار اليها تقريباً من قبيل الآيات الكريمة:

«غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ» الروم / ٢ ـ ٤.

«وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» آل عمران / ١٢٣.

و«الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً» الانفال / ٦٦.

وهنالك طائفة اخرى من الآيات تدل على نزول مقاطع معينة من القرآن الكريم في ظروف واوقات معينة من قبيل:

«سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» النور / ١.

«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ» محمد / ٢٠

«وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» التوبة / ١٢٧.

وورد الحديث ايضاً في آيتين اخريين وبشكل صريح عن تدرّج نزول الآيات، فيقول في الآية الثالثة والثلاثين من سورة الفرقان:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً».

ويقول في الآية ١٠٦ من سورة الاسراء:

«وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً».

قدّم المفسرون آراءً عديدة ومختلفة للجمع بين هاتين الطائفتين من الآيات. فبما ان النزول التدريجي للقرآن مسلَّم به ـ وهو كذلك ـ لدى المعتقدين بالاقوال الآنفة الذكر، فقد احتفظوا بظاهر الآيات الدالة على النزول التدريجي فيما يخص وجه الجمع لديهم، وانبروا لتبرير الآيات الدالة على النزول الدفعي، وهنالك عدد قليل فقط ممن احتفظوا بظهور كلتا الطائفتين استلهاماً من الروايات. ويمكن تقسيم اصحاب الاقوال المتقدمة الى اربع فئات هي:

١ـ فئة تقول بان الآيات الدالة على النزول الدفعي ناظرة الى جانب من القرآن، فبعض يخص سورة الفاتحة وبعض يخص الآيات الاولى التي نزلت وبعض آخر ينظر الى اغلب[١] آيات القرآن.[٢]

---

١. الذين يقصدون اغلب آيات القرآن يرون ان المراد من شهر رمضان وليلة القدر اشهر رمضان وليالي القدر على امتداد ٢٣ عاماً من النبوة.

٢. راجع: الميزان للطباطبائي: ج ٢، ص ١٩ ـ ٢٣، في ظلال القرآن لسيد قطب: ج ١، ص ١٧١، الطبعة العاشرة، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٢ هـ، نفس المصدر لرشيد رضا: ج ٢، ص ١٦١، نفس المصدر لفخر الدين الرازي: ج ٥، ص ٨٥ وج ٣٢، ص ٢٧، مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسي: ج ١، ص ٢٧٦ وج ١٠ ص ٥١٨، الطبعة الاولى، المكتبة العلمية الاسلامية ـ طهران، ١٣٧٩، والتفسير المنير لوهبة الزحيلي: ج ٣٠، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤، الطبعة الاولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١١ هـ.

ان هذه النظرية بالاضافة الى الانتقادات الواردة على كلٍّ من الاقوال المدرجة فيها،[١] هي في مجموعها تتنافى مع ظاهر الآيات الكريمة ـ وبالذات الآية ١٨٥ من سورة البقرة ـ التي تنطوي على ظهور في النزول الدفعي لكل القرآن وليس النزول الدفعي متعلقاً بقسم خاص منه، اضف الى ذلك عدم توفر اي دليل معتبر يدل على ان الآيات المتقدمة نزلت على وجه الخصوص في شهر رمضان، كما ان الاحاديث الشريفة لا تنسجم مع هذا القول بل تشهد بما يخالفه.

٢ـ ادَّعت فئة اخرى ان المراد من الآيات الدالة على النزول الدفعي هو نزول القرآن أو سورتي الدخان والقدر بشأن فضيلة شهر رمضان أو ليلة القدر أو بشأن وجوب صيام شهر رمضان ولا تتحدث عن زمان النزول كي تتناقض مع الآيات الدالة على النزول التدريجي.[٢]

يبدو ان هذه النظرية ليست صحيحة ايضاً ففي مثل هذه الحالة يجب ان يكون جانبٌ مهم من آيات القرآن متعلقاً بخصوص فضيلة شهر رمضان ليتسنى القول: ان القرآن نزل بشأن فضيلة شهر رمضان، بالاضافة الى ان مثل هذا الاستنتاج ينافي ظاهر الآية ونحن لا نملك دليلاً على التخلي عن ظاهر الآية، كما ان الروايات تدل على خلاف ذلك.[٣]

٣ـ النظرية الثالثة التي جاءت استلهاماً من الروايات وعلى وجه الخصوص من قِبل مفسري صدر الاسلام وهي: للقرآن نزولان: دفعي من الذات الالهية المقدسة أو

---

١. من قبيل ان اول الآيات التي نزلت طبقاً لما يرويه الشيعة والسنة تزامنت مع البعثة، والبعثة طبقاً لروايات الشيعة كانت في ٢٧ رجب وطبقاً لروايات السنة في ١٢ رجب وليس في شهر رمضان، كما انه لو كان المراد ليالي القدر لكان عليه ان يقول: إنا انزلناه في ليالٍ مباركة.

٢. راجع نفس المصدر: ج ٥، ص ١٨٥ وج ٣٢، ص ٢٨، انوار التنزيل واسرار التأويل لناصر الدين البيضاوي: ج ٢، ص ٦١١، الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨ هـ.

٣. راجع: نفس المصدر للحويزي: ج ٤، ص ٦٢٠ وج ٥ ص ٦٢٤ ـ ٦٢٥.

من اللوح المحفوظ عن طريق جبرئيل على السفرة الكرام البررة أو في ليلة القدر وفي البيت المعمور حيث السماء الدنيا، ونزول تدريجي من البيت المعمور والسفراء الالهيين على النبي الاكرمﷺ على امتداد ٢٣ عاماً من النبوة. وهي تقصد النزول الاول.

٤ـ قال العلّامة الطباطبائيؒ بكلا النزولين مستنداً الى آيات اخرى وكما يلي: ان القرآن له وجودان: وجود بسيط ليس فيه تكثر ولا اجزاء ولا فصول ـ آيات وسور وكلمات ـ وهو في اللوح المحفوظ وقد نزل على قلب رسول اللهﷺ دفعة واحدة. ووجود مفصّل وله اجزاء وقد نزل بصورة تدريجية على قلبهﷺ في مدة الدعوة النبوية خلال ثلاثة وعشرين عاماً. فالآيات الدالة على النزول الدفعي تريد نزول الوجود الاول، أما آيات النزول التدريجي فهي تقصد نزول الوجود الثاني المفصّل.

ويُثبتؒ النظرية اعلاه مستنداً الى آيات كثيرة منها الآيات الدالة على وجود تأويل للقرآن ووجود القرآن في اللوح المحفوظ وتضمُّنه للإحكام قبل تفصيله، ونهي النبي عن قراءته قبل ان يُقضى اليه وحيُه من قبل جبرئيل.[١]

وبغض النظر عن بعض التفاصيل الواردة في القولين الاخيرين بالامكان اعتبار كلتا النظريتين تكمل إحداهما الاخرى، وان اختلافهما وتناقضهما الظاهري مما يمكن تبريره وتوجيهه.

على سبيل المثال: بالرغم من عدم الحديث في النظرية الاولى ـ المنبثقة عن الروايات ـ عن الوجود البسيط للقرآن في النزول الدفعي بيد ان هذا الأمر لم يتم نفيه، بل ربما يكون المراد من عبارة «جملة واحدة»[٢] تلك الحقيقة البسيطة.

كما انه بالرغم من نص الروايات على ان النزول الدفعي الى البيت المعمور ويراه

---

١. راجع: نفس المصدر للطباطبائي: ج ٢، ص ١٦ ـ ١٨.

٢. راجع: البرهان في تفسير القرآن لهاشم البحراني: ج ١، ص ١٨٢، الطبعة الثالثة، مؤسسة اسماعيليان للمطبوعات، قم، ١٣٧٥ هـ.ش، وتفسير الصافي للفيض الكاشاني: ج ١، ص ٦٤ ـ ٦٥، الطبعة الثانية، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٤٠٩ هـ.

المرحوم العلّامة الطباطبائي نزولاً على قلب رسول الله ﷺ يمكن القول ان البيت المعمور مرتبة من الوجود، وقد تلقى النبي ﷺ حقيقة القرآن البسيطة من خلال الاطلاع والعروج اليها، فاستناداً لظاهر الآية «لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ»، «المطهرون» انما ينالون حقيقة القرآن في اللوح المحفوظ أو في مرتبة اخرى من عوالم الوجود ويمسّونها، وربما يكون المراد من البيت المعمور قلب رسول الله ﷺ والمراد من النزول التدريجي سريان وترشح حقيقة القرآن البسيطة من قلبه ﷺ الى لسانه.[1]

ان آيات من قبيل:

«فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» الدخان / ٤

الواردة بشأن ليلة القدر، على افتراض دلالتها على ان ليلة القدر ليلة تكثُّر وتعيين للاقدار، فهي لا تتنافى مع نزول الحقيقة البسيطة للقرآن في تلك الليلة، فبهذا النزول البسيط والدفعي تحصل ممهدات التفريق والتفصيل أولاً؛ وبما ان هذه الحقيقة البسيطة هي عين الحقيقة المفصّلة وبعبارة اخرى مصداق للاجمال في عين الكشف التفصيلي الوارد في الفلسفة، فلا يبقى أيُّ إشكال.

على أية حال، سواءً رأينا ان هاتين النظريتين تعودان لنظرية واحدة، أو ان الفارق في الخصوصيات سبب في ان تصبحا نظريتين مستقلتين، فان كلتيهما تقبلان تعدد النزول ـ النزول التدريجي والنزول الدفعي ـ بالنسبة لكل القرآن، وقد روعي فيهما المحافظة على ظاهر كلتا الطائفتين من الآيات ذات الصلة بهذا البحث، وهذا الأمر يعد دليلاً على رجحان هاتين النظريتين بل صحتهما في بيانهما الكلي.

السرُّ في النزول التدريجي

لقد تحدَّث القرآن الكريم في موضعين عن السرّ في النزول التدريجي أو بتعبير أدقَّ: تدريجية نزول القرآن، ويتطرق أحد هذين الموردين الى الدور الذي يؤديه النزول

---

١. راجع: نفس المصدر للفيض الكاشاني: ج ١، ص ٦٥.

التدريجي فيما يتعلّق بالناس، وفي المورد الثاني الى النزول التدريجي فيما يتعلّق بالنبي، والآية الاولى هي:

«وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً» الاسراء / ١٠٦[١]

وفيها اعتُبرت قراءة القرآن على الناس بطريقة متأنّية غايةً من النزول التدريجي للقرآن. فني هذه الآية الكريمة يقول تعالى: لقد جزأنا القرآن جزءاً جزءاً أو انزلناه جزءاً جزءاً كي تقرأه على الناس بتؤدة، وقد انزلناه بنحو خاصٍ. ومن الواضح ان مجرد قراءة الآيات على الناس بتؤدة لا يمكنه ان يكون غاية جوهرية والسرّ النهائي في نزول القرآن تدريجياً، بل ان النتائج المترتبة على مثل هذه القراءة هي الهدف الحقيقي للنزول التدريجي، من هنا ثمة ضرورة لبيان الآثار المترتبة بوضوح على مثل هذه القراءة أو ما يُصطلح عليه بـ«اللوازم البيّنة» لها.[٢]

---

١. وردت اقوال مختلفة في المقصود من عبارة «وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ» هي كما يلي:

ألف: المراد تجزئة القرآن جزءاً جزءاً أو نزوله تدريجياً.

ب ـ المراد بيان الحلال والحرام في القرآن.

ج ـ المراد تنوّع الآيات من حيث الأمر والنهي، والمواعظ، والامثال، والقصص، والاخبار وما شابه ذلك.

د ـ المراد التمييز بين الحق والباطل أو بين الحلال والحرام والتفريق بينها في هذا الكتاب.

هـ ـ المراد توضيح وبيان معارفه.

و ـ المراد هو الاحكام وتفصيل الآيات من قبيل «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» الدخان / ٤.

راجع نفس المصدر للآلوسي: ج ١٥، ص ١٨٨، ونفس المصدر للطوسي: ج ٦، ص ٥٣٠. وقد رأى اكثر المفسرين صحة المعنى الاول بالحق، وان سائر الاقوال تخالف ظاهر هذه العبارة والعبارات المكمّلة للآية الشريفة.

٢. يظهر من خلال التمعن في هذه الآية الكريمة انها تتحدث عن تحقق أمرين يمهدان لامكانية فهم القرآن والانتفاع به من قبل الناس وللتوضيح نقول: بما ان حقيقة القرآن تمثل مرتبة من العلم الالهي وتتمتع بنوعٍ من السمو في مراتب الوجود وبنوعٍ من الإحكام، وكما يعبر المرحوم العلّامة بـ«نوع من البساطة»، من هنا فان هذه الحقيقة القيّمة لا يمكن للبشر الانتفاع منها بشكل تام لسببين هما: سموها من ناحية حيث تمثل مرتبة من العلم الالهي وهي ارفع من عالم الدنيا بكثير بحيث يجعلها بعيدة عن متناول البشر الذين يعيشون في عالم الدنيا وفي مرتبة متدنية من عالم الوجود، والمتسامون جداً من البشر وحدهم من قبيل النبي الاكرم ﷺ والمطهرون هم القادرون فقط على مسّ تلك الحقيقة «فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ» الواقعة ٧٨ ـ ٧٩.

ان المراد من القراءة على مكث هو ما جرى على امتداد تاريخ الاسلام والقرآن، أي قراءة الآيات بُعيد نزولها التدريجي على امتداد ثلاث وعشرين سنة بدءاً من البعثة وحتى رحيل الرسول الاكرمﷺ، والّا فلا خصوصية لمجرد القراءة على الناس دفعة واحدة وبعد نزول الآيات والسور حتى وإن كانت مقرونة بالتأمل والروية في غضون عدة ساعات أو عدة أيام، كي يشير اليها القرآن لاهميتها ويتحدث عنها ويركز عليها بوصفها السرّ في تفصيل القرآن أو نزوله التدريجي. ناهيك عن ان مثل هذا الأمر لم يقع في تاريخ القرآن والنبيﷺ بدليل عدم وجود آية أو رواية أو نقل تاريخي معتبر يدل على هذا الموضوع، بالرغم من انه كان ينبغي ملاحظته بصورة بارزة في الاحاديث والروايات لاهمية الموضوع.

بناءً على هذا، فالآية الكريمة تذكّر بان تفصيل القرآن ونزوله سوراً وآيات كان لكي تُقرأ الآيات في مقاطع زمنية مختلفة وبما يتناسب مع الظروف الفردية والاجتماعية والوقائع التاريخية والرد على شبهات واستفسارات المخالفين والموافقين.

ومن ناحية اخرى ان بساطتها وإحكامها يستدعي نزولها دفعةً إن هي نزلت، وفي مثل هذه يبلغ انتفاع البشر منها ادنى مستوياته، لانها ببساطتها مما يتعذر فهمها على البشر، وكذلك لانعدام امكانية قراءتها على مكث وعلى فترات مناسبة ليدركها البشر تدريجياً ويهضموها ويتمثّلوها ويعملوا بها، ويمكن القول ان الآية الكريمة «وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» الزخرف / ٤، تشير الى هذه الحقيقة، وعلى هذا الاساس يتعين من ناحية جعل القرآن البسيط الحكيم مفرّقاً ومفصلاً وذا مقاطع واجزاء لتتوفر امكانية تلاوته بتؤدةٍ وادراكه وفهمه والتمعن فيه، ومن ناحية اخرى، ان يتنزل في مراتب الوجود نزولاً بعد نزول حتى يصل الى مرحلة متدنية من الوجود وعلى هيئة الفاظ وعبارات يسهل على الانسان فهمها كي تصبح في متناول البشر وفهمهم.

والآية الكريمة تشير بظرافة خاصة الى هذين الامرين، ففي مطلعها تقول: لقد فصّلنا القرآن وجعلناه في هيئة اجزاء وسور وآيات كي تقرأه على الناس بتريثٍ، أي لو لم نفعل ذلك لما امكن القراءة بتريث على الناس، ثم تقول: وانزلناه مراتب عديدة وبنحو خاص، وهذا الأمر قد جرى بيانه بايجاز تام في آيات اخرى من قبيل: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» الزخرف / ٣، أو «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» يوسف / ٢، أو «وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» يونس / ٣٧، أو «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» هود / ١.

وينبغي ان تحظى هذه الملاحظة باهتمام اكيد وهي ان قراءة الآيات تعني احداث تغيير باطني وظاهري، اجتماعي وفردي، وهو ليس أمراً آنياً ودفعياً كي يحصل في ليلة واحدة ودفعة واحدة، بل يحتاج إلى فرصة مناسبة لسيره التدريجيّ.

والأمر الجدير بالاهتمام هو ان معارف القرآن ـ كما جرت الاشارة الى ذلك في الآيات وصرحت به الروايات ـ لها درجات ومراتب، وان فهم بعض هذه الدرجات والانتفاع بها وكذلك جانبٍ من المعارف الواردة في بعض الآيات منوط بفهم البعض الآخر وتقبّله والعمل به، وان مخاطبي القرآن ينالون من فهم الآيات وينتفعون بها بما يتناسب مع مرتبة التكامل التي يبلغونها عن طريق العمل بمعارف القرآن.

في ضوء الملاحظات الثلاث الآنفة الذكر فان من اللوازم غير المنفكّة لقراءة الآيات على مكث بالمفهوم المتقدم هو: بما ان قراءة الآيات على الناس تأتي تدريجياً وعلى مر الزمان فان فهم معارف القرآن وتقبّل الناس لثقافة القرآن وتأثيره على الناس في الابعاد الفكرية والروحية والعملية سيحصل بشكل مطرد وعلى احسن وجه، ويتحقق بنحو جيد التأثير الثقافي لهذه الرؤى والاحكام وتتعمق وتتجذر داخل المجتمع.

ان اقتران قراءة الآيات بالظروف الزمانية والمكانية والوقائع الاجتماعية والفردية بما يتناسب مع مضمون الآيات النازلة، يضاعف من فهم الآيات على نحو افضل وتأثيرها على اكمل وجه. ومن ناحية ثالثة، في ضوء النقاء والطهارة الروحية والتكامل النفسي الحاصل من خلال العمل ببعض تعاليم القرآن واحكامه وفهم وتقبّل بعض معارفه، يتبلور الاستعداد الضروري لتقبّل التعاليم اللاحقة التي هي اكثر ثقلاً وتحتاج الى المزيد من الايثار وبذل الجهود، والعمل بها، وكذا الاستعداد الضروري لتلقي وادراك المعارف الاكثر سمواً الواردة في الآيات اللاحقة.[1]

---

١. في الآيات ١ ـ ٥ من سورة المزمّل يخاطب تعالى نبيه قائلا: «يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً»، وفي هذه الآيات اعتُبر

وبعبارة اخرى: ان قراءة الآيات بتريث يمهد ـ من ناحية ـ لفهم وتلقي معارف القرآن بصورة جيدة، ومن ناحية اخرى تتحقق مقومات المزيد من التسليم أمام الخطاب القرآني والعمل بالتعاليم الجديدة من خلال الاستتباب التدريجي للظروف الداخلية والخارجية مع مرور الزمان. والى جانب ذلك فان العمل بالتعاليم ورسوخ الاعتقاد بالمعارف النازلة يمهد الظروف الملائمة والاستعدادات الضرورية لتلقي المعارف الارفع منزلة والتسليم والعمل بالتعاليم والاحكام الأشد وطأة، بل يجعل الفهم السابق للآيات المذكورة اكثر دقة وعطاءً وتكاملاً. وبعبارة واحدة ان قراءة الآيات بتؤدة يوفر الظروف الضرورية والكفيلة لتحقيق اهداف نزول القرآن، أي الفهم الافضل للمعارف، والايمان الاكمل والعمل الاحسن بتعاليم القرآن الكريم.

ان القاء نظرة على آداب تلاوة القرآن الواردة في الآيات والروايات تؤكد بوضوح ان توفير هذه المقدمات يأتي من اجل تحقيق مثل هذا الهدف، فعلى سبيل المثال ان الترتيل الذي يتبعه الله سبحانه وتعالى أو ملك الوحي اثناء نزول الآيات على النبي «وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً» الفرقان / ٣٢، وكذا الرسول الاكرم مكلّفٌ بان يتبعه لدى تلاوة القرآن «وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً» المزمّل / ٤، ويراعيه المؤمنون كذلك كأحد آداب تلاوة الآيات:

«أما الليل فصافّون أقدامهم تالين لاجزاء القرآن يرتّلونه ترتيلا»[1]

يستتبع مثل هذه النتيجة.

الموضع الثاني الذي تطرق فيه القرآن لبيان السرّ في النزول التدريجي بصراحة هو الآيات ٣٢ ـ ٣٣ من سورة الفرقان، ففي هاتين الآيتين ـ وخلافاً للآية الاولى التي اشارت الى آثار النزول التدريجي بالنسبة للناس ـ يتركّز الكلام على آثار النزول

احياء الليل وترتيل الآيات تمهداً أو شرطاً ضرورياً لتلقي وتحمل القول الثقيل ـ أي الآيات التي تنزل فيما بعد وتتضمن مفاهيم أو مقررات ثقيلة الوزن.

١. نفس المصدر للشريف الرضي: الخطبة ١٩٢.

التدريجي بالنسبة للنبيﷺ. وبطبيعة الحال فان سرّ النزول التدريجي بالنسبة للنبيﷺ لا ينفك ـ وفق رؤية اخرى ـ عن النزول التدريجي للقرآن بالنسبة للناس، بل هو بحد ذاته يفصح عن سرٍّ آخر للنزول التدريجي بالنسبة للناس.[1]

في هذه الآيات يورد سبحانه وتعالى في بادئ الأمر شبهة الكفار في انه لماذا لم ينزل القرآن على النبيﷺ دفعة واحدة، ثم يردّ عليها في ثلاث عبارات هي:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً»

في العبارة الاولى يصرح تعالى: اننا لم ننزل القرآن دفعة وجملة واحدة بل انزلناه تدريجياً لنثبت به فؤادك ـ يا رسولنا ـ من خلال النزول التدريجي، وتثبيت فؤاد النبي الذي ورد في هذه الآية بوصفه اثراً لتدريجية نزول القرآن، ورد في الآية:

«كُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» هود / ١٢٠

بوصفه الغاية والسرّ في سرد قصص الانبياءعليهم السلام على نبي الاسلامﷺ.

والتثبيت يعني ترسيخ وترصين ارضية وظروف الثبات لشيء أو شخص، وان التثبيت وانزال السكينة والربط على القلب المستخدمة في آيات القرآن هي مفاهيم مقاربة له ويقابلها التزلزل والاضطراب.

والمراد من تثبيت فؤاد النبيﷺ هو تقويته وتماسكه الروحي للحيلولة دون وقوع

---

١. بما يعني اولاً: ان هذه الآثار يمكن ان تسري الى الناس وان كان حصولها بمرتبتها العليا يكون للنبيﷺ. ثانياً: ان النبيﷺ لمّا كان قائداً للمجتمع الاسلامي ورسول الله الى الناس. فان أية منفعة تتحقق له فيما يتعلق بقيادة المجتمع على صعيد الحياة في هذا العالم، فهي منفعة تتحقق للناس وللمجتمع الاسلامي. فهوﷺ يعتبر رمزاً وممثلاً للمجتمع الاسلامي في هذا المجال وان انتصاره أو هزيمته وسكينته أو اضطرابه وسائر الامور المشابهة لها، بمثابة انتصار أو هزيمة وسكينة أو اضطراب الناس، أو ان انتصار أو هزيمة وسكينة أو اضطراب ابناء المجتمع الاسلامي رهنٌ بانتصارهﷺ أو هزيمته وسكينته أو اضطرابه على اقل تقدير.

خلل في انجاز مهام الرسالة وتحمل المصاعب المضنية، وليبلغ بالرسالة الالهية غايتها بكل اقتدار. وان ايراد ضجر النبيﷺ وضيقه بالاتهامات الباطلة، والطلبات غير المعقولة للمخالفين، وحالات التذرع غير المبررة، وشبهات الكفار التي لا اساس لها فيما يخص الرسالة والتي وردت في مستهل سورة هود، ثمّ ذكر قصص الانبياء على امتداد السورة واختتام تلك القصص بالآية المتقدمة (هود / ١٢٠)، لشاهد جليّ على التفسير والبيان اعلاه لتثبيت الفؤاد.

من الواضح العلاقة بين ذكر قصص الانبياء السابقين وتثبيت الفؤاد بالمعنى المتقدم، اما علاقة النزول التدريجي بتثبيت الفؤاد فهي لأن النزول التدريجي يؤدي الى دوام الارتباط والتواصل بين من بيده الأمر وبين من يعلن عنه وينفذه، وهو اساس الارتباط المتواصل بأعلى مصاديق الارتباط وهو الوحي من ناحية؛ وبيان حكم الموضوعات والرد على الشبهات وايضاح الحقائق التي يدور حولها الاستفسار او الاختلاف في الوقت المناسب حيث تُستشعر الحاجة المبرمة لذلك من ناحية اخرى، والتركيز على حقانية الدعوة والرسالة والتأكيد على وجود النصرة والمؤازرة والتذكير بوجود المؤازر القوي، انما هو أقوى مؤازر، بما يوفر افضل واقوى قاعدة للثبات على منهج الحق وتحمّل الصعاب وتذليلها والثبات على الدين والتمسك به، ويزيل اسباب كل أشكال التزلزل والخلل، وتشابه هذه الآية وبنفس هذا البيان، الآية الكريمة:

«وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً» الاسراء / ٧٤

التي تشير الى تثبيت النبيﷺ ازاء مؤامرات الكفار والمصاعب التي يثيرونها والشدائد المرهقة التي ربما تكون سبباً في التعويل على الكفار.

وجاء هذا التثبيت بالنسبة للمؤمنين في الآية ١٠٣ من سورة النحل كأثرٍ لنزول الآيات وعلى وجه الخصوص استبدال آية بآية اخرى، ففي هذه الآية وبعد ايراد قضية استبدال آية بأخرى وذكر الافتراء على النبي من قبل المشركين يقول تعالى:

«قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ».

وقد ذُكر التثبيت في هاتين الآيتين مطلقاً وبحذف متعلقه ولعله يشمل تثبيت القلوب وتثبيت الاقدام. والجدير بالذكر ان تثبيت النفس والروح يستلزم تثبيت الاقدام في مرحلة العمل لاسيما في ساحة الجهاد سواء جهاد النفس أو جهاد العدوّ.

والتوضيح الآخر لتثبيت الفؤاد الذي قدّمه بعض المختصين بعلوم القرآن والمفسرين عبارة عن: تثبيت المعارف القرآنية في قلب رسول الله ﷺ، وقد عمّمه بعض المفسرين الى تثبيتها في قلوب المؤمنين أيضاً، الّا ان هذا البيان لا ينسجم كثيراً مع ظاهر الآية والتعبير بـ«نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ» إلّا أن يعاد الى الوجه السابق بان يثبت قلب النبي ﷺ بالقاء معارف القرآن في قلبه في الوقت المناسب وبشكل كامل وصحيح وملائم لكي تكون لديه قابلية تحمل تلك المصاعب ويبقى ثابتاً راسخاً في مواصلته للطريق.

وبتعبير آخر ان تثبيت القلب غالباً ما يحصل عن طريق استيعاب معارف أكثر في الوقت المناسب، وان العبارة الثانية «وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً» تشير الى أمرين اولهما: ان آيات القرآن بالاضافة الى نزولها التدريجي فهي تقرأ على مكث وبرويّة من اجل هذا الأمر ـ تثبيت الفؤاد ـ كي يحصل تثبيت الفؤاد على افضل وجه. والثاني هو: بالرغم من التفرق الذي يطرأ بين الآيات نتيجة النزول التدريجي فان الترابط بين الآيات مع بعضها يبقى محفوظاً ولا ينقطع.[1] ويستفاد هذان الامران من المفهوم اللغوي للترتيل الذي يعني القراءة المتتابعة المقرونة في نفس الوقت بالتريث والبطء، وبيانه بصيغة المفعول المطلق.[2]

وتتحدث العبارة الثالثة عن اثرٍ آخر يترتب على النزول التدريجي للقرآن وهو ان احداثاً وقضايا مختلفة تقع على طول فترة الدعوة فتثار حولها احاديث وتصورات

---

١. راجع الميزان للطباطبائي: ج ١٥، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

٢. راجع كتب اللغة والتفسير ومنها: نفس المصدر للطبرسي: ج ٧، ص ١٦٩ وج ١٠، ص ٣٣٦، ونفس المصدر للرازي: ج ٣، ص ١٧٣ وج ٢٤، ص ٧٩.

معينة من قبل المخالفين، وان الله عز وجل من خلال الانزال التدريجي للقرآن في ظل هذه الظروف يوضح حقيقة الأمر في القضية ويزيح الستار عن القضية المطروحة وتصور المخالفين على احسن وجه ايضاً؛ وبهذا الاسلوب يتحقق بيان الحقيقة وازاحة النقاب عن القضية في الوقت المناسب وعلى افضل وجه.

وربما يكون تغيير لهجة الآية الكريمة في آخرها للاشارة الى امكانية تحقق الأمر الاخير في حالة النزول الدفعي ايضاً، لكنه يحصل بشكل افضل واكثر تأثيراً في النزول التدريجي.

ما تقدم ذكره كان ملاحظات تستفاد في ضوء مضامين القرآن بهذا الشأن، بيد ان المختصين بعلوم القرآن والمفسرين قدموا ملاحظات اخرى يمكن تقسيمها الى اربعة اقسام وكما يلي:

١ـ اثبات اعجاز القرآن.[١]

٢ـ تضمن القرآن اموراً يتعذر القاؤها بشكل دفعي.[٢]

---

١. هنالك اربعة آراء في هذا القسم هي: أـ في النزول التدريجي، كلما نزلت طائفة من الآيات يجري التحدّي بها فيتكرر اعجاز القرآن. بـ عندما يحصل الاعجاز في الاجزاء يثبت الاعجاز في الكل بطريق اولى. جـ اذا كانت الآيات متناسقة وهي متفرقة في نزولها يثبت الاعجاز بعدم اختلافها. دـ ان انضمام القرائن الحالية الى القرائن اللفظية يضمن الاعجاز في فصاحة القرآن وبلاغته ويقوّيه.

راجع: نفس المصدر للآلوسي: ج ١٩، ص ١٥، كنز الدقائق وبحر الغرائب لمحمد القمي المشهدي: ج ٩، ص ٣٩٣، الطبعة الاولى، مؤسسة الطبع والنشر، طهران، ١٤٠٩. نفس المصدر لناصر الدين عبدالله البيضاوي: ج ٢، ص ٩٣ ـ ٩٤، غرائب القرآن لنظام الدين حسن القمي النيشابوري: ج ١٩، ص ١٢، المطبوع في حاشية جامع البيان للطبري، الطبعة الاولى، دار المعرفة ـ بيروت، ١٤٠٣، ونفس المصدر لفخر الدين محمد الرازي: ج ٢٤، ص ٧٩.

٢. طرح القائلون بهذا الرأي تضمن القرآن للناسخ والمنسوخ، والاجابة على الاستفسارات التي اثيرت خلال فترة البعثة واتخاذ الموقف سلباً أو ايجاباً ازاء الاحداث والوقائع التي وقعت، واثارة الانتباه نحو موضوع أو قضية معينة يلزم التنبه اليها في ظل ظروف زمانية أو مكانية معينة وما شابه ذلك.

راجع: معالم التنزيل للفرّاء البغوي: ج ٣، ص ٣٦٨، الطبعة الثانية، دار المعرفة ـ بيروت، ١٤٠٧، روح البيان

٣ـ حفظ آيات القرآن بشكل أدق.[١]

٤ـ تثبيت فؤاد النبي نتيجة لتوالي نزول ملك الوحي، وعدم الاعتماد على الكتابة وتحاشي التساهل والمسامحة في تعلّم الموضوعات وتثبيت تجديد مقام الوساطة لجبرئيل.[٢]

الوجوه المتقدمة انما تحظى بالقبول ان كانت منسجمة مع الايضاحات الواردة في

لاسماعيل حقي بروسوي: ج ٦، ص ٢٠٩، الطبعة السابعة، دار احياء التراث العربي ـ بيروت، ١٤٠٥، نفس المصدر للقمي النيشابوري، ونفس المصدر للقمي المشهدي، ونفس المصدر للطبرسي: ج ٤، ص ١٦٩؛ نفس المصدر للبيضاوي، نفس المصدر للرازي، والجامع لاحكام القرآن لابي عبدالله محمد الانصاري القرطبي: ج ١٣، ص ٢٨ ـ ٢٩، الطبعة الثانية، دار احياء التراث العربي ـ بيروت، ١٩٦٧.

١. فيما يخص حفظ القرآن فان الناس ـ في النزول التدريجي ـ يحفظون القرآن في صدورهم على نحو احسن، أو بما ان النبي ﷺ اميٌ فلا يتيسر له الحفظ والكتابة في النزول الدفعي وبهذا ربما تضيع مقاطع كثيرة من القرآن، أما في النزول التدريجي فتتيسر الكتابة والحفظ ويصان القرآن بشكل تام عن النقصان وسائر انواع التحريف اللفظي.

راجع: نفس المصدر لسيد قطب: ص ٢٢٥٣ و٢٥٦٢، نفس المصدر للانصاري القرطبي، نفس المصدر للآلوسي: ج ١٥، ص ١٨٨، نفس المصدر للرازي: ج ٢١، ص ٦٨، نفس المصدر لحقي بروسوي، نفس المصدر للطبرسي: ج ٦، ص ٤٤٥، نفس المصدر للقمي المشهدي، نفس المصدر للبيضاوي، نفس المصدر للطباطبائي: ج ١٥، ص ٢١٣ ـ ٢١٥، نفس المصدر للزركشي: ج ١، ص ٢٩٣، نفس المصدر للسيوطي: ج ١، ص ١٣٤.

لقد اشار المفسرون الى حفظ الناس الدقيق وفهمهم على نحو احسن وعملهم الكامل بتعاليم القرآن وقضايا من هذا القبيل، ففي النزول التدريجي يتحقق فهم الناس وحفظهم للقرآن بصورة افضل، ونظراً لأُمية النبي فان الكتابة والحفظ يتعذران في النزول الدفعي، وفي النزول التدريجي تحصل المعرفة بتفاصيل المصالح التي روعيت في الاحكام القرآنية، وعندما تتنزل الاحكام تدريجياً يجري العمل بها ويقبلها الناس بسهولة اكثر، وتتوفر المزيد من الارضية للتأمل في الآيات في النزول التدريجي ويتدرج قلب الرسول الاكرم ﷺ في التخلق باخلاق القرآن ويتغذى بحقائق القرآن ويتربى تدريجياً على العمل بالاحكام.

راجع: في ظلال القرآن: ج ٥، ص ٢٥٦٢ وج ٤، ص ٢٢٥٣، الجامع لاحكام القرآن، نفس الموضع، روح المعاني: ج ١٥، ص ١٨٨، نفس المصدر للفخر الرازي وج ٢١، ص ٦٨، روح البيان، نفس المصدر للمراغي، غرائب القرآن، التسهيل، المجمع: ج ٦، ص ٤٤٥، كنز الدقائق، التبيان، البيضاوي، تفسير البغوي، ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم للعمادي: ج ٦، ص ٢١٦، الميزان: ج ١٥، ص ٢١٣ ـ ٢١٥، البرهان للزركشي: ج ١، ص ٢٩٣، الاتقان للسيوطي: ج ١، ص ١٣٤.

٢. راجع نفس كتب العلماء الآنف ذكرهم.

الآيات ذات الصلة بالبحث، ودليلها الآيات نفسها، بيد ان جانباً كبيراً من الوجوه التي ذكرت ليست كذلك، وان البحث التفصيلي لكلٍّ واحد من هذه الوجوه لا ضرورة له، كما انه لا ينسجم مع التركيبة العامة لهذا الكتاب.

ونذكّر فقط ان بعضاً من هذه الوجوه لا صحة له بشكل تام ولا يمكن طرحه كسرٍّ للنزول التدريجي، واليكم هذا التوجيه على سبيل المثال: بما ان النبي كان أمياً ولا معرفة له بالقراءة والكتابة فلا قدرة له على كتابة الآيات ولا حفظها بشكل تام اذا ما نزل القرآن دفعة واحدة، فانه في مثل هذه الحالة ما كان الوحي ليصل الى الناس كاملاً ولا يصان النبيﷺ من السهو والخطأ في ابلاغه الوحي.

وعدم صواب هذا الأمر يكمن في ان صيانة القرآن من التحريف اثناء النزول وبعده، وعصمة النبي الاكرمﷺ واشرافه واحاطته بآيات القرآن قد اعتبرت أمراً طبيعياً، في حين ان كلاً من الامور الثلاثة قد تحقق بطرقٍ خارقة للعادة وان الآيات والروايات تؤكد على ذلك.

ان النزول الدفعي للقرآن الذي جاء قبل النزول التدريجي ونهي النبيﷺ عن قراءة الآيات قبل الانتهاء من وحي كل آية، والتكفل بحفظها وجمعها، دليل واضح على ان النبيﷺ قد تلقى القرآن كلّه قبل النزول التدريجي ولو ان حفظه كان ضرورياً للنبيﷺ لتحقق عملياً بطريقة خارقة للعادة.

من ناحية اخرى، ان صيانة النبي عن الخطأ والسهو له أدلته العقلية والنقلية الخاصة به، ولو قدر للقرآن ان ينزل دفعة واحدة لتحققت تلك الادلة ووصل الوحي بشكل تام الى الناس، ناهيك عن أن صيانة القرآن من التحريف اثناء النزول واثناء انتقاله الى الناس وما بعد ذلك على مر الزمان من الامور التي تكفلها الله سبحانه بشكل خارق للعادة ولا تتوقف على النزول التدريجي أبداً، وبالاضافة الى ما تقدم ان كتابة القرآن في حالة النزول الدفعي متيسرة للنبيﷺ بطريقة خارقة للعادة.

وبالرغم من ان بعض الوجوه الآنفة الذكر صحيحة بذاتها لكنها ليست منوطة بالنزول التدريجي وهي ممكنة التحقق ايضاً في النزول الدفعي من قبيل الوجه القائل بان اعجاز القرآن في فصاحته وبلاغته مرهون بانسجام أو انطباق الآيات على مقتضى الحال، ولا يتيسر الانسجام مع واقع الحال الّا ان تنزل الآيات تدريجياً وفقاً للظروف الخارجية. من الواضح ان هذا البيان ممكن التحقق في حالة النزول الدفعي ايضاً، أي امكانية ان تنزل الآيات دفعة واحدة ولكنها تنسجم مع الاوضاع الخارجية ويُكلّف النبيﷺ بقراءة الآيات على الناس بما يتناسب مع كل واقعة، وفي مثل هذه الحالة يتجلى اعجازه بنحو افضل.

الفصل الثالث

الادلة على أن القرآن مُنزل من عند الله

نوّهنا في الفصل الثاني الى ان القرآن الكريم اكد في آيات كثيرة على ان القرآن كلام الله نزل على النبي الاكرمﷺ. وفي هذا الفصل نتطرق لبحث هذه المسألة: فما هي الادلة التي وردت في الآيات الكريمة لاثبات الادّعاء المتقدم؟

من الممكن تقسيم الآيات الكريمة التي تطرقت لبيان الادلة على كون القرآن من عند الله، الى طائفتين بشكل عام تحملان عنوان «الآيات التي تبين الدليل العقلي» و«الآيات التي تبين الدليل النقلي». وتُسمى الآيات التي تبين الدليل العقلي بآيات التحدي، فيما تتلخص الآيات التي تبين الدليل النقلي بالآيات تتضمن اخبار الانبياء السابقين والكتب السماوية السابقة بمجيء نبي الاسلام ونزول القرآن.

من الطبيعي ان الدليل العقلي يثبت الادعاء امام الجميع، أما الدليل النقلي فهو فاعلٌ بالنسبة للذين يؤمنون بالانبياء والكتب السماوية السالفة ويرونها حقاً، وإن كان الدليل النقلي ـ في بحثنا هذا ـ يعدّ مبعث ثقة الى حدٍّ كبير بالنسبة لغير المؤمنين بالانبياء الماضين ايضاً في ضوء مجموعة الظروف المتوفرة في مجال تبشير الكتب السماوية والانبياء السابقين والمواصفات المذكورة للنبي والقرآن الكريم. في هذا الفصل نتناول بالبحث هاتين الطائفتين من الآيات:

١ـ الآيات التي تبين الدليل العقلي

تحدثت الآيات التي تبين الدليل العقلي بانحاء مختلفة عن هذه المسألة:

في الآية ٨٨ من سورة بني اسرائيل يتحدث تعالى عن عدم قدرة الانس والجن مجتمعين على الاتيان بنظير للقرآن، فيقول:

«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً».

وفي الآية ٣٣ من سورة البقرة قدم ما يقرب من هذا المضمون وبعبارة موجزة «وَلَنْ تَفْعَلُوا» بشأن الانس.

ويبين المسألة في آيتين أُخريين مُركزاً على خصوصيات النبيﷺ، فيقول في الآية ١٦ من سورة يونس:

«قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاٰ أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ»

ويقول في الآية ٤٨ من سورة العنكبوت:

«وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلاٰ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ»

كما ان الآية ٢٣ من سورة البقرة تفيد نفس المضمون اذا أرجعنا الضمير في عبارة «مِنْ مِثْلِهِ» الى مفردة «عَبْدِنا».

وفي آية واحدة اعتبر وجود التناسق وعدم الاختلاف في القرآن دليلاً على كون القرآن من عند الله، وبهذا يقيم تلازماً بين عدم كون القرآن من عند الله وانعدام التناسق فيه فيقول:

«أَفَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاٰفاً كَثِيراً» النساء/٨٢

وفي عدة آيات اخرى ولاثبات ان القرآن من عند الله، طالب الناس بأن يأتوا بكلام يشابه القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة منه، من قبيل الآيات الكريمة:

«أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ» الطور / ٣٢ ـ ٣٣.

والمواضع الاخرى هي الآيات ١٣ و١٤ من سورة هود، ٣٨ و٣٩ من سورة يونس، ٢٣ من سورة البقرة.[١]

وكما تقدمت الاشارة فان التحدي ـ المطالبة بالمثل ـ جاء في الآيات الاخيرة بكل القرآن تارة وبعشر سور اخرى وبسورة واحدة ثالثة، وقد تسبب مثل هذا التحدي في تبلور هذا السؤال وهو ما السرّ في اختلاف هذه المطالبات والتحديات؟

الجواب المتعارف اعطاؤه هو ان القرآن وبهذا الاسلوب قد تدرّج بالتحدي من الاشدّ وحتى الاخف ليثبت اعجاز القرآن بنحو افضل، ففي البداية طالبهم بان يأتوا بمثيل لكل القرآن، وبعد جهدٍ للمجيء بمثيل لكل القرآن واتضاح عجز البشر عن المجيء بمثله يطالبهم بعشر سور شبيهة بسور القرآن وبعد محاولاتهم وثبوت عجزهم عن الاتيان بعشر سور، يطالبهم بالاتيان بسورة واحدة على غرار سور القرآن. وبهذا فان القرآن الكريم ساق همم الناس ثلاث مرات وبفواصل زمانية نحو المجيء بمثيل للقرآن واثبت عجزهم عن الاتيان بمثل القرآن على ثلاث مراحل سائراً بهم من الاصعب الى الاسهل.

ان هذا الجواب قائم على افتراض مسبق واحد وهو ان نزول الآيات المتقدمة ـ وبالذات ابلاغها ـ جاء وفق الترتيب الذي ورد في الجواب، بمعنى ان آيات التحدي بكل القرآن هي التي نزلت في البداية ثم آيات التحدي بعشر سور واخيراً آيات التحدي بسورة واحدة، ولكن ليس هنالك أي شاهد على هذا الادّعاء في آيات القرآن، اضف الى ذلك ان القول المشهور بين المفسرين والمختصين بعلوم القرآن هو ان سورة يونس المتضمنة لآيات التحدي بسورة واحدة نزلت قبل سورة هود المتضمنة

---

١. استناداً لرجوع ضمير «مثله» الى «ما» في عبارة «مما انزلنا».

لآيات التحدي بعشر سور.[١] ولهذا السبب فقد جرى التشكيك بالافتراض المتقدم مما زعزع الجواب الآنف الذكر، لانه عندئذ لا معنى لمطالبة الناس بالاتيان بعشر سور مشابهة لسور القرآن، بعد عجزهم عن المجيء بسورة واحدة من مثل القرآن. وهذا الامر دفع المفسرين الى المجيء ببيان وتوجيهات اخرى أو المبادرة الى دفاع خاصٍ عن الافتراض المتقدم.

لقد تقبّل البعض نزول سورتي هود ويونس طبقاً للرأي المشهور وادّعوا نزول الآيات، المتضمنة للتحدي في هاتين السورتين بصورة استثنائية وخلافاً لتسلسل نزولهما، أو ان النبي ﷺ وبأمر من الله قرأها لدى الابلاغ على العكس من تسلسل النزول. فيما رأى البعض التحدي بسورة واحدة مطلقاً، والتحدي بعشر سور خاصاً بعشر سور معينة، ورأت طائفة ان وجه الاعجاز مختلف في هذين اللونين من التحدّي.[٢] وبما ان هذا البحث يعتبر بحثاً هامشياً بالنسبة للمحور الجوهري لهذا

---

١. راجع: تاريخ القرآن لابي عبدالله الزنجاني: ص ٥٥ ـ ٦٤، الطبعة الاولى، منظمة الاعلام الاسلامي ـ طهران، ١٤٠٤، نفس المصدر لرشيد رضا: ج ١، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

٢. يتلخص التوجيه والايضاحات المطروحة ـ ماعدا الرأي الوارد في المتن ـ في الاقوال الستة التالية:

أ ـ ادّعى البعض انه بالرغم من نزول سورة يونس قبل سورة هود، إلّا ان آيات التحدي في سورة يونس أوحيت الى النبي ﷺ بعد آيات التحدي في سورة هود، وبناءً على هذا سار التحدي من الاشد الى الأخف بشكل طبيعي. (راجع نفس المصدر لرشيد رضا: ج ١٢، ص ٣٣).

ب ـ وادعى بعض ان سورة يونس نزلت بأجمعها قبل سورة هود، لكن النبي ﷺ كان مكلفاً بقراءة آيات التحدي في سورة يونس بعد آيات التحدي في سورة هود على الناس، كي يُضمن سير التحدي من الاشد الى الأخف. (راجع نفس المصدر للآلوسي: ج ١٢، ص ٢٠).

ان هذين الرأيين مجرد ادّعاء ولا وجود لأي شاهد أو دليل واضح عليهما، ولا يمكن التخلي عن القول المشهور حول نزول الآيات لمجرد الادعاء، كما انه ليس هنالك دليل على تكليف الرسول ﷺ في موقع ما بابلاغ الآيات النازلة عليه خلافاً لتسلسل النزول.

ج ـ المراد من الآية في سورة يونس مطلق سور القرآن، لكن المراد من الآية في سورة هود التي تتحدى بعشر سور، انما هو عشر سور معينة وهي عبارة عن: السور التسع السابقة لسورة هود وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الانعام، الاعراف، الانفال، التوبة، يونس بالاضافة الى سورة هود. (راجع ما ينقله الفخر الرازي عن ابن عباس في نفس المصدر: ج ١٧، ص ١٩٤).

هذا القول يتنافى مع ظاهر الآية التي تتحدث عن مطلق السور وتشمل أي عشر سور، إلّا ان تكون السور النازلة قبل سورة هود هي تلك السور التسع فقط. وهذا القول لا يرتضيه اصحاب هذا الرأي؛ وليس هنالك أية قرينة حالية أو مقالية اخرى على ارادة خلاف ظاهر الآية وتقييد اطلاقها لتقتصر على السور العشر المذكورة. بالاضافة الى ان الذين كانوا ينسبون الافتراء على النبي ﷺ لم يكن قولهم هذا مقصوراً على سور معينة وكانت جميع السور على حدٍّ سواء بالنسبة اليهم، فما هو المبرر في مثل هذه الحالة ان يتم التحدي بسور معينة ولاسيما بالسور الكبار؟ ولا معنى لان يقال لمن يزعم ان سورة الكوثر افتراء وهي ليست من عند الله: جئنا بعشر سور مثل السور العشر الاولى في القرآن.

اضف الى ذلك ان سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانفال والتوبة الواردة ضمن هذه المجموعة مدنية باجماع اهل المعرفة ولم تكن قد نزلت في زمن التحدي بعشر سور كي يتم التحدي بها. (راجع نفس المصدر للسيوطي: ج ١، ص ٣١ و٣٢، نفس المصدر للطباطبائي: ج ١٣، ص ٢٣٤). بالاضافة الى ان القائل بهذا الرأي لم يذكر خصوصية هذه السور التي لاجلها جرى التحدي بهذه السور على وجه الخصوص، كما لا يمكن ذكر وجه خاص لها.

د ـ يرى رشيد رضا بان صفة «مفتريات» المذكورة للسور المطلوبة قد وردت في هذه الآية فقط ولم يرد هذا الوصف في سائر آيات التحدي، ويرى ـ استناداً لذلك ـ ان سرّ القضية يكمن في هذا الوصف. وهو يعتقد ان هنالك اخباراً في النصوص القرآنية يزعم المشركون ان لا حقيقة لها، وان النبي ﷺ ينسبها الى الله افتراءً عليه؛ وفي ضوء ذلك فقد صنّف الاخبار الواردة في القرآن على النحو التالي:

- الاخبار التي يمكن ان يدّعى كونها افتراء
  - انباء الغيب الماضية
    - قصص الأنبياء
    - انباء خلق العالم وما فيها
  - انباء الغيب الآتية
    - الانباء المرتبطة بالدنيا كنصر المؤمنين
    - الانباء المرتبطة بالآخرة كالبعث والعذاب

ثم يدّعي ان نسبة الافتراء للنبي ﷺ من قبل المخالفين لم ترد حول اخبار الخلق أبداً.

وأما اخبار الغيب الدنيوية فقد وردت في اقل من عشر سور من السور القصار وفي اكثر من عشر سور من السور الطوال، كما ان اخبار الغيب الاخروية وردت في غالبية سور القرآن، وبناءً على هذا لا يمكن العثور في الاقسام الثلاثة من الاخبار المذكورة على عشر سور مميزات تتضمن اخباراً غيبية كي يلصق المشركون وبالذات

اليهود ـ وهم المخاطبون في هذه الآيات ـ تهمة الافتراء، وليقول النبي ﷺ: هلمّ ائتوا بعشر سور مثل هذه السور العشر التي تدّعون انها مفتريات.

ان قصص الانبياء وحدها التي وردت في عشر سور مميزات وكان اليهود ينسبون الافتراء للنبي ﷺ بخصوصها، وهي عبارة عن سور: الاعراف، يونس، مريم، طه، الشعراء، النمل، القصص، القمر، ص، وهود. وادعى رشيد رضا ان السور التسع الاخرى نزلت قبل سورة هود إذاً فالمراد من «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ» هو عشر سور مشابهة للسور العشر اعلاه التي تحدثت عن قصص الانبياء وتدّعون انها مفتريات (راجع نفس المصدر لرشيد رضا: ج ١١، ص ٣٤ ـ ٤٥).

ثم يقول:

«الخلاصة ان مشركي مكة المعاندين لم يجدوا شبهة على القرآن ـ بعد شبهة السحر القديمة التي لم تلقَ رواجاً عند العرب لأنه كلام بلغتهم عرفوه وعقلوه وادركوا علوه على سائر الكلام ـ الّا زعمهم ان محمداً ﷺ قد افتراه في جملته وما هو وحي من عند الله تعالى، فتحداهم بالاتيان بمثله بالاجمال وبسورة مثله في جملة مزاياه من نظمه واسلوبه وبلاغته وعلومه وتأثير هدايته وسلطانه الالهي على الارواح والعقول، فعجزوا وبقيت لهم شبهة عليه في قصصه اذا ادعى أنها من انباء الغيب أوحاه الله اليه، فزعموا انه إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، وانه اساطير الاولين اكتتبها لنفسه فهي تُملى عليه ويُلقّنُها لئلا ينساها. وهذه شبهة خاصة موجهة الى قصصه المتفرقة في سوره الكثيرة لا يدحضها عجزهم عن الاتيان بسورة واحدة مثله في بلاغتها التي حصروا الاعجاز فيها ولا ابداع نظمها ولا طرافة اسلوبها أيضاً ولاسيما اذا كانت قصيرة فتحداهم بعشر سور مثله مفتريات اي مثل هذه القصص التي زعموا انها اساطير الاولين وانما تكون مثلها اذا كانت جامعة لمزاياها المعنوية العلمية... وجملة القول ان التحدي بعشر سور مثله مفتريات قد كان لإبطال هذه التهمة الخاصة من الافتراء وقد بيّنا معناها والسور المفصّلة فيها التي تمت عشراً بهذه السورة (هود)». (راجع: نفس المصدر لرشيد رضا: ج ١٢، ص ٤٤ و٤٥).

ويقول في موضع آخر بعد ذكره لمزايا عشر ـ في رأيه ـ موجودة في هذه السور العشر:

«ثم انك تجد هذه المعاني أو المعارف التي اجمعتها في عشرة انواع كلية... متفرقة في جميع تلك القصص من تلك السور ولا تجد فيها على تكرارها تناقضاً ولا تعارضاً ولا في عباراتها اختلافاً ولا تفاوتاً على ما فيها من ايجاز وقبض ومساواة وبسط، وهذه مما يعجز عنه البشر ايضاً ولا يتحقق الّا بالتعدد واذا كانت لا توجد كلها مجتمعة في سورة ولا سورتين ولا ثلاث مما ذكرنا فاحرى بمن يدّعي انها من علم البشر وكلامهم أن يفسح له في التحدي بأن يأتي بعشر سور مثلها تشتمل على هذه المزايا كلها فالتحدي بهذه السور توسيع على المنكرين إن تصدّوا لمعارضتها لا تضييق عليهم.» (نفس المصدر لرشيد رضا: ج ١٢، ص ٤٣). وذكر رشيد رضا وجهاً آخر بهذا الشأن يشابه كثيراً القول السادس (راجع نفس المصدر لرشيد رضا: ج ١، ص ١٩٣ و١٩٤).

يمكن القول في معرض النقد لهذا الرأي:

اولاً: لا وجه لاختصاص الافتراء بالآيات الدالة على الاخبار والانباء، وكأن رشيد رضا قد تصور امكانية ورود الافتراء في مجال الاخبار ولا يصدق الافتراء على صعيد الانشائيات، وان المشركين كانوا يرون آيات الاخبار في القرآن هي المفتريات، بينما كان المشركون يرون القرآن بما هو قرآن مفترى سواء الاخبار او الانشاء ولم يكونوا ينظرون ـ فيما هو مفترى ـ الى مضمون الآيات إن كان خبراً أم إنشاءً، مطابقاً للحقيقة أم لا، بل يرون الافتراء في نسبته الى الله، أي انهم كانوا ينسبون الافتراء الى النبي ﷺ والقرآن في بُعد الانتساب الى الله، ناهيك عن ان الانشائيات ايضاً تصبح اخباراً في ضوء هذه النظرة. اذاً لا تختص صفة الافتراء التي تشكل اساساً لنظريته، بعشر سور معيّنات.

ثانياً: تستفاد نسبة الافتراء للنبي ﷺ من مطلع الآية، كما هي مطروحة في سائر السور ايضاً، وذلك ما يختلف عن المراد في المفتريات، فالافتراء في مطلع الآية مما يرتضيه المشركون، أما الافتراء في المفتريات فهو مما يقبله المشركون والنبي ﷺ. بناءً على هذا ان الوصف: لا يدل على وجود عشر سورٍ مشخصات نسب المشركون افتراءها للنبي ﷺ كي نبادر لتعيين تلك السور.

ثالثاً: ان الادعاء بان قصص الانبياء قد وردت في هذه السور العشر فقط ولم ترد ـ مثلاً ـ في سورة الصافات مما يخضع للنقاش.

هـ ـ يورد المرحوم العلّامة الطباطبائي ﷺ بعد نقله لقول رشيد رضا ونقده، وجهاً آخر بهذا الشأن. فبعد ذكره بان ليس المراد من «بعشر سور» العدد، بل المراد عدة سور ـ اي الكثرة ـ يطرح رؤية اخرى ملخصها هو ان التحدي بكل القرآن باعتبار ان القرآن كتاب هداية جامعٌ وخالدٌ هو الذي يتعرض للتحدي؛ وان الهدف في التحدي بسورة واحدة هو التحدي بقطعة من القرآن بلحاظ تضمنها لغرض وهدف تام، والهدف من التحدي بعشر سور هو التحدي بتنوع في الاغراض وبيان انواع المقاصد، فيقول ﷺ في هذا المضمار:

فالذي كلّف به المخصم في هذه التحديات هو أن يأتي بكلام يماثل القرآن مضافاً الى بلاغة لفظه في بيان بعض المقاصد الالهية المشتملة على اغراض منعوتة بالنعوت التي ذكرها الله سبحانه.

والكلام الالهي مع ما تحدى به في آيات التحدي يختلف بحسب ما يظهر من خاصته فمجموع القرآن الكريم يختص بأنه كتاب فيه ما يحتاج اليه نوع الانسان الى يوم القيامة من معارف اصلية واخلاق كريمة واحكام فرعية، والسورة من القرآن تختص ببيان جامع لغرض من الاغراض الالهية المتعلقة بالهدى ودين الحق على بلاغتها الخارقة، وهذه خاصة غير الخاصة التي يختص بها مجموع القرآن الكريم، والعدة من السور كالعشر والعشرين منها تختص بخاصة أُخرى وهي بيان فنون من المقاصد والاغراض والتنوع فيها فانها أبعد من احتمال الاتفاق فان المخصم اذا عجز عن الاتيان بسورة واحدة كان من الممكن ان يختلج في باله إن عجزه عن الاتيان بها إنما يدل على عجز الناس عن الاتيان بمثلها لا على كونها نازلة من عند الله موحاة بعلمه فمن الجائز أن يكون كسائر

الصفات والاعمال الانسانية التي من الممكن في كلٍّ منها أن يتفرد به فرد من بين افراد النوع اتفاقاً لتصادف اسباب موجبة لذلك كفرد من الانسان موصوف بأنه اطول الافراد أو اكبرهم جثة أو أشجعهم أو أسخاهم أو اجبنهم أو أبخلهم.

وهذا الاحتمال وإن كان مدفوعاً عن السورة الواحدة من القرآن ايضاً التي يقصدها الخصم بالمعارضة فانها كلام بليغ مشتمل على معانٍ حقة ذات صفات كريمة خالية عن مادة الكذب، وما هذا شأنه لا يقع عن مجرد الاتفاق والصدفة من غير ان يكون مقصوداً في نفسه ذا غرض يتعلق به الارادة.

إلّا انه اعني ما مرَّ من احتمال الاتفاق والصدفة عن السور المتعددة أبعد لأن إتيان السورة بعد السورة وبيان الغرض بعد الغرض والكشف عن خبيئ بعد خبيئ لا يدع مجالاً لاحتمال الاتفاق والصدفة وهو ظاهر.

إذا تبين ما ذكرنا ظهر ان من الجائز ان يكون التحدي بمثل قوله: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» (الاسراء / ٨٨) وارداً مورد التحدي بجميع القرآن لما جمع فيه من الاغراض الالهية ويختص بأنه جامع لعامة ما يحتاج اليه الناس الى يوم القيامة. وقوله: «قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» لما فيها من الخاصة الظاهرة وهي ان فيها بيان غرض تام جامع من اغراض الهدى الالهي بياناً فصلاً من غير هزل، وقوله: «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ» تحدياً بعشر من السور القرآنية لما في ذلك من التفنن في البيان والتنوع في الاغراض من جهة الكثرة، والعشرة من الفاظ الكثرة كالمائة والالف. قال تعالى: «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ» (البقرة / ٩٦).

فالمراد بعشر سور ـ والله اعلم ـ السور الكثيرة الحائزة لبعض مراتب الكثرة المعروفة بين الناس فكأنه قيل: فأتوا بعدة من سوره ولتكن عشراً ليظهر به ان تنوع الاغراض القرآنية في بيانه المعجز ليس الّا من قبل الله. (نفس المصدر للعلّامة الطباطبائي: ج ١٠، ص ١٦٧ ـ ١٦٩).

وفي نقده لرأي المرحوم العلّامة قال آية الله فاضل اللنكراني: ان هذا الوجه تام بذاته ولا شك في صحته، لكن هذا الكلام توجيه لاصل التحدي بسورة واحدة وعشر سور فقط وليس توجيهاً للتحدي بعشر سور بعد التحدي بسورة واحدة (مدخل التفسير لمحمد الموحدي الفاضل: ص ٣٧ ـ ٨٣، الطبعة الاولى، مطبعة الحيدري ـ طهران ١٣٩٦).

وهذا الاشكال انما يرد على كلام المرحوم العلّامة رحمه الله حينما يكون بصدد بيان هذا الأمر وهو ان مقتضى التسلسل الطبيعي لدى التحدي ان يأتي التحدي بعشر سور لزاماً بعد التحدي بسورة واحدة، غير ان مثل هذا الادعاء لم يُصرح به في عباراته، بل يقول بهذا الصدد: «ويمكن ان يقال في وجه الاختلاف الذي يلوح من آيات التحدي...» (نفس المصدر للطباطبائي: ج ١٠، ص ١٧٠).

وفي هذه الحالة فان المرحوم العلّامة بصدد توجيه صحة التحدي بعشر سور بعد التحدي بسورة واحدة وليس لزومه، وفي ضوء اختلاف الغاية من التحدي بسورة واحدة عن الغاية من التحدي بعشر سور فان التحدي

بعشر سور بعد التحدي بسورة واحدة صحيح، وكذا التحدي بسورة واحدة بعد التحدي بعشر سور صحيح ايضاً، مما يعني في كلتا الحالتين انه وبعد التحدي ببعدٍ من اعجاز القرآن واثباته يأتي التحدي ببعد آخر من اعجاز القرآن.

وتجدر الاشارة ايضاً الى انه ليس مراد المرحوم العلّامة الطباطبائي من السورة احدى سور القرآن المائة والاربع عشرة، بل مراده مقطع واحد وفقرة واحدة من فقرات القرآن. وبناءً على هذا فان قوله بان بعض السور المائة والاربع عشرة لا تنطوي على هدف واحد لا يتنافى مع تأكيده بان لكل سورة من القرآن غرضاً خاصاً، وهو الأمر الذي تنظر اليه آيات التحدي بسورة واحدة.

وان آية الله فاضل اللنكراني يعتقد بان مفردة مفتريات الواردة فقط في هذه الآية من آيات التحدي تقتضي ان يسير التحدي بشكله الطبيعي من الاشد الى الأخف، ففي التحدي بسورة واحدة يجري التأكيد على كلٍّ من مضمون السورة ونظمها، أما في التحدي بعشر سور فان المطالبة تأتي بعشر سور قرآنية بنظمها الخاص بغض النظر عن مضمونها وان كان مضمونها كذباً وافتراءً؛ وبصدد توضيح هذا الوجه يقول:

«ان الافتراء المدلول عليه بقوله «مفتريات» يغاير الافتراء الواقع في صدر الآية في قوله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» فان الافتراء هناك افتراء بحسب نظر المدّعي، ولا يقبله الطرف الآخر بوجه، وفي الحقيقة يكون الافتراء المدّعى افتراءً واقعياً غير مطابق للواقع بوجه؛ ولكن الافتراء هنا افتراء مقبول للطرفين، والغرض ـ والله اعلم ـ ان اتصاف القرآن بالاعجاز وإن كان ركنه الذي يتقوم به انما هي المقاصد الالهية، والاغراض الربوبية التي يشتمل عليها الفاظه المقدسة، وعبارته الشريفة، إلّا انه لا ينحصر بذلك؛ بل لو فرض كون المطالب غير واقعية والقصص كاذبة لكان البشر عاجزاً عن التعبير بمثل تلك الالفاظ مع النظم الخاص والاسلوب الخصوص.

ففي الحقيقة: يكون التحدي في هذه الآية ـ بعد الاغماض عن علوّ المطالب وسمو المعاني وصدق القصص وواقعية المفاهيم ـ بخلاف التحدي الواقع في الآية الكريمة في سورة يونس بالاتيان بسورة مثل سور القرآن فان ظاهره المماثلة من جهة المزايا الراجعة الى المعنى والخصوصيات المشتملة عليها الالفاظ معاً».

ثم يقول:

«نعم يبقى الكلام ـ بعد ظهور عدم كون المراد بالعشرة الّا الكثرة لا العدد الخاص ـ في حكمة العناية بالكثرة، ولعلّها عبارة عن التنبيه على اشتمال الكتاب العزيز على خصوصية مفقودة في غيره، ولا يكاد يقدر عليها البشر وإن بلغ ما بلغ وهي الاتيان بقصة واحدة باساليب متعددة وتعبيرات مختلفة متساوية من حيث الوقوع في اعلى مرتبة البلاغة.» (نفس المصدر لمحمد الموحدي الفاضل: ص ٣٨ ـ ٣٩).

ثم يقول:

«وبذلك ترتفع الشبهة التي يمكن ان تخطر بالبال، بل بعض الناس اوردها على الاعجاز بالبلاغة والاسلوب، وهي

ان الجملة أو السورة المشتملة على القصة يمكن التعبير عنها بعبارات مختلفة تؤدي المعنى، ولابد ان يكون عبارة منها ينتهي اليها حسن البيان، مع السلامة من كل عيب لفظي أو معنوي. فمن سبق الى هذه العبارة اعجز غيره عن الاتيان بمثلها، لان تأليف الكلام في اللغة لا يحتمل ذلك، ولكن القرآن عبَّر عن بعض المعاني وبعض القصص بعبارات مختلفة الاسلوب والنظم، من مختصر ومطوّل، والتحدي في مثله لا يظهر في قصة مخترعة مفتراة، بل لابد من التعدد الذي يظهر فيه التعبير عن المعنى الواحد والقصة الواحدة باساليب مختلفة وتراكيب متعددة.» (نفس المصدر لمحمد الموحدي الفاضل: ص ٣٩).

وهذا أمر نوّه اليه رشيد رضا والعلّامة الطباطبائي ﷺ في هذا المجال ايضاً. (راجع: نفس المصدر لرشيد رضا: ج ١، ص ١٩٣، ونفس المصدر للعلّامة الطباطبائي: ج ١٠، ص ١٦٨ ـ ١٧٠) وبالرغم من ان هذا الوجه صحيح بحدّ ذاته لكنه يكون متناسباً مع ظاهر الآية لو كان الله قد قال: فأتوا بسورة مثله مفتراة. وبناءً على هذا فان تأكيد الآية الكريمة على عشر سور بدلاً من سورة واحدة يتنافى مع هذا التوجيه، وان الوجه المذكور للتركيز والتأكيد على عشر سور انما يكون صحيحاً عندما تكون الآية بصدد بيان مواصفات القرآن وليس الطلب من المخالفين الاتيان بالمثيل، وسيأتي توضيح هذا الأمر في نهاية هذا الهامش.

(من الضروري ذكره ان لرشيد رضا اشارات للتوجيه المذكور في «مدخل التفسير» ضمن بيانه لرؤيته في تفسير المنار، وإن لم تأتِ مستقلة.) راجع نفس المصدر لرشيد رضا: ج ١، ص ١٩٣ و١٩٤، ج ١٢، ص ٤٧».

بالاضافة الى عدم انسجامه كثيراً مع ذيل الآية القائلة: «فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ...» فالنزول بعلم الله يتناسب اكثر مع المضمون، وكما قال العلّامة الطباطبائي ان الاشتمال على معارف الهداية للبشر أو انواع الكمالات اكثر تناسباً مع التوحيد في الالوهية المستفاد من عجز المخالفين في الآية، منه مع التفنن بالبيان دون محتوى. (والجدير ذكره ان نظير هذا التذييل ورد في الآية ٣٩ من سورة يونس حيث يقول تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ»).

لكن ما ورد في كلمات رشيد رضا وهذين العالمين الجليلين بخصوص وجه التأكيد على «عشر سور» فهو يتعلق ببعد آخر من التحدي ينبغي عدم الخلط بينه وبين ما جرى التأكيد عليه لحدّ الآن.

وتوضيح ذلك هو: يدور الحديث احياناً لدى بيان اعجاز القرآن حول هذا الموضوع وهو: نظراً لما يتمتع به القرآن من خصائص وميزات فهل يمكن ان يكون كلام انسان أم ان القرائن والادلة ترشدنا الى ان رافده علم وقدرة تفوق علم الانسان وقدرته، من قبيل الآية ٨٢ من سورة النساء التي تصرِّح مركّزةً على خصائص القرآن بان هذا الكتاب وبما فيه من ميزة الخلو من الاختلاف لا يمكن ان يكون من صنع عقل النبي ﷺ وفكره. ففي هذا البعد من بيان الاعجاز جرى التحدي من الأخف الى الاشد باسلوب يرتضيه العقل، اي يجري التركيز في البداية على احدى الخصائص أو مورد واحد أو سورة واحدة أو نبأ غيبي ثم يقال ان هذه الخصيصة أو هذا النبأ الغيبي أو هذا المقطع القرآني أو هذه الطائفة من الآيات لا يمكن ان تكون من عند

الفصل فاننا نتجنب الخوض في نقد وبحث الاقوال المذكورة ونكتفي ببيان الوجه الذي يمثل ـ في رأينا ـ اكثر الوجوه تناسباً مع الآيات.

كما تقدمت الاشارة في آيات القرآن فقد جرى التحدي تارة بكل القرآن وأُخرى بعشر سور وثالثة بسورة واحدة، وبالرغم من اتفاق الغالبية العظمى من المفسرين والمتخصصين بعلوم القرآن على ان مفاد الطائفة الاولى من الآيات التحدي بكل القرآن، ولكن هنالك احتمال يطرح بجدية، وهو ان يكون المراد من القرآن في هذه الآية معناه الجنسي وان لا تكون بصدد بيان المقدار المعجز من القرآن، وفي هذه الحالة يفقد البحث عن تسلسل التحدي بهذا الخصوص خاصيتَه، ولكن على افتراض القبول برأي المفسرين بهذا الصدد يمكن القول: ان آيات التحدي تطالب البشر

النبي ﷺ، وفي المرحلة اللاحقة يتم التركيز على عدة أنباء غيبية أو عدة ابعاد من الاعجاز أو عدة سور كلّ واحدة منها معجزة، ثم يقال هنالك احتمال بان يكون هذا الفعل الخارق أو الخبر الغيبي أو السورة معلولة لنبوغ النبي ﷺ، أو ربما يخطر تصور في اذهان أُناس بان هذه السورة ذات مضمون يفوق طاقة سائر الناس لكن لعلها من الصفات البارزة حيث طالما يبرز شخص واحد يعلو الآخرين من بين ابناء البشر، بيد ان التتابع في بيان الاخبار الغيبية والمجيء بالسورة تتلو الاخرى يزيل هذا الوهم بصورة جيدة، وهذا هو ذات البيان الذي ورد في كلمات العلّامة الطباطبائي وآية الله فاضل اللنكراني ورشيد رضا.

اذاً هذا البيان مناسبٌ ويدرء هذه الشبهة عندما يجري التركيز على ان النبي ﷺ كان يأتي بعدة سور بشكل متتابع وهذا دليل على ان ذلك ليس معلولاً لعبقرية النبي ﷺ وخصوصياته، لان كل انسان يكون عبقرياً في بعد أو مجال واحد وليس في كل بعد وكل مجال، وهذا يناظر ما قاله المتكلمون حول المعجزة من انها لا حدود لها.

من البديهي عدم امكانية الحديث في هذا البعد عن التحدي من الاشد الى الاخف ـ الذي هو موضع البحث في هذه الآيات ـ (التحدي بسورة واحدة ومن ثم بعشر سور) بل لابد من ان يجري التحدي من الاخف الى الاشد إن كان التعبير بالتحدي في هذا المورد خالياً من الاشكال!.

والبعد الآخر هو ان الآخرين عاجزون عن الاتيان بمثل القرآن، وهو ما جرى التركيز عليه في آيات سورة البقرة، والطور، ويونس، وهود، والاسراء، حيث يُطالب الناس بالاتيان بمثل القرآن أو سورة واحدة أو عشر سور منه ثم يقول انهم عاجزون عن القيام بمثل هذا الفعل. فيجب في هذا البعد من التحدي ان يجري التحدي من الاشد الى الأخف، أي ان يطالب الناس بالأمر الاصعب ثم السهل فالاسهل. ولا وجود في هذا البعد من التحدي للشبهة الآنفة الذكر ودرئها.

بالاتيان بكتاب يماثل القرآن ويتمتع بكافة مزايا القرآن ان كانوا يشككون بكون القرآن من عند الله، وبعد ان يثبت عجزهم يخفف عنهم ويقول فليأتوا بسورة واحدة تشابه بكل ابعادها السور القرآنية ولها كافة مزايا اي سورة من سور القرآن، وبعد عجزهم عن مثل هذا الأمر يخفف عنهم ويدعوهم لصياغة عشر سور بحيث تنطوي كل واحدة منها على واحدٍ من ابعاد الاعجاز القرآني بنحو يتمتع مجموع هذه السور العشر بمزايا سورة واحدة من القرآن.

من البديهي ان صياغة سورة واحدة تشابه بكل ابعادها سورة واحدة من القرآن اكثر صعوبة من الاتيان بعدة سور تشابه كل واحدة منها القرآن في بُعد من ابعاده. اذاً يحصل التحدي من الاشد الى الاخف وهو امر معقول.

هذا الكلام ينسجم تماماً مع خاتمة آيات التحدي بسورة واحدة وعشر سور حيث تربط عجز البشر بانبثاق القرآن عن علم الله وجهل البشر به، لان عدم القدرة على المجيء بسورة واحدة تشابه القرآن تماماً وكذلك عدم القدرة على المجيء بعشر سور تكون بمجموعها بمثابة سورة واحدة من القرآن يدلان على ان هذه السور تتمتع برافد علمي غير متناهٍ ولا يتوفر هذا العلم لدى أُناس آخرين وان الله لم يطلعهم على علمه الغيبي.

بالاضافة الى ان هذا الكلام يتناسب بشكل كامل مع عمومية الافتراء بالنسبة لجميع سور القرآن وهو ما عليه ظاهر الآيات الكريمة، مضافاً اليه ان التعبير بـ«مثله» في العبارة: «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ» يحصل على توجيه معقول وصحيح. وتوضيح ذلك: ذكر المفسرون توجيهات لهذه المفردة التي هي صفة لـ«سور» وكان المفروض ان يقال «امثالها». ومن بين ما قيل: ان اصل الجملة كالتالي: «فأتوا بقدر عشر سور مثله». و«مثله» صفة لـ«قدر» أو ان المراد «كل واحد منها مثله»،[1] أو بما

١. نفس المصدر للبيضاوي: ج ١، ص ٤٥١، نفس المصدر للرازي: ج ١٧، ص ١٩٤.

ان مجموع عشر سور بمثابة أمرٍ واحد فجاء المطلوب «مثله»،[١] فيما قال البعض بما ان مفردة عشر ليست صيغة جمع فيستخدم المفرد في وصفها ايضاً،[٢] لكن سائر الوجوه تتنافى مع الظاهر ماعدا الوجه الاخير. ويمكن القول بخصوص الوجه الاخير، نظراً لان كلمة مثل يمكن استخدامها بصيغة الجمع ايضاً كما ورد في الآية ١٦٠ من سورة الانعام:

«مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها»

فما هو السرّ في استخدام «مثل» بصيغة المفرد؟ طبقاً للوجه الذي ذكر مناسباً للتحدي بعشر سور بعد التحدي بسورة واحدة ـ والمراد منه ان عشر سور من صناعة عقل الانسان بمثابة سورة واحدة من القرآن ـ فان التعبير الوحيد الصحيح هو ان يؤتى بها بصيغة المفرد كي تكون اشارة الى عدم وجود ضرورة لان تكون كل واحدة من السور العشر شبيهة بواحدة من سور القرآن، بل يكفي بان تكون بأجمعها شبيهة بسورة واحدة من القرآن.

ومن ناحية اخرى، ان المجيء بكلمة «مفتريات» بصيغة الجمع وكذلك وصف السور العشر بـ«المفتريات» يجد توجيهاً مناسباً وهو ان ما يؤتى به سورٌ كلٌّ منها مفتراة وبالتالي تكون باجمعها مفتريات، وليس انها بمجموعها تمثل أمراً واحداً مفترى. أما الوجه في وصف السور المطلوبات بـ«المفتريات» التي لم ترد في ايٍّ من سور التحدي فهو ـ استناداً لهذا التوجيه ـ لتشابه كلّ واحدةٍ من السور العشر التي يؤتى بها مع القرآن في بعد من الابعاد؛ وهي في الواقع لا تشابه القرآن، وبعبارة اخرى ان لكل سورة من القرآن خصائصها وامتيازاتها في عدة أبعاد لكن أياً من السور العشر من صناعة البشر لا تجمع كافة الخصائص التي تجمعها سورة واحدة في القرآن. وبناءً على هذا يتعذر القول بتشابه اي سورة من صنع الانسان مع القرآن، فاذا كان

---

١. نفس المصدر للرازي: ج ١٧، ص ١٩٤.
٢ نفس المصدر للآلوسي: ج ١٢، ص ٢٠.

القرآن كلام الله فان هذه السور هي كلام الله ايضاً، بل يجب القول بما ان أياً منها لا تشابه سور القرآن فان كلاً منها «مفترى»، وكأن القرآن الكريم يقول في المرحلة الخفيفة جداً من التحدي: انكم حيث عجزتم عن الاتيان بمثيل سورة واحدة فأتوا بشيء دون القرآن وهو عشر سور من صنع الانسان وإن كان كلّ واحدة منها ليس عدلاً للقرآن ولا تناظر القرآن في حقيقتها ولكن تشابه باجمعها سورة واحدة من القرآن.

جميع الملاحظات التي تقدم ذكرها تؤيد القول الاخير وتثبت ميزة هذا التوجيه على سائر التوجيهات.

أسس اثبات اعجاز القرآن

يجب اثبات ثلاثة امور على اقل تقدير لاثبات اعجاز القرآن، وهي امور لابدّ من توفّرها في أية معجزة اخرى: الاول هو ان النبي ﷺ يقدم القرآن بوصفه امراً خارقاً للعادة يتحقق عن طريق المدد الالهي فقط وبعنوان انه دليل على صدق نبوته. الثاني هو ان يأخذ مخاطبوا النبي ﷺ القضية بجدية وينبروا للتحقيق في القرآن والاتيان بمثله وتُبذل جهود جادة من قبلهم بهذا الصدد. والثالث هو انهم ـ وفي نفس الوقت الذي يبذلون جهوداً جادة لدراسة القرآن أو المجيء بمثله ـ يعجزون أو يدركون بوضوح عجزهم عن المجيء بمثل القرآن.

ان الاصل الاول بالاضافة الى انه مسلَّم به تاريخياً وروائياً فقد ورد جلياً في آيات القرآن، فقد طرحت آيات التحدي القضية بابسط اسلوب ودعت الناس جميعاً من أية طائفة أو مذهب وفي اي زمان ومكان كانوا للاتيان بالمثيل بحيث لا يدع مجالاً للشك والريبة امام أي انسان منصفٍ قد طالع القرآن.[1]

---

١. ينبغي الانتباه الى ان موضوع كون القرآن من عند الله الوارد في الكثير من الآيات يختلف عن موضوع بيان كون القرآن معجزة وهو الأمر الذي جرى التركيز عليه في آيات التحدي، وبناءً على هذا لا يمكن الاستناد لاثبات هذا الاصل الى الآيات التي تعتبر القرآن كلام الله ونازلاً من عند الله وحسب.

والاصل الثاني ايضاً من المسلّمات التاريخية والروائية، وان آيات القرآن تبيّن بوضوح ان مواقف المخالفين للقرآن واحكامهم الواردة في الآيات الكريمة والكتب الروائية والتاريخية شاهدة بأجمعها على هذا الاصل.

فمن ناحية كانت لدى مخالفي القرآن اقوى الحوافز للمجيء بمثل القرآن، فهم اهل الفصاحة والبلاغة والتفاخر بها، ومتعصبون لتقاليدهم واعرافهم لاسيما ثقافة عبادة الاصنام،[١] وقوم عنيدون متصلبون الدّاء متكبرون[٢] يعتبرون القرآن رمز المعارضة للصنم وعبادته، فلقد كان القرآن يرى عدم صحة اعرافهم وتقاليدهم وخرافية الصنم وعبادته،[٣] ويذم أنفتهم وتكبرهم،[٤] معتبراً اعمالهم ضلالاً وشقاءً أبدياً،[٥] وكان يصفهم بانهم قوم عديموا المنطق غفلةٌ جهلاء[٦] وان معارضتهم منبثقة عن عناد وجهل وغباء واستكبار واتّباع للشيطان وهوى النفس والاجداد،[٧] وفي نفس الوقت استخدم في آيات التحدي كل وسيلة واسلوب من شأنه تشجيعهم وحثهم واثارتهم للاتيان بمثل القرآن، وبعض هذه الاساليب عبارة عن:

التحدي من الاشد الى الأخف[٨] الذي كان من شأنه تعبئة كافة طاقاتهم وعلى

---

١. «أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهاً واحِداً إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ عُجابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ يُرادُ» ص / ٥ ـ ٦.

٢. «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ» ص / ٢، «فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا» مريم / ٩٧.

٣. «إِنْ هِيَ إِلاّٰ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ» النجم / ٢٣.

٤. «ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ» الحج / ٩.

٥. «وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً» الجن / ٢٣.

٦. «قُلْ أَ فَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ» الزمر / ٦٤، «وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ» الحج / ٨.

٧. «بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ» الملك / ٢١؛ «وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» الانعام / ٣٧؛ «وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ» الاحقاف / ١٠؛ «وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ» الحج / ٣؛ «بَلْ قالُوا إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلىٰ أُمَّةٍ وَإِنّا عَلىٰ آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ» الزخرف / ٢٢.

٨. وقد مرَّ توضيح ذلك.

ثلاث مراحل للاتيان بمثل القرآن، والربط بين القبول وعدم القبول بالقرآن وبين السعادة والشقاء الابديين.[١] والترغيب على الاستعانة بكل القدرات التي بامكانها ان تلعب دوراً في الاتيان بمثل القرآن،[٢] والتنبؤ بعدم قدرة البشر الى الأبد على الاتيان بمثيل ولو لسورة واحدة من القرآن،[٣] واعتبارهم كاذبين في زعمهم بعدم اعجاز القرآن حتى اذا لم يأت احد بمثل القرآن.[٤] والحديث عن اعجاز القرآن من الوضوح بمكان لا يدع مجالاً للشك حتى بالنسبة للثرائرة؛[٥] واعتباره حكم المخالفين بحق القرآن عجولاً ونابعاً من عدم التدبر والتعقل،[٦] واستنتاج بطلان عقيدة عبادة الاصنام من خلال النكوص عن الاتيان بمثل القرآن.[٧]

ان الامور الآنفة الذكر تمهد الاجواء الضرورية والحوافز الكفيلة لأن ينبري مخاطَبوا القرآن للمعارضة والاتيان بالمثل بحيث لو لم يحصل فعلٌ ما فانه يتنافى مع المجرى الطبيعي ولابد من تحري العراقيل والاسباب التي من شأنها إخماد هذه المحفزات.

ومن ناحية اخرى فان المخالفين قاموا بالكثير من الممارسات وعلى اختلاف صنوفها لالحاق الهزيمة بالقرآن. من قبيل شن الحروب المضنية، والدعوة الى التسامح والمساومة،[٨] والاعلان عن استعدادهم لتقديم الرشوة للنبي كي يتخلى عن دعوته؛[٩] وانكار نزول الوحي على البشر،[١٠] واثارة الشكوك حول اهلية النبي

---

١. البقرة / ٢٤.
٢. الاسراء / ٨٨، هود / ١٣، يونس / ٣٩.
٣. البقرة / ٢٤.
٤. البقرة / ٢٣، هود / ١٣، يونس / ٣٩، الطور / ٣٤.
٥. العنكبوت / ٤٨.
٦. النساء / ٨١، يونس / ١٦.
٧. هود / ١٤.
٨. «وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ» القلم / ٩.
٩. ورد في كتب التاريخ نموذج لمثل هذا اللون من تقديم الرشوة والوعد والوعيد الذي قام به المخالفون ورده الحاسم بالرفض لها.
١٠. «وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ...» الانعام / ٩١، ق / ١ و ٢.

للنبوة،[١] واختلاق الذرائع حول كيفية نزول القرآن،[٢] وافتعال الشبهات لدى تغيير أو نسخ بعض الاحكام؛[٣] والادعاء بانهم يأتون بمثل القرآن إن ارادوا؛[٤] والمطالبة بقرآن آخر أو تبديله،[٥] وإلصاق التهمة بتعلم القرآن من الآخرين،[٦] واتهام النبي بالجنون،[٧] وبكونه شاعراً،[٨] وبالافتراء على الله،[٩] وبالافك والسحر،[١٠] والأمر بدم الاصغاء للقرآن، واللغو والهذيان اثناء قراءة الآيات يتغلبوا على القرآن،[١١] بل وحتى اعتبار الحديث عن امور حقة من قبيل المعاد، سحراً.[١٢] كل ذلك من الجهود العديدة والمتنوعة التي بذلها مخالفوا القرآن وجرت الاشارة اليها في الآيات ووردت في الكتب التاريخية والروائية.

تذكر كتب التاريخ وعلوم القرآن اشخاصاً عديدين انبروا للاتيان بمثل القرآن، وقد ادركوا بأنفسهم عجزهم بعد دراستهم للقرآن، أو ان ايديهم امتدت لتأتي بشيء

---

١. «وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» الزخرف / ٣١.

٢. «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...» الفرقان / ٣٢.

٣. «وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ» النحل / ١٠١؛ و«سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا...» البقرة / ١٤٢.

٤. «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَا إِنْ هٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» الانفال / ٣١.

٥. «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ...» يونس / ١٥.

٦. «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ...» النحل / ١٠٣؛ «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً» الفرقان / ٥.

٧. «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» الحجر / ٦؛ «وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ» القلم / ٥١.

٨. «بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ» الانبياء / ٥؛ «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ» الطور / ٣٠.

٩. «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ...» الفرقان / ٤، وآيات التحدي.

١٠. «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ... فَقَالَ إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هٰذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ» المدثر / ١٨ ـ ٢٥.

١١. «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» فصلت / ٢٦.

١٢. «وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ» هود / ٧.

يشبه القرآن، غير انهم قدّموا نماذج كانت سبباً في فضيحتهم، وبرهنوا على عجز البشر عن الاتيان بمثل القرآن.[١]

ولو كانت هنالك نماذج اخرى لسجّلها التاريخ بوضوح وكانت في متناول ايدينا الآن، نظراً لأهمية القضية ووجود الاعداء الألدّاء المتربصين بالاسلام والقرآن.

في ضوء ما تقدم فيما يخص الاصول الثلاثة الآنفة الذكر، تثبت اسس الاعجاز في القرآن الكريم، ويثبت عجز البشر عن الاتيان بمثل القرآن.

وتجدر الاشارة الى هذا الأمر، وهو أنّه في ضوء ما تقدم في هذا الفصل والفصل الذي سبقه يتضح ان اعجاز القرآن يثبت من خلال طرق مختلفة بالنسبة للنبي واهل الفنّ وعامة الناس. فالنبي الذي يتسلّم القرآن بالعلم الحضوري يدرك اعجازه عن طريق العلم الحضوري أيضاً أثناء تلقيه القرآن، فيما يتمكن اهل الفن من ادراك الاعجاز عن طريق البحث والتدبّر في القرآن وخصائصه قبل الخوض في الاتيان بالمثل، كما بامكانهم ادراك اعجاز القرآن عن طريق الاتيان بالمثل وكذلك تأييد المعرفة المسبقة لاعجاز القرآن عن طريق البحث في القرآن ايضاً، وعامة الناس يدركون اعجاز القرآن عن طريق شهادة اهل الفن على اعجاز القرآن أو عدم شباهة النماذج التي يصوغها البشر مع آيات القرآن، وبعبارة اخرى عن طريق عدم الاتيان او عجز البشر عن المجيء بمثيل للقرآن، ولا ضرورة لان يثبت اعجاز القرآن للجميع عن طريق واحد أو يثبت لكل أحد بشكل مباشر.

الآن وبعد اثبات اعجاز القرآن ينبغي التطرق لبحث هذه المسألة وهي: ما هو السرّ في اعجاز القرآن؟[٢]

---

١. للاطلاع على هذه النماذج، راجع كتب التاريخ وعلوم القرآن ومنها: التمهيد في علوم القرآن، محمدهادي معرفت: ج ٤، ص ٢٢٧ ـ ٢٦١، الطبعة الاولى، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ١٤١٦.

٢. هنالك قضيتان مهمتان أُخريان في هذا المجال يجري بحثهما في معرفة الدليل. الاولى: ان دلالة القرآن ـ وكل

السرّ في اعجاز القرآن

كما تقدم فان آيات التحدي تدل على ان هذا الكتاب يفوق طاقة البشر وهو معجزة، وهنالك آيات اخرى تتحدث عن معجزات غير القرآن بالنسبة لنبي الاسلام الاكرم ومعجزات اخرى لسائر الانبياء؛ بيد ان بعض المستشرقين ادّعوا قائلين: بالرغم من ان الانبياء الماضين ـ استناداً لآيات القرآن ـ كانوا ذوي معجزات الّا ان نبي الاسلام كان يرفض فكرة اثبات النبوة عن طريق الآيات والمعجزات؛ وإن كان القرآن بحد ذاته اكبر معجزة، لكن المعجزات كانت تحصل باعتبارها عملاً يقوم به

معجزة بشكل عام ـ على صدق ادعاء النبي بالارتباط الخاص بالله ـ الوحي ـ هل هي مجرد دلالة اقناعية؟ أم انها من صنف الدلالات البرهانية والعقلية؟ أم تعاقدية؟ أم طبيعية؟ ونحن هنا نكتفي ببيان موقفنا.

ان دلالة المعجزات ومنها القرآن على ادعاء النبي هي في نظرنا دلالة برهانية وليست كلاماً اقناعياً، وان ظواهر الآيات القرآنية الكريمة فيما يتعلق بمعجزات الانبياء وكذلك اعجاز القرآن تتناسب مع هذا الفهم.

والثانية: ما هو دور النبي في المعجزات؟ ومن بين ذلك الدور الذي يؤديه نبي الاسلام فيما يخص القرآن بوصفه معجزة، وهذه المسألة جديرة بالبحث الدقيق والمفصّل؛ وهنا نذكّر بايجاز بان هنالك ثلاث رؤىً يمكن ايرادها في هذا المجال هي:

أ ـ ان المعجزة تتحقق من قبل الله فقط ولا دور للنبي فيها.

ب ـ ان المعجزة تتحقق على يدي النبي بشكل مستقل ومباشر وان دور الله فيها بمستوى دور الافعال الاختيارية للبشر.

ج ـ ان الله والنبي معاً لهما دور في المعجزة، فالمعجزات تتحقق على يدي النبي باذن الله، وان الاتيان بالمعجزة يختلف عن خلقها، وبعبارة اخرى ان الله يحقق المعجزات على يد النبي. إذاً انما تجري المعجزة عن طريق النبي وهو بذاته مؤثر في هذا المجال ايضاً.

ان دور النبي ليس تعاقدياً محضاً بل هنالك علاقة تكوينية بهذا الخصوص، من هنا فان اهلية النبي وقابليته وتكامله الروحي وطهارته الباطنية هي التي تمهّد لتلقيه المعجزة وانجازها على يديه.

وفي ضوء منطق الآيات والروايات والبحوث العقلية يتضح بطلان الرأيين الأولين، لكن الرأي الثالث بحاجة الى المزيد من الايضاح والتفصيل ايضاً، لاسيما فيما يخص القرآن الذي يُتلقى عن الله مباشرة لفظاً ومضموناً، ومن خلال نظرة أولية يبدو دور النبي ضئيلاً جداً، وهنالك مجال لمزيد من البحث وتحديد الصيغة المميزة لتأثير النبي كي يتضح هل ان دور النبي يتمثل في تبديل الالفاظ والمعاني المتلقاة بعلم حضوري الى الفاظ مادية وعلوم حصولية أم انه مجرد تلقّ للألفاظ ووضعها في متناول البشر والتوسط في نقل تلك الالفاظ المادية أم انه يكون بصورة اخرى؟

الله من خلال الانبياء الماضين، وهي لا تحصل بصورة ذات معنى على يدي نبي الاسلام.[١]

وقد اقتنع بعض المثقفين بهذا الموضوع وانبروا لتوجيهه وبيانه، فهم يعتقدون بان الاستعانة بالمعجزات والخوارق كان امراً لا مفرَّ منه بالنسبة للانبياء السابقين لان عالمهم كان مليئاً بالارواح والاسرار المذهلة والخرافات والاوهام وخوارق العادات، ولم يكن يؤثر فيهم سوى ما هو خلاف للعقل والحس مما يجعل هداية مثل هؤلاء الناس عن طريق الاستدلال العقلي صعباً بل محالاً، أما في عصر ظهور نبي الاسلام فقد اصبح الانسان داخلاً في مرحلة النضج الفكري فكان على النبي ان يوجه حب التطلع لدى الناس من الامور الخارقة للعادة نحو المسائل العقلية والمنطقية والعلمية وينقل حساسياتهم من العجائب والغرائب الى الواقعيات والحقائق، ولم يكن عبثاً اعتماد نبي الاسلام على الدليل العقلي والتجريبي والشواهد التاريخية لاثبات حقانية دعوته وان يقف بأمر من الله بوجه اصرار المنكرين والمعاندين على الاتيان بالمعجزات وخوارق العادات ويقول باسلوب وكأنه لا يُتوقع منه مثل هذا الفعل: سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَراً رَسُولاً.

انهم يرون اعجاز القرآن في ان النبيﷺ جاء بكتاب من عند الله الى قومٍ لم تكن ثمة قيمة للكتاب والخط والكتابة لديهم، ويتصدى لاثبات مدعياته من خلال الادلة الواردة فيه. ويقول هؤلاء: ليست معجزة محمدﷺ من طراز الشؤون غير البشرية وإن كانت فعلاً غير بشري، فكتابه ليس معجزة بل معجزته كتاب. فاثارة قضية الكتاب والقسم بالقلم والكتابة وسط ذلك المجتمع وتوجيه العقل البشري وقتذاك من الغرائب والعجائب نحو الامور العقلية والمنطقية بحد ذاته معجزة، ناهيك عن اثباته

---

1. W.,R.J.Z. "Miracle", Encyclopedia Britannica. The New "15 th" ed. (1974) 273.

Waida, manabu, "Miracle" The Encyclopedia of Religion, (1987) p. 547-548.

لحقانيته بالمنطق والبرهان. وان عصر ظهور الاسلام يمثل عصر إلغاء قيمة الادعاء بارتباط الاشخاص بما وراء الطبيعة، ويجب النظر للتجربة الباطنية ـ من وحي وخوارق للعادة ـ بأي مقدار غير عادي وغير مألوف كانت، بمنظار تجربة طبيعية كاملة وان تخضع للدراسة والتحليل شأنها كسائر التجارب البشرية.[١]

ينبغي ان يحظى بحث مسألة ما اذا كانت لنبي الاسلامﷺ معجزة أو معجزات اخرى سوى القرآن، بالاهتمام في بحث معرفة الدليل، ونحن هنا نذكّر فقط بان الآيات الاولى من سور الاسراء، والتحريم والقمر تتحدث عن ثلاث معجزات اخرى للنبي، وبالرغم من ان شبهات قد اثيرت حول الآيات في سورتي التحريم والقمر، إلّا ان الآية في سورة الاسراء لا تحتمل الشك بأي حالٍ من الاحوال.

كما نذكّر فيما يتعلق باختلاف اعجاز القرآن عن معجزات الانبياء الماضين، بان الفهم والتوجيه المتقدم لا ينسجم كلياً مع آيات التحدي، وكما سيأتي في بيان أبعاد الاعجاز القرآني فان كون القرآن خارقاً للعادة ـ بالمعنى الوارد في معجزات الانبياء السابقين ـ مما لا يقبل الشك من وجهة نظر القرآن والتاريخ والروايات.

لو كان اعجاز القرآن في انه يتكلم بالبرهان والمنطق وقد تجسد في اطار كتاب، فماذا سيكون مفهوم الآية الكريمة:

«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» وهل ستكون الآية الكريمة:

«أَفَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاٰفاً كَثِيراً» ذات

---

١. راجع: احياء الفكر الديني، محمد اقبال اللاهوري: ص ١٤٦، الطبعة الاولى، رسالة القلم ـ طهران، ١٣٤٦ هـ.ش، وفلسفة التاريخ من منظار القرآن، حبيب الله بيمان: ص ١٥ ـ ١٦، الطبعة الاولى، مكتب نشر الثقافة الاسلامية ـ طهران، ١٣٣٦، ودراسات اسلامية، علي شريعتي: ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧، الطبعة الثانية، طوس ـ مشهد، ١٣٤٧.

مضمون صحيح في مثل هذه الحالة؟ فهل من معنىً آخر لاعجاز الامور الخارقة للعادة التي جاء بها الانبياء السابقون سوى عجز البشر عن الاتيان بمثلها؟

يبدو ان هؤلاء المثقفين لا يمتلكون صورة صحيحة عن اعجاز القرآن وخصائصه، كما انهم اخطأوا في تصوير مفهوم المعجزة ومعجزات الانبياء الماضين.

فهم من ناحية اعتبروا معجزات الانبياء الماضين مجرد امور عجيبة وغريبة تأتي لاستقطاب انتباه الناس غير الراشدين فقط ولا قدرة لها على اثبات موضوعٍ بأي حال من الأحوال، ومن ناحية اخرى انهم يرون كون القرآن خارقاً للعادة بمعنى ظهور كتاب وسط مجتمع لا قيمة لديه للكتاب والقلم والكتابة، وكلا التصويرين خطأ ويتنافى مع ظاهر الآيات والروايات والمسلّمات التاريخية والدراسات العقلية. ان المعجزة في اي اطار ظهرت ـ سواء معجزات الانبياء الماضين أو القرآن ـ فهي لاثبات ادعاء النبي بالارتباط بالله وبعالم الغيب، وفي هذا المجال ليس هنالك اختلاف بين القرآن وسائر المعجزات، فالمعجزات في الحقيقة ضربٌ من الاستدلال البرهاني على هذه المسألة. والقرآن ـ كما تقدم ـ يتمتع بهذه الميزة ـ وهي كونه خارقاً للعادة ـ وهو يؤكد عليها.

أما الآيات التي توهَّم منها المستشرقون والمثقفون بان النبي لم تكن لديه معجزة سوى القرآن، أو ان فعلاً خارقاً للعادة لم يبدر منه بالمرّة، فهي تحتاج الى بحث مفصّل ومحلّه في بحث «معرفة الدليل»، لكننا نذكّر باختصار ان مراد الآيات ١٠٩ من سورة الانعام و٥٠ من سورة العنكبوت و٩٣ من سورة الاسراء وما شابهها ـ التي اجابت بالنفي على الدعوة للاتيان بالمعجزات ـ هو ان المعجزات تتحقق باذن الله ومددٍ خاصٍ منه وفي ظروف معينة لغرض الهداية أو اتمام الحجة، ومع وجود القرآن بوصفه معجزة بيّنة لم تكن ثمة ضرورة للرد بالايجاب على المخالفين والمجيء بالمعجزات المطلوبة.

وتوضيح ذلك: ان الاتيان بالمعجزات انما هو لغرض اثبات النبوة وتمهيد الارضية

اللازمة لايمان الناس وهدايتهم اختيارياً، أما الامور المستحيلة غير القابلة للتحقق أو الامور العادية التي لا تعدّ دليلاً على النبوة فهي خارجة عن اطار المعجزات، ولا تتحقق المعجزات لغرض اللهو أو الرد على المماطلات أو القيام بنوع من الصفقات ـ بحيث ينال المخاطبون منفعة مادية من قبل النبي، وهم في المقابل ونتيجة لهذه الخدمة يؤمنون بالنبي كي ينتفع النبي بايمانهم ـ، لكن المعجزات المطلوبة في الآيات المذكورة اعلاه كانت تمثل اموراً هي عبارة عن:

١ـ المجيء بالله والملائكة ومواجهة المشركين لهم، وهذا من الامور المستحيلة التحقق. (الاسراء / ٩٢)

٢ـ نزول عذاب لا مجال لانكاره مما يضطرهم للاستسلام، وهذا يؤدي الى ايمان غير اختياري وجبري. (الشعراء / ٤، الانعام / ٣٧)

٣ـ سقوط السماء عليهم، وهذا يسلب امكانية الهداية بدلاً من التمهيد للهداية والايمان. (الاسراء / ٩٢)

٤ـ امتلاك بستان عنب أو تمر أو بيت من مجوهرات، واي منها ليس دليلاً على نبوة من يمتلكها. (الاسراء / ٩١ و٩٣)

٥ـ تفجير ينبوع لهم ولمصلحتهم، وهذا ما جرت المطالبة به لغرض انجاز نوع من المعاملة والمنفعة. (الاسراء / ٩٠)

٦ـ عروج النبي الى السماء وانزال كتاب من السماء على المخالفين. (الاسراء / ٩٣)

فيصرح القرآن الكريم في بعض آياته: وما يدريك لعل هذه الآيات التي طالبوا بها اذا ما جاءتهم فانهم لا يؤمنون. (الانعام / ١٠٩)، أو قوله: لو فتحت لهم ابواب السماء وعرجوا اليها مراراً فسيقولون ان اعيننا ترى الحقيقة مقلوبة وقد سحرنا النبي. (الحجر / ١٥)[1]

---

١. للاطلاع على بيان وبحث مفصل لهذه الآيات، راجع: مفاهيم القرآن، جعفر سبحاني: ج ٤، ص ٩٤ ـ ١٥٤.

والرأي الثاني في اعجاز القرآن هو القول بالصرف،[١] اذ يعتقد بعض علماء السنة والشيعة ان القرآن الكريم معجزة من هذه الناحية ولا يمكن المجيء بمثيل له لان الله يسلب ممن يأتون بالمثل الحافزَ والقدرة أو تلك العلوم الضرورية للمجيء بالمثل لدى القيام بعملية الاتيان بالمثيل، أو انه يثبطهم عن كسب العلوم الضرورية للقيام بمثل هذا الفعل. ومن الواضح عجز اي انسان عن المجيء بمثيل للقرآن أو حتى سورة واحدة منه اذا ما سُلبت هذه الامور منه.[٢]

وفي الحقيقة فان القائلين بالصرف لا يرون اعجاز القرآن في القرآن نفسه، بل انهم يرون الاعجاز في سلب القدرة والحافز وعلم الآتين بالمثيل أثناء عملية الاتيان بالمثيل، من هنا قال البعض بالتلازم بين القول بالصرف وبين الاعتقاد بالجبر ـ بهذا الخصوص على اقل تقدير ـ، وقد صرّح بعض القائلين بالصرف بذلك.

من الضروري التذكير بان القائلين بالصرف لا يتفقون في تفاصيل هذا الرأي، فبعض حصر اعجاز القرآن بالصرف، وآخرون اعتبروا الصرف أحد وجوه الاعجاز؛ وجماعة قالت بالصرف في كل سور القرآن وآياته، واخرى اعتبرته خاصّاً بالسور القصيرة من القرآن، وبالتالي احتمل البعض الصرف وغير الصرف بشأن اعجاز القرآن دون ان يرجحوا احدهما على الآخر.[٣]

ومن الجدير بالذكر ان القول بالصرف لا يعني لزوم نفي فصاحة القرآن وبلاغته

---

١. هذا الرأي مشهور تحت عنوان «القول بالصرفة» ونحن نعبر عنه في هذا الكتاب بـ«القول بالصرف».

٢. للاطلاع على القائلين بهذا الرأي واحاديثهم، راجع: نفس المصدر، محمدهادي معرفت: ج ٤، ص ١٣٧ ـ ١٧٠، وعلماء المسلمين والقول بالصرفة ليعقوب الجعفري، الطبعة الاولى، المؤتمر العالمي لالفية الشيخ المفيد ـ قم، ١٤١٣.

٣. راجع المصادر السابقة، وتجريد الاعتقاد، نصير الدين الطوسي: ص ٢٨١، الطبعة الاولى، مكتبة المصطفوي ـ قم، ونفس المصدر للمجلسي: ج ٩٢، ص ١٢٧، ونفس المصدر للرازي: ج ٢، ص ١١٧؛ ج ٢٨، ص ٢٥٩؛ واوائل المقالات للمفيد: ص ٦٣، الطبعة الاولى، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد ـ قم، ١٤١٣.

الخارقة واتقان مضمونه وغناه وسائر المزايا من هذا القبيل، بل المراد ان هذه المزايا لا تبلغ حداً بحيث يُعجز عن الاتيان بمثله بسببها، وان كانت هنالك مفردات في كلمات بعض القائلين بالصرف تنم عن نفي هذه المزايا ـ في بعض الآيات على اقل تقدير ـ عن القرآن.[١]

على أية حال، لقد بحث القائلون بالصرف في اربعة محاور لاثبات مـدّعاهم،[٢] وهي:

أـ استبعاد أو صعوبة اثبات الاعجاز في سور القرآن القصار.

بـ إيراد موارد للنقض وابراز آيات أو سور ليس واضحاً اعجازها ـ في نظرهم ـ بل عدم اعجازها اكثر معقولية ووضوحاً.

جـ نقد ورفض الأبعاد الاعجازية التي اوردها القائلون باعجاز القرآن عن غير طريق الصرف.

دـ ايراد شواهد قرآنية على صحة نظرية الصرف.

وهنا نغض الطرف عن الخوض في المحورين الأولين وعن تاريخ واسباب ظـهور نظرية الصرف، وسيأتي بحث المحور الثالث ضمن بحث الشبهات المتعلقة بأبعاد اعجاز القرآن، ونتطرق فقط لذكر وبحث الشواهد القرآنية على هذه النظرية، ومن ثم ذكـر ادلة المخالفين لنظرية الصرف.

---

١. هنالك نوع آخر من الصرف يمكن تسميته بالصرف الاختياري والانتخابي وبتعبير ادق: اختيار الصرف والمراد من هذا النوع ان الصرف ليس لا يتنافى مع اعجاز القرآن فحسب بل ان لازمه كون المخالفين من اهل الفن والعلماء ومن خلال بحثهم للقرآن يصلون الى هذه النتيجة وهي عدم قدرة البشر على الاتيان بمثيل للقرآن ابداً، ويتضح هذا الأمر امامهم بحيث يعتبرون ان أي جهد يُبذل في هذا المجال عبث ولا طائل منه، ولهذا السبب ينصرفون عن المجيء بمثيل للقرآن.

٢. يستشف من مجموع كلام القائلين بالصرف ستة عشر دليلاً وشاهداً على هذا المدّعى، ولكن اتـضح مـن خلال ما جرى من بحث ان أياً منها لا يتمتع بالاتقان الكافي ولا قدرة له على اثبات المدّعى. للاطلاع على هذه الشواهد والأدلة، راجع نفس المصدر لمحمدهادي معرفت.

الادلة القرآنية على نظرية الصرف

من الممكن ايراد اربعة ادلة قرآنية للدفاع عن القول بالصرف، بعضها ذُكر فيها الصرف بصراحة، والبعض الآخر جرت الاشارة اليه او هنالك امكانية للاستناد اليه، وهذه الادلة عبارة عن:

١ـ الآية الكريمة:

«وَإِذَا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَا إِنْ هٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» الانفال / ٣١.

في هذه الآية ينقل تعالى عن المخالفين قولهم إنا سمعنا آيات القرآن ولو اردنا لقلنا مثلها. وهذا الادعاء من قِبل المخالفين دليل على انهم كانوا يمتلكون أقوالاً وكتابات توازن القرآن من بين اشعارهم ونثرهم الذي يضمه قاموس كلامهم وكتاباتهم. لكنهم لم يشاؤوا المجيء بمثيل القرآن. وبعد نقله لهذا الكلام لم يتخذ القرآن الكريم موقفاً مضاداً ويمرّ به مختاراً السكوت الذي ينم عن القبول بهذا الأمر.

ان استفادة الاعتقاد بالصرف من هذه الآية قائمة على افتراض غير صحيح أو لم يتم اثباته على اقل تقدير، وهو ان مخالفي القرآن ولدى حديثهم عن الأمر الذي نُقل عنهم كانوا يتحلّون بتعامل صادقٍ وبتعبير أدق واقعي، وقد تحدثوا بدقة عمّا كان واقعياً، بينما تدل دراسة التاريخ الاسلامي على انهم لم يتخذوا موقفاً حيادياً ازاء القرآن والنبي بسبب عصبيتهم واتّباعهم للاجداد ولاسباب اخرى على مدى الغالبية العظمى من مواقفهم، وكانوا على الدوام في صدد نفي ورفض معارف القرآن والنبي المبرهنة المتقنة.

بالاضافة الى ذلك فعلى افتراض القبول بهذا الاستنتاج فانه لا يستفاد القول بالصرف من هذه الآية الكريمة باي حال من الاحوال، بل الآية تدل على انهم لم

يبادروا للاتيان بالمثل لا ان الدافع والعلم والقدرة سُلبت منهم بعد تصميمهم على الاتيان بالمثل.

كما ان سكوت القرآن وعدم اتخاذه موقفاً سلبياً ليس دليلاً على القبول بنظرية الصرف، بل لان هذا الكلام عارٍ عن الدليل وواضح البطلان، لأنه وفي ضوء دعوة القرآن المتكررة للناس لان يأتوا بمثل سورة واحدة من القرآن لغرض اثبات حقانيته واعجازه، وهو يستخدم اكثر العبارات إثارة وتحريضاً لتشجيع الناس، وان المخالفين كانوا سيحصلون على جلّ المنفعة بتقديمهم لنماذج مشابهة للقرآن، ولتخلصوا من تلك الحروب ورؤوس الاموال الطائلة التي كرسوها للقضاء على الاسلام، ما الذي يمنعهم ـ حقاً ـ عن الاتيان أو صياغة أو ـ كما عبروا ـ قول ما يشبه القرآن ولم يصمموا على مثل هذا الأمر؟ لقد كانوا كاذبين في زعمهم هذا وكانوا آيسين من المجيء بمثل القرآن رغم ما كانوا يمتلكون من معرفة عنه.

٢ـ الآية الكريمة:

«سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» الاعراف / ١٤٦.

استناداً لنظرية الصرف، يقول تعالى في هذه الآية: ساصرف الذين يتكبرون في الارض بغير الحق عن آياتي، والمراد من الآيات إما ان يكون خصوص آيات القرآن، أو معنىً عاماً يشتمل على آيات القرآن، وان صرف المتكبرين عن آيات القرآن أو أية معجزة اخرى مشابهة للقرآن انما يأتي عن طريق سلب الناس العلم والقدرة والهمة واتخاذ القرار، وتلك هي نظرية الصرف.

ان الاستدلال بهذه الآية يبدو غير صحيح ايضاً، فاولاً: ان تخصيص مفردة

«آيات» في الآية الكريمة بالقرآن أو معجزات مشابهة له ادعاء يخلو من الدليل، والآيات تشمل جميع معجزات الانبياء على اقل تقدير، وان القائلين بالصرف لا يعتقدون بالصرف في معجزات الانبياء السابقين، وثانياً: ثمة شك كبير في ان المراد من الصرف في الآية الكريمة هو المعنى المقصود في النزاع، بل يتضح من خلال قرينة خاتمة الآية والقرينة المقامية وسياق الآيات السابقة واللاحقة والعبارات الاخرى في هذه الآية ان المراد من الصرف في الآية الكريمة هو صد المخالفين عن الايمان والتأثر به والانتفاع منه باعتبار ان ذلك عقوبة الهية.

والملاحظة بان الله يصرف المتكبرين بغير الحق عن الآيات تؤيد هذا الاستنتاج لان الصرف لا يختص بالمتكبرين بغير الحق، وثالثاً: لو قبلنا بان المراد من الآيات هو آيات القرآن والمراد من الصرف هو الصرف في مقام المعارضة والتحدي، فان المراد من الصرف هو ذاته ما صرّح به الكثير من المفسرين، وهو صرفهم عن الاتيان بمثل القرآن عن طريق اتقان الآيات وإحكامها واعجازها، أي ان الله ومن خلال جعله القرآن خارقاً للعادة ومعجزة بيّنة يمهد لإبانة اعجاز القرآن فينصرف المخالفون عن معارضتهم للقرآن باختيارهم بعد ادراكهم لهذا الأمر، لانهم يتيقنون بانه ونظراً لكون القرآن خارقاً للعادة فان اي محاولة للمجيء بمثيل له تكون بلا فائدة وعبثاً.

٣ـ الآية الكريمة:

«بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ» يونس / ٣٩.

يعتبر تعالى ـ في ضوء نظرية الصرف ـ في هذه الآية الكريمة السرّ في عدم القدرة على المجيء بمثل القرآن هو افتقار المخالفين للاحاطة العلمية بالقرآن وفقدان تأويله، وهذا الكلام اشارة الى سلب العلوم الضرورية للمجيء بمثيل للقرآن بمقتضى القول بالصرف.

يتضح من خلال التدبر في هذه الآية الكريمة عقم الاستدلال بهذه الآية الكريمة لاثبات الادعاء بالصرف، اذ لم يجر الحديث في الآية بأي وجه عن سلب العلوم الضرورية للاتيان بالمثيل؛ بل جاء الحديث عن عدم وجود مثل هذا العلم في متناول البشر، ونحصل على توضيح ذلك في الآية ١٤ من سورة هود حيث تقول:

«فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ»

فبما ان القرآن منبثق من علم الهي خاص وان مثل هذا العلم ليس في متناول الانسان ولا في حدود طاقته فلا قدرة له على الاتيان بمثله والا لو كان في مستوى افق العلوم البشرية لكان ممكناً الاتيان بمثله.

ولو لم نعتبر الاستنتاج اعلاه من الآية الكريمة هو الاستنتاج والتفسير الصحيح الوحيد للآية، فان هنالك استنتاجاً آخر ايضاً اكثر تناسباً مع ظاهر الآية من تفسيرها وفقاً لمذاق القائلين بالصرف. وفي ضوء هذا الاستنتاج الذي يحظى بتأييد الكثير من المفسرين، فان الآية الكريمة تريد توبيخ وتأنيب المعارضين للقرآن: لماذا يصدرون احكامهم بحق القرآن دون تمعن وتدبر في القرآن وفهم لمعارفه؟ فلو كان المعارضون للقرآن قد تمعنوا وتدبروا فيه وادركوا معارفه لاتضح أمامهم كونه خارقاً للعادة ولتخلّوا عن تكذيبه، مثلما لو انهم ادركوا تأويله لما اقدموا على تكذيبه، فحينما يأتي تأويل القرآن يوم القيامة سيعترف حتى المخالفون بحقانية القرآن والنبيﷺ. وفي مثل هذه الحالة تكون هذه الآية متطابقة في المعنى مع الآية الكريمة:

«وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ» الاحقاف / ١١.

في انها تعتبر السبب في عدم القبول بالقرآن وتكذيبه هو فقدان المعرفة الكاملة والدقيقة به.[١]

---

١. بغض النظر عن عدم صحة الادلة المقامة على نظرية الصرف فان هنالك انتقادات واشكالات ترد على هذه النظرية نشير الى بعضها:

والنظرية الثالثة في السر باعجاز القرآن هي النظرية التي تُجمع عليها الغالبية العظمى من علماء الاسلام وبعض العلماء من غير المسلمين وهي الاعتقاد بكون القرآن خارقاً للعادة وعدم امكانية المجيء بمثله للاعجاز في ظاهره ومضمونه.

يعتقد اصحاب هذه النظرية بان ظاهر الآيات القرآنية الكريمة وكذلك الروايات وتاريخ الاسلام يشهد على ان ظاهر القرآن ومضمونه لا يتأتى الّا بعلم وقدرة الهية خاصة، ولهذا لم يتمكن الانسان لحد الآن من المجيء بمثله دون ان يسلب الله علم المعارضين والذين يريدون الاتيان بالمثل أو قدرتهم وهمتهم.

وجوه الاعجاز القرآني

لا يتفق الذين يرون سرَّ اعجاز القرآن في ذات هذا الكتاب النفيس، حول وجوه اعجاز القرآن، فالكثير من المفسرين والمختصين بعلوم القرآن من الماضين يركزون على اعجاز القرآن في الفصاحة والبلاغة، وينفون احياناً سائر وجوه اعجاز القرآن،[١] فيما ترى طائفة اخرى ان القرآن معجزة في كافة الابعاد،[٢] وتارة تحدثوا

أ- ان التحدي يقوم على المباهاة، ووفقاً للقول بالصرف لا وجود للمباهاة لانها انما تُتصور حينما يكون للقرآن امتياز، اضف الى ذلك ان المباهاة لا معنى لها بسلب القدرة والمعرفة والهمّة، كما ان ضآلة العدد وقلته لا تنفي بأي دور في هذا المجال في حين جرى التركيز والاعتماد عليها في آيات التحدي.

ب- ان شهادة الفصحاء والحكماء من العرب وغيرهم على كون القرآن خارقاً للعادة بل وكونه من عند الله احياناً تبرهن على الميزة الخاصة الكامنة فيه وتمهّد لعدم امكانية الاتيان بمثله.

ج- لو كان اعجاز القرآن عن طريق الصرف لالتفت المعارضون وغيرهم ممن كانوا يراودونهم الى هذا الامر ولاصابتهم الدهشة لسلب القدرة والعلم والمعرفة منهم ولتحدثوا عن ذلك.

د- في حالة القبول بالقول بالصرف فمن المفترض العثور بكثرة على نظير آيات القرآن وسوره في قالب الشعر والنثر قبل نزول القرآن وبعده مما لم يكن في مقام المعارضة، والحال انه لم يقدم ولا انموذج واحد.

هـ- ان الآية الكريمة «أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً» (النساء / ٨٣) تدل بوضوح على بطلان القول بالصرف.

١. نفس المصدر للرازي: ج ١٧، ص ١٩٥.

٢. نفس المصدر للعلّامة الطباطبائي: ج ١، ص ٦٠.

عن لا نهائية وجوه الاعجاز،[١] وقالت جماعة بوجوه اعجاز للقرآن محدودة.

وقد ساقت كل فئة من الفئات الآنفة الذكر الأدلة لاثبات مدعاها، وربما تطرقت لنقد سائر الآراء ايضاً، وتحاشياً لاطالة الكلام في هذا الكتاب نتجنب نقل الرؤى المختلفة ونقدها ونتطرق لبيان وجوه من اعجاز القرآن يؤكد عليها القرآن الكريم نفسه ويمكن استشفاف هذه الوجوه من الآيات الكريمة.

التناسق وعدم الاختلاف

وقد جرى التصريح بهذا الوجه من اعجاز القرآن في الآية الكريمة:

«أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً» النساء/٨٣

ويجري التركيز على ثلاثة مواضيع فيما يخص اعجاز القرآن في مجال التناسق هي:

١ـ ان آيات القرآن تتسم بالتناسق التام في كافة ابعادها.

٢ـ هنالك تلازم وترابط وثيق بين كون القرآن من عند البشر وبين سريان الاختلاف وعدم الانسجام كثيراً اليه.

٣ـ ان هذا التلازم وذلك التناسق مما يمكن كشفهما وادراكهما بالنسبة للبشر من خلال التدبر في الآيات الكريمة.[٢]

---

١. راجع: معترك الاقران في اعجاز القرآن للسيوطي: ج ١، ص ٥، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤٠٨.

٢. الآيات التي سبقت هذه الآية تشير الى ضعاف الايمان من المسلمين الذين يمتنعون عن المشاركة في الجهاد وقد ابتُلوا بنوعٍ من النفاق، ففي الآيات الاخيرة المتصلة بهذه الآية يأمر تعالى نبيه ﷺ بالاعراض عنهم والتوكل على الله. وهذه الآية تشير في الحقيقة الى جذور تصرف هذه الفئة المنافقة وعدم استعدادهم للجهاد، فهم انما يتصرفون بهذه الصورة نتيجة لعدم اعتقادهم التام بان القرآن كلام الله، ولو انهم تدبروا في القرآن لوصلوا الى هذه النتيجة القطعية بان القرآن من عند الله، من هنا قال بعض المفسرين ان هذه الآية عطف على فعل مقدَّر واصلها هو: أيشكّون في ان ما ذكر شهادة الله تعالى افلا يتدبرون القرآن. فيما اعتبرها آخرون رداً على تساؤل طُرح على المخاطبين وهو: من اين لنا معرفة انه حقاً رسول الله؟ نفس المصدر للآلوسي: ج ٥، ص ٩٢.

ان الموضوع يمكن بحثه واثباته على ثلاث صور هي:

الاولى هي اثبات تناسق جميع آيات القرآن مع بعضها في اطار البرهان وبصورة اجمالية. فعلى سبيل المثال: يقام الدليل ـ استناداً الى الهدف من نزول القرآن والحكمة الالهية ووضع لوازم ذلك في الحسبان ـ على القول بان الهدف من نزول القرآن هو هداية الانسان نحو السعادة الابدية بأفضل اسلوب، وان عدم الانسجام والاختلاف في الآيات لا يتلاءم مع هذا الهدف، وبما ان نقض الغرض لا يتناسب مع الحكمة الالهية، اذن فقد انزل الله القرآن بصيغة متناسقة جداً، وهذا الكلام يثبت التناسق في المضمون لجميع آيات القرآن على اقل تقدير.

والثانية ان نبرهن على عدم الاختلاف في الآيات وتناسقها في كل مورد على حدة من خلال بحث انسجام الآيات مع بعضها، وهذا السبيل يتطلب ـ طبعاً ـ متسعاً من الوقت والمجال، وبالرغم من تطرق المفسرين والمختصين في علوم القرآن اليه الى حدٍّ كبير فلازالت هنالك ضرورة للمزيد من التعمق في هذا المجال.

والثالثة ان نستنتج التناسق في آيات القرآن في ضوء بعض أوصاف القرآن، فعلى سبيل المثال أن نستفيد تناسق جميع آيات القرآن بالاستناد الى صفات من قبيل المثاني والمتشابه بما مرّ من توضيح في ذيل هذه المفردات خلال الفصل الاول، أو ان نستنتج من خلال صفات من قبيل: حق وصدق التي اطلقت بشكل مطلق على القرآن بانه ليس هنالك اي موضوع باطل أو غير صحيح في القرآن، وبما ان الحقائق لا يتطرق اليها الاختلاف وعدم الانسجام فانه يثبت تناسق جميع آيات القرآن فيما بينها.

ينبغي الالتفات الى ان مجرد الادعاء بعدم التناسق في الآيات لا يكفي لنفي هذه

كما هو ملاحظ في سياق الآيات ان الآية الكريمة ترى ان تدبر المسلمين ضعيفي الايمان سبيل لادراك تناسق القرآن والتلازم الآنف الذكر.

الميزة القرآنية، ويتعين على منكري الانسجام في القرآن ان يقدموا نماذج كثيرة واضحة وناصعة لتصب في صالح مدّعاهم بحيث لا يمكن الرد عليها باي حال. وقد سبق لبعض مخالفي القرآن أن جمعوا نماذج ـ حسب تصوراتهم ـ من الآيات غير المتناسقة وقدموها، غير ان مفسري القرآن كشفوا عن خطأ هؤلاء في فهم الآيات واثبتوا وجود الانسجام أيضاً في تلك الآيات.

والموضوع الثالث لا يحتاج الى كثير من البحث فمن الواضح لو كان ثمة طريق لادراك هذا التناسق وذلك التلازم فهو التحقيق والمقارنة والتدبر في الآيات والتحري ودراسة خصائص الانسان.

أما الموضوع الثاني فهو المحور الاصلي لهذا البحث ونحن نتطرق لتوضيحه لغرض ايضاح اعجاز القرآن على صعيد التناسق، وقبل ذلك نشير الى معنى مفردتي «التدبر» و«الاختلاف».

التدبر يعني التمعن بعواقب الامور ونتائجها، والمراد من التدبر في آيات القرآن هو التفكّر في مضمون الآيات ولوازمها وملزوماتها، ولو امعنا النظر في هذا الموضوع في مضمون مفردة التدبر في ضوء الاخذ بنظر الاعتبار لوازم الآيات وملزوماتها، يتبين بوضوح وجود اختلاف كثير وتتضاعف موارده عدة اضعاف، مضافاً الى التذكير بأنه لا ينبغي النظر الى الاختلافات على انها في المدلول المطابقي للآيات فقط.

والاختلاف يعني في الاصل عدم الاتفاق وامتناع استبدال شيء بشيء آخر وذلك بسبب الخصائص الذاتية لكلٍّ منهما (التضاد) من قبيل السواد والبياض، ولكن بالاضافة الى استعمالها بمعنى التناقض والتضاد في الاستخدام القرآني وكذا العرفي، فانها تستخدم فيما يخص التفاوت ايضاً كما في الآية الكريمة:

«وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ» الروم / ٢٢.

وبناءً على هذا فان الاختلاف الذي تقصده الآية هو التناقض والتضاد وعدم

الانسجام بين الآيات وكذلك التباين في الفصاحة والبلاغة بنحو يشمل بعض الآيات التي تتدنّى عن حد الاعجاز، ولهذا السبب تزداد موارد الاختلاف سعة.

بيان التلازم

لقد اقامت الآية الكريمة تلازماً بين القرآن وبين كونه من عند البشر، بمعنى ان كتاباً بمثل هذه المواصفات اذا ما أوجده مخلوق يحمل مواصفات الانسان فستشاهد فيه الكثير من موارد الاختلاف.[١] وبناءً على هذا يتعين علينا البحث في ظروف واسباب حدوث الاختلاف في كلا طرفي التلازم.

خصائص الانسان

ان للانسان تكاملاً تدريجياً، فهو لا يتمتع بأي كمال في بداية ولادته تقريباً، وتتفتح كمالاته الاكتسابية وغير الاكتسابية تدريجياً حتى تصل الى مرحلة الفعلية، وهذا التكامل يشمل مجالات اكتساب المعرفة وتعلّم العلوم وكسب القوة والقدرة والظفر بالمهارات والروحيات والخصال، ومن الطبيعي ان يكون له اختلاف ملموسٌ في نتاجات الانسان على مر الزمان.[٢]

ان قابلية الانسان للتأثّر وللخطأ هي من بين العوامل التي لها دور مهم في ظهور الاختلافات على آثار الانسان، فالتغير المستمر في الظروف الخارجية والداخلية

---

١. لم يجر التركيز ـ طبعاً ـ في الآية الكريمة على الانسان خاصة، ولكن نظراً لأن المحور الاصلي لبحث اعجاز القرآن والنظريات المخالفة والموافقة له هو كونه في حدود طاقة الانسان أو فوقها فيكفي الاخذ بنظر الاعتبار خصائص الانسان لاثبات اعجاز القرآن في بُعد التناسق، بالاضافة الى ان اغلب هذه الخصائص لا تقتصر على الانسان وهي تشمل سائر المخلوقات ايضاً.

٢. من هنا غالباً ما يعيد الكتّاب والشعراء النظر في نتاجاتهم على مر الزمان، وقد يرون احياناً عدم صلاحية آثارهم الاولى للنشر.

للانسان وتعدد عوامل التأثير وتنوعها، يؤدي الى ان يصنع الانسان آثاراً غير متناسقة ومتضادة احياناً لاسيما وان هذا التأثير يطرأ بصورة غير واعية في الكثير من الاحيان.[١] كما ان ارتكاب الانسان للخطأ يؤدي بالانسان لأن ينقض ما سبق أن قاله، نتيجةً لادراكه لأخطائه، ونظراً لأنه تحدث سابقاً بما يتنافى مع فطرته، فهو يظهر في ظروف اخرى ليدلي بما تقتضيه فطرته أو يخالف قوله السابق.

من ناحية اخرى ان الناس خلقوا مختلفين من حيث المواهب، فكلٌ منهم يمتلك مواهب استثنائية في بعض المجالات لكنه لا يتجاوز الحد الادنى أو المتوسط في سائر المجالات، وهذا يؤدي الى ان تختلف الآثار التي يتركونها بما يتناسب مع مجالاتهم، كما ان ثمة قيوداً تحدد كلاً منهم من ناحية اكتساب الكمالات وليست هنالك امكانية لبلوغ كافة الكمالات وبأعلى المستويات، وكل واحد يحصل على بعض الكمالات ويبلغ ذروة الكمال، والامور الآنفة الذكر هي التي تؤدي الى حدوث اختلاف في آثارهم. ان الاختلاف في المواهب والتقييد في اكتساب الكمالات بما يتناسب وتعدد الكمالات وتنوعها وتخصصية العلوم والفنون يقترن بكثرة مجالات الاختلاف ويُفصح عنها.[٢]

---

١. ان تأثير شتى الظروف الخارجية والداخلية من قبيل الاستقرار والطمأنينة، الفقر والانفراج، الشيخوخة والشباب، الصحة والمرض، الفراغ والانشغال وما شابه ذلك، في سلوك الانسان وافكاره أمر يلمسه الانسان في حياته الشخصية، وتشهد على ذلك الكثير من التجارب وتؤيد صحته الآيات والروايات، لاسيما الآثار الذهنية والخطية للانسان التي تحتاج الى استجماع الذهن وتوظيف دقيق للقوى الذهنية، فهي تصاب بالتهافت والتناقض في ظل تأثير الظروف المختلفة.

٢. يمكن ان نأخذ ـ على سبيل المثال ـ احدى مواهب الانسان من قبيل نظم الشعر، اذ يبدو للغرباء على هذا الفن للوهلة الاولى ان اقسام الشعر باجمعها على نمط واحد وان كل انسان له القابلية على نظم الشعر وانشاده على وتيرة واحدة في كافة المجالات، ولكن يتضح من خلال دراسة دقيقة ان المجالات الانسانية متنوعة بنحو يجعل من الصعوبة امكانية المقارنة بين الشعراء انفسهم ويتبين ان بعض الشعراء يبرع في الغزل العرفاني، وان آخرين في الشعر الملحمي، وآخرين في الوعظ، وغيرهم في سائر المجالات؛ ولا يتسم شعر ايٍّ منهم بكثير من الروعة والتألق في المجالات الاخرى.

وبطبيعة الحال، فان للظروف الخارجية الضرورية لتفتُّح المواهب واكتساب الكمالات تأثيراً مهماً ايضاً في هذا المضمار، وبعبارة واحدة ان التكامل التدريجي والقابلية للخطأ والتأثر والتباين بالمواهب ومحدوديتها من الخصائص التي لا تنفك عن الانسان، وان كلاً منها تسبب في ظهور التباين والتضاد في آثار الانسان لاسيما الآثار الفكرية والعلمية.

خصائص القرآن

ان ظروف النزول واوضاعه واحواله وفترته وبعض خصائص القرآن الكريم جاءت بنحو ينسجم مع مقومات الانسان وخصائصه المثيرة للاختلاف؛ فمن ناحية ان القرآن نزل على النبي على امتداد ٢٣ عاماً وقد قرأ النبيﷺ آياته على الناس، ومن المفترض ان تشاهد عليه آثار التكامل التدريجي لو ان القرآن كان من عند البشر، ومن ناحية اخرى ان النبيﷺ وعلى امتداد هذه السنوات الـ ٢٣ مرَّ بظروف واوضاع واحوال شخصية واجتماعية واقتصادية وسياسية متقلبة جداً وبمنعطفات وتطورات غير متجانسة نصت عليها المصادر التاريخية المتعلقة بفترة صدر الاسلام وسيرتهﷺ الذاتية وحياة اصحابه ويَدل عليها بوضوح منطق الآيات وبيانها. كما ان الآيات القرآنية الكريمة نزلت على النبيﷺ في السفر والحضر، في الحرب والسلم، في الظروف العادية والمتأزمة، وهذه الخصائص توفر الارضية لان تتأثر افكار النبيﷺ باطنياً وخارجياً بالعوامل المختلفة.

وفي البعد الثالث هنالك ميزة الشمولية اذ ان آيات القرآن الكريم تنطوي على

من هنا ليس من الصحيح مقارنة أحدهم بالآخر ـ لذلك عندما سُئل أمير المؤمنينعليه السلام مَنْ هو افضل شعراء العرب، يقولعليه السلام:

«ان القوم لم يجروا في حلبةٍ تُعرفُ الغاية عند قصبتها، فانْ كان ولابد فالملك الضَّليل ـ امرؤ القيس ـ». نفس المصدر للشريف الرضي: الحكمة ٤٥٥.

مسائل مختلفة ومتنوعة فلسفية واخلاقية واقتصادية وعرفانية واجتماعية وغيرها؛ وان الدخول في هذه الدوائر المتعددة والحديث في كلٍّ منها من قبل شخص واحد وفي ضوء التباين في قابليات الانسان وحدوده، يستدعي بروز التناقض وعدم الانسجام سواء في الكلام والحديث والالتزام بالقوانين الادبية أو في المضمون وترابط مختلف المسائل والموضوعات.

في ضوء ما تقدم، يتضح ان المجيء بكتاب بهذه المواصفات وفي ظل مثل هذه الظروف والاوضاع والاحوال، من قِبلِ انسانٍ يتسم بتلك الخصائص التي لا تنفك عنه والمثيرة للاختلاف، سيتلازم مع بروز اختلاف كبير لاسيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار ملازمات الآيات مع بعضها ووضعنا في الحسبان الاختلاف في بُعدي البيان والمضمون.

بيد ان البحث في القرآن ـ كما يؤكد القرآن بذاته ـ يوصلنا الى هذه النتيجة وهي ان ثمة تجانساً تاماً بين آيات القرآن سواء من حيث البيان أو من حيث المضمون، وان الاختلافات التي تبدو للوهلة الاولى تتضاءل من خلال التأمل والدقة في بيان الآيات ومضمونها ويتكشف التجانس القائم بينها، وهذا التجانس دليل على انه معجزة وانه من قبل الله.

وتُستشف نتيجة اخرى مهمة من عدم وجود الاختلاف في القرآن هي تنزيه القرآن عن كل ما هو كاذب وباطل، لانه وفي ضوء اشتمال القرآن على الحقائق فلو كان فيه موضوع كاذب وباطل، فانه يُفترض بروز اختلاف في القرآن لعدم انسجام الحق مع الباطل.

كما ان عدم وجود الاختلاف في القرآن ينفي عنه التحريف بما يمثله من زيادة أو تغيير ـ بنحو يغيّر مفاد الآيات ويبدّل مضمونها من حقٍّ الى باطل ـ لأنه ومن خلال تحريفه بالزيادة عليه، بالاضافة الى ما قد يضاف الى مضمون القرآن مما هو باطل، أو

ان يتبدل موضوع قرآني حقٌ الى كلام باطلٍ من خلال التغيير الحاصل الذي يخلق تناقضاً بين الحق والباطل، فانه يتدنّى الى ما هو ادنى من مستوى القرآن من حيث الفصاحة واليلاغة ايضاً ولابد حينها من الشعور بعدم الانسجام من هذه الناحية. وسيأتي المزيد من توضيح لدلالة اعجاز القرآن على حصانته من التحريف والتلازم بينهما في بحث كون القرآن مصوناً من التحريف.

بحث عدة شبهات

نتطرق الآن لبحث بعض الشبهات المثارة حول «اعجاز القرآن في تناسقه وعدم اختلافه».

١ـ وُجدت في القرآن مواردُ من التناقض وقام أناسٌ بجمعها، وبناءً على هذا فان القرآن لا يخلو من التناقض والاختلاف، ويمكن الاشارة على سبيل المثال الى تناقض وعدم تجانس الناسخ والمنسوخ وهو أمر توجد عدة نماذج منه في القرآن.

الجواب

لقد شخّص مفسروا القرآن الكريم هذه الموارد التي تبدو متناقضة للوهلة الاولى وجرى توجيه وعلاج التناقض الظاهري والاوّلي فيما بينها، وقد وردت تلك الموارد مع سبل علاجها في كتب التفسير وعلوم القرآن.[١] إلّا ان بعض المغرضين بادروا الى جمع تلك الموارد من جديد مع حذف الاجوبة عليها وسبل علاجها واعادوا إثارتها بوصفها شبهات جديدة، وتصور البعض ـ نتيجة لجهلهم بقواعد الحوار أو الغفلة عن استثمارها لعلاج هذه الموارد ـ تناقض الآيات وعدم امكانية علاجها.

---

١. راجع: نفس المصدر للمجلسي: ج ٩٢، ص ١٤١ ـ ١٤٦، والبيان في تفسير القرآن للخوئي: ص ٩٨ ـ ١٠٤، الطبعة الثانية، مطبعة الآداب ـ النجف، ١٣٨٥، ونفس المصدر لمحمد فاضل القمي: ص ٩٢ ـ ٩٩.

ان آيات الناسخ والمنسوخ التي ذُكرت على انها اوضح مصاديق الاختلاف في القرآن، لا تُعد ـ استناداً لقواعد الحوار ـ تناقضاً ومصاديق للاختلاف، لاسيما وان المتكلم ـ على صعيد نسخ آيات القرآن ـ لدى وضع الحكم المنسوخ، كان عالماً بانه مؤقتٌ وكان عازماً على نسخه في المستقبل، لكنه لم يفصح ـ لمصلحة معينة ـ عن مرحلية الحكم المنسوخ، أو لم يتحدث عنه بصراحة.

وبهذا فان الناسخ والمنسوخ في القرآن على غرار المورد الذي يُعلن فيه عن حكم مؤقت ومن ثم يوضع حكمٌ جديد بعد انتهاء فترته. ومن الواضح أن ايّ انسان لا يرى التناقض والاختلاف بين هذين الحكمين في مثل هذه الظروف.

٢ـ تفيد الآية الكريمة: لو كان القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. ولازم مثل هذا الكلام هو بما ان القرآن من عند الله فليس ثمة اختلاف كثير فيه، أو نظراً لعدم وجود اختلاف كثير في القرآن فهو إذن من عند الله، ومعنى هذا الكلام امكانية وجود قليل من الاختلاف في القرآن، بينما وجود الاختلاف القليل أيضاً دليل على عدم كون القرآن من الله، بالاضافة الى ذلك واستناداً الى ما ذُكر في مجال خصائص الانسان وتسببها في ظهور الاختلاف، فلابد من وجود اختلاف كثير في أي كتاب يأتي به الانسان بينما توجد كتب يقل فيها الاختلاف كثيراً.

الجواب

كما مرَّ في توضيح التلازم فان الآية كانت بصدد بيان هذا الأمر وهو: لو كان القرآن إفرازاً لفكر الانسان لوُجد فيه اختلاف كثير نتيجةً للخصائص الآنفة الذكر في الانسان، وحيث انه كلام الله فلا وجود لسمات الانسان فيه أي لا وجود للاختلاف فيه، وبعبارة اخرى ان مفاد الآية هو: لو كان هذا الكتاب من تأليف الانسان لظهر فيه

الاختلاف ولكان ذلك الاختلاف كثيراً، وذلك ما يصطلح عليه بالقيد التوضيحي وليس الاحترازي.[١]

وثمة محور تلازم في الآية الكريمة هو تلازم القرآن مع خصائصه. اذن الكلام لا يدور حول وجود اختلاف كثير في أيّ كتاب يؤلفه الانسان، وان أي كتاب يأتي به الله لا وجود للاختلاف فيه، بل المراد ان هذا الكتاب ـ القرآن ـ بما فيه من خصائص لو قدِّر له ان يكون بشرياً لظهر فيه اختلاف كثير.

٣ـ ان اعجاز القرآن في مجال التناسق ينطوي على كافة ابعاد آياته بينما لا تتساوى آيات القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة بل ان بعضها اكثر فصاحة وبلاغة من بعضها الآخر. وبناءً على هذا فان في القرآن تبايناً واختلافاً من حيث الفصاحة والبلاغة.

الجواب

كما هو واضح من ظاهر الآية فان المراد من الاختلاف والتباين هو ذاك الذي يدل على انه من عند البشر وليس من عند الله، وان القبول بالتباين في فصاحة وبلاغة الآيات في حالة عدم نفي كونها خارقة للعادة لا يستلزم كونها من عند البشر،

---

١. هنالك ملاحظة اخرى في عبارة «لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» هي ان الله أراد لدى اثبات اعجاز القرآن، التركيز على أمرٍ يسهل تشخيصه وبالتالي يسهل ادراك اعجاز القرآن، فلو قيل نظراً لوجود تجانس تام في القرآن فهو معجزة لكانت ثمة حاجة لقطع مراحل والقيام ببحوث كثيرة لبحث تناسق جميع آيات القرآن مع بعضها، كي يثبت تجانس كافة الآيات فيما بينها في كافة الابعاد، لان السبيل الأوحد لاثبات ذلك بالنسبة لمعارضي القرآن الذين لا يؤمنون بنبوة نبي الاسلام ﷺ ولا يعتبرون القرآن كلام الله، هو بحث آيات القرآن مورداً مورداً، ولكنه الآن حيث جرى التركيز على وجود الاختلاف الكثير يصبح من الممكن بيان لزوم ظهور ووجود الاختلاف الكثير لو لم يكن القرآن من عند الله، وكذا ادراك عدم مشاهدة اختلاف كثير في القرآن ايضاً.

بالاضافة الى ان هذا التباين سببه التغافل عن ترابط مجموع الآيات فيما بينها والمثلة بها، والّا فاننا سنصل في ضوء كافة المقتضيات الى هذه النتيجة وهي انها هي الافضل بالنظر الى كل آية في موقعها وبالنظر الى المجموع بما انه كلّ واحد.[١]

الفصاحة والبلاغة

بالرغم من عدم وجود آية أو عبارة في آيات التحدي تدل بوضوح على اعجاز القرآن في الفصاحة والبلاغة، ولكن في ضوء ما سيأتي لاحقاً يتضح ان هذا الوجه من الاعجاز كان مقصوداً في الآيات.

لقد كان الانبياء يأتون لامهم بمعجزات تنسجم مع ما كان شائعاً ومهيمناً في زمانهم ومن سنخه كي يثبت اعجازها بأجلى صورة.[٢] ففي عهد موسى عليه السلام كانت الشعوذة والسحر قد بلغت ذروتها، فجاء عليه السلام بمعجزة تشابه السحر الشائع وتتذاك أي

---

١. آر. بري أحد مشاهير مترجمي القرآن باللغة الانجليزية، بالرغم من انه مسيحي لكنه يرى هذا الرأي فيما يخص المضمون المتناسق للقرآن، فهو يعتقد: هنالك مضمون قرآني متميز في القرآن له كامل القدرة والتأثير، لكننا اذا اخذنا بنظر الاعتبار آيات قرآنية مقطعة فهي تبدو كالجسد بلا روح حيث يفتقد روحه، وفي معرض نقده لرؤية الذين استنتجوا عدم الانسجام والاختلاف في القرآن بتقطيعهم الآيات والسور وربط كلّ قسم بحدث معين من عهد النبي صلى الله عليه وآله، يقول: ان هؤلاء المحققين الافاضل وبعد تقطيعهم لجسد الوحي إرباً إرباً ألفوا بين ايديهم جسداً قد هربت روحه من امام عقولهم المتحجرة، وهكذا وثبوا لشرح وبيان شيء كانوا عاجزين عن بيانه متوسلين بآلة بالية، فتحطمت اجنحة الوحي المحلّقة بين اصابع كانت تبحث وهي عمياء قطر ـ الوحي ـ على هيئة غبار. ويقول في خاتمة مقدمة القسم الثاني من ترجمته: في مثل هذه الحالة لن تأتي الاختلافات الطارئة في موضوع السياق بالمشكلات التي تحيّر النقاد الطموحين مما يضطرهم لأن يكيلوا بحر البلاغة النبوية باصابع التفكيك والتحليل بصورة باردة وبلا روح.

٢. وردت هذه الملاحظة في الروايات ايضاً، فقد جاء في رواية عن الامام الرضا «عليه آلاف التحية والثناء» انه اجاب بهذا الجواب على سؤال ابن السكيت: لماذا كانت معجزة موسى عليه السلام اليد البيضاء، ومعجزة عيسى عليه السلام الطب، ومعجزة نبي الاسلام الكلام والحديث؟ وحينها قال ابن السكيت: «تالله ما رأيت مثلك اليوم». راجع: نفس المصدر للحويزي: ج ١، ص ٤٣.

تبديل العصا الى افعى، وفي عهد عيسىعليه السلام حيث بلغ الطب اعلى مستوياته وسط المجتمع، كانت معجزتهعليه السلام احياء الموتى وشفاء العمي الذين يولدون عمياً. بناءً على هذا، بما ان الفصاحة والبلاغة كانت شائعة بكثرة في زمن نزول القرآن وتفوق العرب المعاصرين لنزول القرآن في هذا المجال، بل ان تفوقهم في الفصاحة والبلاغة على الامم المعاصرة لهم على اقل تقدير كان من المسلّمات التاريخية، فان تناسب المعجزات مع علوم عصرهم يقتضي بان يكون لمعجزة نبي الاسلامصلى الله عليه وآله هذا الوجه من وجوه الاعجاز وان تتحدى مخاطبيها به.

من ناحية اخرى ان اعداء النبي ومن ادعوا النبوة في عهدهصلى الله عليه وآله وبعده بقليل ركّزوا على هذا البعد في باب المجيء بمثل القرآن، وصاغوا نماذجهم بما يشابه القرآن من حيث الصياغة والنغمات، أو انهم اشاروا الى مثل هذا الأمر لدى عجزهم، وان نسبة الشاعرية للنبي تنم عن ذلك أيضاً.

ان المخاطَبين الأُول للقرآن في آيات التحدي كانوا أُناساً لا يتمتعون بتألقٍ متميز من الناحية الثقافية وسائر الوجوه الاعجازية المطروحة بشأن القرآن كي نقول ان ظاهر الكلام في الآيات التي تتحداهم هو استثنائية مضمون القرآن، بل وكما تقدم ان الفصاحة والبلاغة هي التي كانت تحظى باهتمامهم وكانت تشكل البعد البارز في ثقافتهم.

الفصاحة تعني جذابيّة الكلمات وروعة التلفظ بها وكون الكلام ذا جرس حلو في الأسماع. أما البلاغة فتعني السلاسة والفصاحة والمتانة في التعبير لإفهام المقصود. وقد وضع المختصون بالعلوم الادبية ضوابط كثيرة جداً لهذين الموضوعين وحددوا قواعد واصولاً لتوفير هذين البعدين في منطق الانسان، فالجذابية وروعة النطق ومداعبة الاسماع بالجرس الحلو لها ارتباط وثيق مع المضمون المؤثر، وان المضمون المتميز

للقرآن كان موضع اهتمام منذ بداية نزول القرآن.[١] وهو موضع اهتمام العلماء حتى الآن ايضاً.[٢]

ان بيان المختصين في العلوم القرآنية والمفسرين البلغاء والادباء لمختلف ابعاد الفصاحة والبلاغة في القرآن يغنينا عن دخول هذا الوادي وايضاح هذا البعد من الاعجاز القرآني، كما ان شهادة كبار الادباء العرب منذ صدر الاسلام وحتى الآن على خروج فصاحة القرآن وبلاغته عن طاقة البشر، افضل دليل على إلهية القرآن من هذه الناحية.[٣] ان حصيلة ما جاء به اعداء القرآن كنظير له بعيدٌ عن فصاحة وبلاغة

---

١. ورد في كتب التاريخ ان النبي الاكرم ﷺ كان يقرأ الآيات القرآنية اثناء صلاة الليل بصوت مؤثر، وكان ابوسفيان وابوجهل والاخنس بن شريق ـ وهم من اقطاب اعداء الاسلام ـ يخرجون تحت جنح الظلام من بيوتهم ويستمعون لصوت القرآن الدافئ، وفي احدى الليالي خرج كلٌّ منهم سراً دون ان يعرف بعضهم ببعض واستمعوا لتلاوة النبي ﷺ، وبعد ان انتهى ﷺ من التلاوة عادوا فجراً الى بيوتهم، وصادف ان التقوا في الطريق فتلاوموا فيما بينهم وقالوا إياكم وهذا العمل مرة اخرى لان البسطاء من الناس اذا ما عرفوا بهذا الأمر سيشككون بما لقنّاهم من خرافات، ثم تفرقوا. ولما حلّت الليلة التالية عاد كلٌّ منهم الى مكانه في الليلة الماضية رغم ذلك الاعتراض والتأنيب واستمعوا حتى الصباح لصوت القرآن، ولدى عودتهم الى بيوتهم التقوا واعادوا ذات الكلام الذي دار بينهم في اليوم السابق ثم تفرقوا.

وفي الليلة الثالثة ـ وكأن قوة الجذب الباطنية ساقتهم نحو بيت النبي ﷺ ـ عادوا فانشغلوا في نفس اماكنهم في الليالي السابقة بالاستماع لآيات القرآن حتى الصباح، وفي هذه المرة التقوا ايضاً في طريق عودتهم فقال بعضهم للآخر: كي نتحاشى المشاكل وامكانية التحاق الآخرين بالاسلام فلنتعاهد على ترك هذا الأمر الى الأبد، وهكذا فعلوا. راجع: السيرة النبوية لابن هشام: ج ١، ص ٣١٥، الطبعة الثانية، دار الوفاق ـ بيروت، ١٣٧٥.

٢. يقول آر. بري حول الجرس القرآني الرائع: كلّما اردت التوصل الى السر في هذه القوة العجيبة التي ينطوي عليها قرآن المسلمين فانني اعود الى جرسه، وعندما اتحدث مع أحد اصدقائي العرب حول هذه القوة فانه يرد قبل ان اتفوه بما أُريد موضحاً ذات الموضوع الذي اقصده بهذه العبارات: كلما طرق سمعي صوت قراءة القرآن فكأنني استمع الى انغام الموسيقى، وخلال فترة هذه القراءة أقع تحت تأثير هذه الانغام الرائعة العجيبة فيطرق اسماعي صوت رنات مستمرة لطبل صغير. ثم يضيف: وهذا الطبل يتناسق تماماً مع نبضات قلبي. راجع: نفس المصدر لـ«آر. بري».

٣. قال الوليد ـ وهو كبير ادباء العرب وحكمائهم وبن اعداء الاسلام والقرآن ـ بعد سماعه لآيات القرآن: «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وانّ له لحلاوة وان عليه لطلاوة وإن أعلاه

القرآن بالقدر الذي يعي كل عارفٍ بالادب العربي عدم امكانية مقارنته الى آيات القرآن.[١] لكننا نتطرق بايجاز ـ على سبيل المثال ـ الى واحدٍ مما جيء به كمثيل خلال القرن الاخير من قبل المراكز الاستعمارية لمناوءة القرآن، ونذكّر بان هذا الانموذج هو الافضل مقارنة بالنماذج الاخرى.

في عام ١٩١٢م اصدرت مطبعة انجليزية ـ امريكية في بولاق مصر نشرة في نقد الاعجاز القرآني والرد عليه وادّعت فيها ان سورة الفاتحة لا تتمتع ببلاغة تامة وهنالك حشو وزوائد وامور معادة فيها، وليس الاتيان بمثل هذه السورة ممكناً فحسب بل الاتيان بأفضل منها ممكن ايضاً، وورد في هذه النشرة ايضاً:

حبذا لو أن مؤلف القرآن قرأ بدلاً عن سورة الفاتحة ما كان تحدث به بعض منكري اعجاز القرآن: «الحمد للرحمن رب الاكوان الملك الديان لك العبادة وبك المستعان اهدنا صراط الايمان» اذ انه جاء بالمضمون موجزاً وفي نفس الوقت جمع مضمون سورة الفاتحة باكمله، وتخلص من ضعف التأليف والامور الزائدة وخرج عن القوافي الركيكة مثل رحيم ونستعين.[٢]

حريٌّ بنا التذكير في البداية ان آية «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» احدى آيات سورة الفاتحة دون اي اختلاف في وجهات النظر، وتكمن فيها امورٌ عجيبة ومهمة جداً غفل

لمثمر، وان اسفله لمغدق وانه ليعلو ولا يُعلى عليه». فقال له ابوجهل: انما مدحت القرآن بهذا المدح لغرض تأمين معيشتك! فاجابه الوليد: الجميع يعلم انني اغنى الكل، فقال له ابو جهل: ان اردت ان لا يقال فيك هذا فقل في القرآن شيئاً، لكنه يردّ بان لا نقص فيه، فيقول له ابو جهل: قل ما شئت، فيفكر الوليد ثم يقول: «إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هٰذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ» المدثر / ٢٤ ـ ٢٥.

راجع: نفس المصدر لرشيد رضا: ج ١، ص ١٩٩، ونفس المصدر للطبرسي: ج ٥، ص ٣٧٨.

١. على سبيل المثال، فيما يلي جانب مما جاء به مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة: والمبذّرات زرعاً والحاصدات حصداً والذاريات قمحاً والطاحنات طحناً والخابزات خبزاً والثاردات ثرداً واللاقات لقماً....

٢. حسن الايجاز في إبطال الاعجاز، نصير الدين ظافر، الطبعة الاولى، المطبعة الانجليزية ـ الامريكانية ـ مصر (بولاق) ١٩١٢.

عنها مؤلف مقالة حسن الايجاز ولم يتطرق اليها، ونحن بدورنا نغض الطرف عنها لان المفسرين وكذلك مؤلفي كتب اسرار الصلاة قد تحدثوا حولها كثيراً،[١] ونتطرق لبحث سائر الآيات:

١ـ كان ابداع المؤلف الوحيد في العبارة الاولى تبديل مفردة «الله» بـ«الرحمن» ظناً منه بعدم الحاجة لذكر الله، وبوضعه لمفردة «الرحمن» بدلاً من مفردة «الله» يكون قد راعى الاختصار، وقد ضمّن هذه العبارة الموجزة كافة الامور التي تدل عليها مفردات «الله» و«الرحمن» و«الرحيم» في الآية الثالثة، ولكن هنالك امور ضاعت بهذا التبديل هي:

اولاً: ان الآية الكريمة تقصد بيان اختصاص كافة انواع الحمد بالله تعالى من خلال الاشارة الى دليلها وعلّتها،[٢] وبناءً على هذا فان ثمة ضرورة لإيراد مفردة الله، وذكر الرحمن والرحيم كصفتين لله. وتوضيح ذلك: في نظر القرآن ان جميع المخلوقات ذات خَلقٍ حسنٍ وهي باجمعها مخلوقات الله، وعليه حيثما وُجد حُسن فهو يُنسب الى الله، وبالتالي اينما يكون الحمد فهو مختص به تعالى.

الحمد هو الثناء على الكمال أو إنجاز فعلٍ اختياري،[٣] وان كافة مخلوقات الكون هي في نظر القرآن فعل اختياري لله،[٤] وكلها حسنٌ،[٥] وله تعالى كافة الكمالات،[٦] وبناءً على هذا فان الثناء كله مختص بالله ويجب ان يكون له.[٧] ومن ناحية اخرى ان

---

١. راجع على سبيل المثال، تفسير سورة الحمد واسرار الصلاة للامام الخميني.

٢. المراد بالدليل، البرهان الذي يُورد على اختصاص الحمد بالله، والمراد من العلة، الامور الخارجية التي بسببها يثني الناس على الموجودات.

٣. راجع كتب اللغة ومنها: اقرب الموارد.

٤. «قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» الرعد / ١٦.

٥. «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» السجدة / ٧.

٦. «وَلِلّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها» الاعراف / ١٨٠.

٧. تجدر الاشارة الى ان «الله» علمٌ ذات واسم جامع لله، من هنا قيل ان هذه المفردة اسم ذات فيها كافة الصفات الكمالية، ولكن ثمة اختلاف في الرأي حول علمية «الرحمن» بالنسبة لله، والرأي الغالب هو خلاف ذلك وفي

الذين يثنون على موجود إما بسبب الكمالات أو المزايا المتوفرة في ذلك الانسان أو لشكره على النعم التي انعم بها عليه أو طمعاً بالنعم والمواهب المستقبلية أو خوفاً من العقوبات المرتقبة، وان مفردة «الله» تشير الى الدافع الأول، و«رَبِّ الْعَالَمِينَ» الى الدافع الثاني، و«الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» الىٰ الدافع الثالث، و«مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» الىٰ الدافع الرابع. ومن خلال هذا البيان تنوه الآيات الى ان الانسان اذا ما اراد مدح موجود لاي دافع أو علة كانت فعليه ان يحمد الله، وبناءً على هذا فان الحمد كله مختص بالله ويجب ان يكون له.

من خلال هذا البيان يتضح الارتباط الوثيق بين هذه الآية والآيات التالية لها، بينما لا وجود لأي ترابط واضح بين عبارة «الحمد للرحمن» وعبارة «رب الاكوان».

٢ـ في المقطع الثاني استبدل المؤلف بكلمة «العالمين» لفظة «الاكوان» فقط، وان القارئ البصير يدرك بقليل من التأمل ان هنالك انسجاماً تاماً بين صفة «رب العالمين» في عبارة الحمد لله، وصفة الرحمن الرحيم، كما يدرك جيداً انعدام الترابط المعقول بين «رب الاكوان» و«الحمد للرحمن» و«الملك الديان»، وبغض النظر عن هذه المزية، فان اكوان جمع كَونْ وتعني التكوّن والحدوث والصيرورة، واضافة كلمة «رب» لهذه المفردة بايٍّ من المعاني المتقدمة كانت فانه لا وجه له، اضف الى ذلك ان مفردة العالمين تدل على وجود عوالم متعددة ومخلوقات ذات شعور وهذا ما لا يستفاد من مفردة اكوان.

٣ـ الرحمن الرحيم: لقد تصور مؤلف حسن الايجاز بان عبارة الحمد للرحمن

هذه الحالة ليس واضحاً الوجه في اختيار الرحمن لاداء هذا المفهوم لانها تدل على واحدةٍ من صفات الله، ومهما قلنا في توسيع معناها فهي لا تشمل حتى الرحيم على اقل تقدير، وبهذا لا ينسجم الدليل مع المدّعى، بالاضافة الى انه في حالة القول بعلمية «الرحمن» يقع اختلاف في جهة العلمية، اذ ان الله بلحاظ كونه اسماً جامعاً، والرحمن بلحاظ سعة الرحمة ومداها التي لا تصدق على غير الله، وبهذا ايضاً يتضح ان الله تتناسب مع الحمد وليس الرحمن لانها لا تشمل كافة الكمالات الالهية.

تنطوي على مفاد الرحمن الرحيم غافلاً عن ان الرحمن تدل على سعة الرحمة الالهية وشمولها لكافة البشر أو المخلوقات، وان الرحيم تحكي عن الرحمة الالهية الدائمة والابدية التي تخص المحسنين؛ بالاضافة الى انها تُبرز مظاهر الربوبية الالهية التي جاءت في الصفة السابقة من ناحية، وان مفردة الرحيم ـ الرحمة الخاصة ـ تمهد للحديث عن صفة مالك يوم الدين من ناحية اخرى. ومن هنا بالرغم من وجود هاتين الصفتين في الآية الاولى «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» كانت هنالك ضرورة لتكرارهما هنا.

٤ـ في المقطع التالي اراد المؤلف ـ طبقاً لنظره ـ المجيء بصفة مالك يوم الدين بكلمات اكثر ايجازاً. من هنا فقد استبدل بها كلمتي الملك الديان، ولكن ضاعت امور مهمة نتيجةَ هذا التبديل. وتوضيح ذلك: ان هذه السورة تحاول تعليم الانسان وتلقينه اصول المعارف الالهية، ففي الآيات السابقة تطرقت لتعريف اول اصل اعتقادي بذكر اسم خاص أي عَلَم الذات لله وهو «الله» وثلاث صفات من صفاته، وتحدثت عن اختصاص الحمد بالله. وفي هذه الآية «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» تطرح الاصل الثاني وهو المعاد، وفي الآيات اللاحقة ومن خلال الاستنتاج من الآيات المتقدمة تبين قضية النبوة وهي الاصل الاعتقادي الثالث في الاسلام، أما عبارة الملك الديان فهي تذكّر بصفتين أُخريين من صفات الله فقط.

بناءً على هذا فالآية الكريمة انما تُخبر عن عالم آخر فيه الثواب والعقاب، والسعادة الابدية للانسان منوطة بالاعتقاد به، وتبين منزلة الرحمة الالهية الخاصة «الرحيم»، كما انها ومن خلال نسبة مالكية أو ملكية ذلك اليوم لله تذكّر باقتصار واختصاص الحاكمية والتصرف في ذلك العالم به تعالى، ومن خلال هذا الطريق تشير الى الفارق الجوهري بين النظامين الدنيوي والاخروي. وان العلاقة بين هذه الآية والآية اللاحقة تعد امراً مهماً ينبغي الالتفات اليه. فانحصار مالكية الله ليوم الجزاء تمهد لأن يأتي

العبد بالعبادات خاصة لوجه الله ويستعين به وحده في هذا المسير، وبعبارة موجزة: يُلقي بالغير جانباً ويركع مسلِّماً أمام الله.

٥ـ وضع المؤلف عبارة (لك العبادة وبك المستعان) بدل الآية الكريمة «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، وبغض النظر عن ان عبارة مؤلف حسن الايجاز ليست اكثر ايجازاً من الآية الكريمة بل هي تزيدها بحرف واحد، فانها تفيد مجرد اختصاص العبادة والاستعانة بالله، لكن المراد من «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ان العبد يعترف لدى اظهاره العبودية بكل صراحة بتبعيته وتذلله امام الله سبحانه وتعالى، ومن الواضح ان هذا الأمر في غاية الاهمية والحساسية، وان افضل طريقة للتعبير عن العبودية تكمن في هذا الاعتراف الصريح.

بالاضافة الى انها تعد وجهاً مناسباً للالتفات من الغيبة الى الخطاب، فالعبد وبعد عدِّه لمختلف صفات الله معتبراً فيها ان كل شيء له تعالى، يُدرك ارتباطه التام بالله من ناحية، ومن ناحية اخرى يصبح مشتاقاً للقاء والحديث مع محبوبه الذي بيده خلقه وتدبيره ولشدة اشتياقه فهو يجده حاضراً أمامه ويراه رقيباً عليه وعلى اعماله، وفي هذه الحالة يخاطبه ويمدّ نحوه يد الضراعة قائلاً: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، وقد ضُمِّنَ هذا الحضور جيداً في النص القرآني من خلال الوصف بالعبودية.

وهنالك ملاحظات اخرى في باب مجيء نعبد ونستعين بصيغة الجمع وتكرار كلمة إياك جرى التطرق اليها في كتب التفسير، نغض الطرف عنها هنا.

٦ـ ان عبارة (اهدنا صراط الايمان) التي وضعت بدلاً عن «اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» هي الأقل مضموناً لدى المقارنة بينهما، فمن ناحية «الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» اكثر سعة من «صراط الايمان»، فاذا كانت سبل العباد الى الله بعدد انفاس الخلائق وان كلّ شيء هو آية الهية، فان الصراط المستقيم يدل الى اقرب الطرق واقومها للوصول الى الله، وقد تم بيان ذلك في آيات اخرى كثيرة.

ان هذا المؤلف لم يكلف نفسه حتى عناء التحقيق بالرجوع الى سائر الآيات ليعثر على الصراط المستقيم ومعالمه كي يضع بدلاً عن الصراط المستقيم مفردةً اقرب مفاداً منه، فلقد ورد في سائر الآيات ان الله يهدي المؤمنين الى الصراط المستقيم،[١] ووصف الصراط المستقيم بالعبادة الخالصة والتبعية التامة لله.[٢] وفي الآية اللاحقة وُصف الطرف المعاكس له بانه طريق الضالين والذين تعرضوا لغضب الله، ولكن لم يرد الحديث في أية آية عن صراط الايمان أو مطابقة الصراط المستقيم على صراط الايمان أو وصفه به.

على أية حال ان المواصفات التي وردت في القرآن الكريم للصراط المستقيم لا تتناسب مع «صراط الايمان» للمؤلف، وان الثراء الذي يتمتع به «الصراط المستقيم» يفتقده «صراط الايمان». كما ان الترابط بين هذه الآية والتي سبقتها ميزة اخرى تفتقر اليها «اهدنا صراط الايمان»، فاذا ما اصبح العبد في الآية السابقة مشتاقاً للقاء الله نتيجةَ البصيرة التي حصل عليها ويرى نفسه في محضر الله، ويرتقي من الناحية العقلية الى مرحلة يغدو فيها العالم بالنسبة اليه محضراً لله، فانه يعلم ان عليه الارتقاء من الناحية القلبية والوجودية بحيث ينال فيض الحضور، وحينئذ يقارن بين منزلته ومرتبة الحضور بين يدي الله فيعيش التفكير في كيفية طيّه لهذا الطريق الطويل جداً. من هنا سيكون طلبه الوحيد: اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وهو ذات الصراط الذي قالت عنه آية اخرى بان الله يهدي المخلَصين من عباده اليه عبر الصراط المستقيم.[٣]

لقد توقف الكاتب عن المجيء بمثل بقية الآيات متصوراً ان عبارة صراط الايمان تنطوي على مفاد الآية اللاحقة في حين ان الآية اللاحقة وإن تطرقت لتوضيح وبيان

---

١. «وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» الحج / ٥٤.
٢. «... وَأَنِ اعْبُدُونِي هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» يس / ٦١.
٣. «وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً» النساء / ١٧٥.

الصراط المستقيم، بيد ان الامور التي جرى بيانها فيها لا تتجلى عبر توضيح صراط الايمان أو الصراط المستقيم، لاسيما وان مصاديق وخصائص ومصير كلٌ من الفئات الثلاث التي وردت في الآية اللاحقة وبالذات خصائص سالكي الصراط المستقيم جرى تحديدها في آيات اخرى من القرآن.[١] ومن خلال هذا الطريق تتم هداية السالك والعبد خطوة فخطوة نحو الله ونحو جادة الصواب لبلوغ القرب الالهي؛ بالاضافة الى ان تقديم القدوة والاسوة والتحذير من نماذج الانحراف والسبل الخاطئة يلعب من الناحية التربوية دوراً باهراً في تعليم الانسان وتربيته وتكامله وتطوره، وهذه الامور لا تتوفر أبداً بمجرد ذكر (اهدنا صراط الايمان).[٢]

بحث عدة شبهات

اثيرت شبهات حول اعجاز القرآن في الفصاحة والبلاغة نتطرق لبحث أهمّها:

١ـ ان الفصاحة والبلاغة من صفات الكلام وقواعده وهي امور من صنع العقل البشري، وان الاعجاز في الفصاحة والبلاغة يعني تبلور العبارات على اساس هذه القواعد، ومعنى أن الانسان الذي هو واضع هذه القواعد يعجز عن الاتيان بمثلها ان هذه القواعد التي صنعها عقل الانسان تفرز نتاجاً يفوق عقل الانسان فيصبح المعلول فائقاً على علته، وهذا أمر مستحيل.

الجواب

ثمة ضرورة لثلاثة انواع من التطابق في الفصاحة والبلاغة التامة الكاملة هي:

تطابق الكلام مع قواعد الفصاحة والبلاغة، وتطابق مضمون الكلام مع ما في

---

١. «وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً» النساء / ٦٩.

٢. لادراك المضامين الكامنة في آخر آية من سورة الفاتحة، راجع تفاسير سورة الفاتحة وكتب سرّ الصلاة.

ضمير المتكلم، وتطابق ما في الضمير مع الواقع الخارجي. ولغرض تحقيق التطابق الاول يجب ان يتحلى المتكلم بمعرفة تامة بقواعد الفصاحة والبلاغة ـ التي قال عنها صاحب الشبهة بانها من صنع العقل البشري ـ وبالاضافة الى ذلك استخدامه لتلك القواعد بشكل دقيق لدى الحديث، ولتحقيق التطابق الثاني منوط بامتلاك الكاتب احاطة تامة بما في كنهه لدى الحديث فيصوغ ما في كنهه في قوالب دقيقة ومعبّرة، والتطابق الثالث متوقف على تمتع المتكلم بمعرفة دقيقة بالعالم الخارجي (الحقائق التي يروم الحديث عنها، وضع المخاطَبين وسائر الظروف الخارجية).

من مجموع ذلك فقط تكون قواعد الفصاحة والبلاغة من صياغة العقل البشري، وأما سائر الامور فهي تحصل نتيجةً لجهد المتكلم، وان الانسان وبسبب خصائصه الذاتية المثيرة للاختلاف ـ وهذا ما تقدّم في اعجاز القرآن في التناسق ـ ربما يقع في الخطأ في ايٍّ من هذه المراحل الثلاث ولا ينجح في تحقيقها. كما ان الاحاطة والمعرفة بقواعد المنطق لا تؤدي ابداً الى عدم صدور كلام يخالف القواعد المنطقية حتى من اعظم المناطقة المبدعين.

٢ـ ان الاعجاز في الفصاحة والبلاغة يعني اختيار افضل تعبير ممكن لالقاء الكلام، و«الافضل» هو واحد ليس إلّا على الدوام، بينما كثيراً ما يشاهد في القرآن أن موضوعاً واحداً يجري بيانه بعبارات مختلفة ومتعددة، وينبغي الاستنتاج من هذا التعدد بالتعابير إما ان هذه التعابير باجمعها ادنى من الاعجاز أو ان تعبيراً واحداً فقط منها هو المعجزة.

الجواب

ان الملاك في اعجاز كلامٍ ما من حيث الفصاحة والبلاغة هو ان يعجز الانسان عن الاتيان بمثله، ومن الممكن أن يعبر عن حقيقة واحدة بعدة تعابير كلٌّ منها يكون بنحوٍ

يعجز الانسان عن الاتيان بمثله، وعليه تكون جميعها معجزة، وربما تكون عدة تعابير عن حقيقة واحدة أو واقع واحدٍ تختلف في درجاتها من حيث الفصاحة والبلاغة، فتكون كلٌ منها معجزة، وتكون لبعضها امتيازات على البعض الآخر لا ينقص فقدان هذه الامتيازات من اعجازها، ولا يهبط بها دون مستوى الاعجاز. اذن التعابير المتعددة في القرآن فيما يخص موضوعاً واحداً ربما تكون بمستوىً واحدٍ من الفصاحة والبلاغة وجميعها تفوق طاقة الانسان، وربما تكون في مستويات متباينة لكنها في نفس الوقت تفوق طاقة الانسان. أضف إلى ذلك أن اختلاف المقامات ربما يقتضي اختلافاً في التعبير وإن كان المضمون واحداً.

٣ـ ان بعض الآثار الفنية لأُناس لم يدّعوا النبوة هي في مستوىً عالٍ من الفصاحة والبلاغة بحيث لا يُرى نظير لها ولم يأتِ أحدٌ بمثلها من قبيل كلام الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة وشعر ابن الفارض بالعربية وحافظ بالفارسية وشكسبير بالانجليزية.

الجواب

ان النماذج المزعومة ليست بحيث يمكن موازنتها بالقرآن، وان مجرد عدم وجود نظير لها لا يعد دليلاً على عدم القدرة على الاتيان بها، وحيث ان اولئك لم يدّعوا مثل هذا الادعاء فلم ينبر الجميع لمعارضتهم والاتيان بمثيل لآثارهم. كما ان كلام علي عليه السلام في نهج البلاغة هو فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق، وواضح تفوُّق الآيات الالهية عليه لدى اهل الفن اذا ما قورن بالقرآن. فعلى سبيل المثال، من الخطب البارزة في نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢٢٦، ولكن عندما يستند علي عليه السلام الى القرآن في هذه الخطبة يدرك القارئ المتأمل جيداً تفوق الآية القرآنية على سائر العبارات. يقول عليه السلام في الخطبة المذكورة:

«دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر موصوفة، لا تدوم احوالها ولا تسلم نزالها... فكيف بكم لو تناهت بكم الامور وبُعثرت القبور. «هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ».[١]

أمية الرسول

الوجه الثالث من وجوه الاعجاز في القرآن الذي جرى التركيز عليه في الآيات هو أُمية النبيﷺ وعدم دخوله المدرسة، وقد ورد هذا الموضوع في عدّة آيات. يقول تعالى في الآية الثالثة والعشرين من سورة البقرة:

«وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلىٰ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ».

ان ارتباط الآية المتقدمة بهذا الوجه من وجوه اعجاز القرآن منوط بعودة الضمير في «مثله» الى كلمة «عبد» في عبارة «مِمّا نَزَّلْنا عَلىٰ عَبْدِنا». وقد اختلفت آراء المفسرين في مرجع ضمير «مثله» في الآية الكريمة إذ أرجعها البعض الى «ما» في «مِمّا نَزَّلْنا عَلىٰ عَبْدِنا» فيما أرجعها البعض الآخر الى «عبد» وذكرت كلٌ من هاتين الفئتين شواهد على مدعاها، بيد ان شواهد القول الثاني من قبيل استخدام مفردات «من»، «ريب»، و«شهداءكم» التي لم تستخدم في سائر آيات التحدي رغم تشابهها بالتعبير، وكذلك الروايات الواردة في تفسير هذه الآية الكريمة تدل على ان رجوع الضمير الى «ما» في عبارة «مِمّا نَزَّلْنا» ضعيف جداً.وان رجوع الضمير الى «عبد» يعتبر راجحاً على اقل تقدير.[٢]

---

١. يونس / ١٠.

٢. القرائن التي ذكرت لرجوع الضمير الى «ما» في عبارة «مِمّا نَزَّلْنا» هي كما يلي:

أ ـ ان ارجاع الضمير الى «ما» يرافقه تناسق مفاد هذه الآية مع مفاد سائر الآيات.

ب ـ البحث يجري في المنزَّل (القرآن) وليس المنزَل عليه (النبي ﷺ) وارجاع الضمير الى «ما» ينسجم مع هذا الامر.

ج ـ في حالة ارجاع الضمير الى «عبد» فان هذه الآية لا تشمل التحدي بغير الأُمي، ولكن اذا ما أُرجع الى «ما» فانها تشمل التحدي بشخص واحد أو عدة اشخاص، بالأُمي وغير الأمي.

د ـ اذا أُرجع الضمير الى «ما» سيثبت الاعجاز القرآني الكامن في القرآن بشكل كامل، أما إذا أُرجع الى «عبد» فان الاعجاز يثبت بافتراض النقص في النبي ﷺ ولا شك في ان الوجه الاول هو الافضل.

هـ ـ اذا أُرجع الضمير الى «عبد» فذلك مما يوهم بامكانية صدور القرآن عن غير الأمي، بيد ان هذا الوهم ينتفي اذا ما أُرجع الى «ما».

والرد على القرينة الاولى هو: في ضوء الفوارق الموجودة في هذه الآية مع الآية في سورة يونس وسائر آيات التحدي من قبيل اضافة كلمة «من» في «من مثله» و«نفي الريب» وعبارة «وادعوا شهداءكم» يتضح ان الآية تقصد أمراً آخر، وان التناسق لا يمكن ان يكون مرجحاً ومؤيداً في جميع الاحوال.

ويمكن القول في الرد على القرينة الثانية: استناداً للقول الآخر فان البحث يدور في المنزَل وليس المنزَّل عليه لكن وجه اعجازه مختلف، فتارة يكون اعجاز المنزَّل بلحاظ خصائصه واخرى في ضوء خصائص المنزَّل عليه.

والرد على المرجّح الثالث هو ان ما يحظى بفائق الاهمية في المعجزة اثبات اعجازها على افضل وجه بحيث يزول اي شك وشبهة فيما يخص نبوة ومعجزة النبي وكون فعله خارقاً للعادة، وان الآية الكريمة تحاول الفات الانظار الى انه ونظراً لأُمية النبي فلا يبقى مجال للشك والشبهة بان القرآن هو من عند الله.

والرد على القرينة الرابعة هو ان أُمية النبي ﷺ لا تعدُّ نقصاً بالنسبة اليه، بل يمثل كمالاً بمعنىً من المعاني كما سيأتي.

وحريٌ القول في الرد على القرينة الخامسة ان الآية لا تدل على الحصر، وهي تحاول بيان ان الأُمي لا قدرة له على المجيء بمثل القرآن، وقد تقدم السرّ في التركيز على هذا الأمر اثناء الرد على المرجّح الثالث، ولا منافاة في ان يعجز غير الامي ايضاً عن الاتيان بمثل القرآن.

ان اهم القرائن على القول الثاني أي رجوع الضمير الى كلمة «عبد» يتلخص في ثلاثة امور هي:

١ ـ اضافة كلمة «من» في عبارة «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» التي لم تأت في اي من سائر آيات التحدي؛ في حين تعتبر «من» زائدة اذا لم يُرجع الضمير الى «عبد» وهذا خلاف للقاعدة، كما انه ليست هنالك مناسبة لسائر المفاهيم من قبيل التبعيض بالاضافة الى ان رجوع الضمير الى «عبد» رجوع الى مرجع قريب.

٢ ـ نفي الريب الذي جاء فقط في هذه الآية والآية ٤٨ من سورة العنكبوت ـ التي تتحدث عن اعجاز القرآن استناداً الى أُمية النبي ﷺ ـ يفيد وحدة مضمون هاتين الآيتين ويدل على رجوع الضمير الى «عبد» وان اعجاز القرآن استناداً الى أُمية النبي ﷺ مما لا يحتمل الشك.

٣ ـ لقد ارجعت الروايات الواردة حول هذه الآية، الضمير في عبارة «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» الى «عبد» وركّزت

بناءً على هذا، فالآية الكريمة تروم بيان اعجاز القرآن استناداً الى أُمية النبيﷺ.

وهنالك آية اخرى نوّهت الى اعجاز القرآن مستندة الى أُمية النبيﷺ وهي:

«وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ» العنكبوت / ٤٨.

تدل هذه الآية على ان اعجاز القرآن استناداً لأُمية النبيﷺ يثبت بنحو لا يدع مجالاً للشك والريبة حتى بالنسبة للمبطلين، وهذا الكلام يشير الى ان القرآن معجزة بغض النظر عن أمية النبيﷺ، والمنصفون ـ غير المبطلين ـ يدركون اعجازه ويذعنون له.

وفي الآية ١٦ من سورة يونس وبعد ايراد طلب المخالفين بالمجيء بكتاب آخر أو تبديل هذا الكتاب، والتأكيد على ان تبديل الكتاب ليس متيسراً للنبيﷺ فهو مطيع للوحي، يقول تعالىٰ:

«قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ».

بالرغم من ان كلاماً صريحاً لم يرد في هذه الآية عن اعجاز القرآن لكنها تحمل اشارة الى ان النبيﷺ لم يكن يمتلك هذه المعارف وان حياته الطويلة نسبياً قبل البعثة

على أُمية النبيﷺ، فعلى سبيل المثال جاء في رواية عن الامام الرضا «عليه آلاف التحية والثناء»: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» من مثل محمد مثل رجل منكم لا يقرأ ولا يكتب ولم يدرس كتاباً، ولا اختلف الى عالم، ولا تعلّم من أحد، وانتم تعرفونه في اسفاره وحضوره. بقي كذلك اربعين سنة ثم أوتي جوامع العلم».

وجاء في رواية عن الامام زين العابدينعليه السلام:

«من مثله» من مثل محمد أي لم يختلف الى اصحاب كتب قط ولا تلمّذ لأحد ولا تعلّم منه وهو ممن قد عرفتموه في حضره وسفره ولا يفارقكم قط الى بلد ليس معه جماعة منكم يراعون احواله ويعرفون اخباره، ثم جاءكم بهذا الكتاب (نفس المصدر للبحراني: ص ٦٨).

في ضوء القرائن اعلاه يمكن القول ان هذه الآية هي على غرار الآيتين ٤٨ من سورة العنكبوت و١٦ من سورة يونس حيث جرى التركيز فيهما على أمية النبيﷺ وان هذه الميزة تعد دليلاً على ان القرآن من عند الله.

تشهد على ذلك، فلقد لبثﷺ بين ظهرانيكم عمراً، ولو انكم تأملتم ـ بما تمتلكون من معرفة به خلال هذه الفترة ـ فيه وفي هذا الكتاب ستصلون الى هذه النتيجة وهي تعذر المجيء بمثل هذا الكتاب من قِبل هذا الانسان. اذن هذه الآية الكريمة كسابقتها تستشهد بحياة النبيﷺ قبل البعثة على كون القرآن من عند الله.

وفي آيتين أُخريين سمّى القرآن الكريم النبيﷺ بالأمي، فيقول في الآية ١٥٨ من سورة الاعراف:

«فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ»

ويقول في الآية ١٥٧ من سورة الاعراف:

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ».

والآية الثانية تُنبئ بأن أُميّة النبيﷺ واردة في التوراة والانجيل ايضاً. وفي الآية ٥ من سورة الفرقان ينقل قول المخالفين فيقول:

«وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً».

تشير هذه الآية ايضاً الى ان المخالفين كانوا مقتنعين ان النبيﷺ لم يكن قادراً على القراءة والكتابة، لذلك فقد طلب من الآخرين الكتابة له والقراءة عليه.

ان موضوع أُمية النبيﷺ قراءة وكتابة مسلَّم به تاريخياً وقد أيده المستشرقون والمؤرخون من غير المسلمين ايضاً.[1]

---

١. يقول كارلايل: ان محمداً لم يتلمذ على يد أحدٍ ولم يكتب بيده، كما ان حرفة الخط كانت جديدة عهد في بلاد العرب آنذاك. تاريخ نبي الاسلام، كارلايل، ترجمة ابو عبدالله الزنجاني: ص ٣٢، الطبعة الثالثة، مكتبة سروش ـ تبريز، ١٣٥٥ هـ.ش.

وكتب ويل ديورانت في قصة الحضارة: يبدو ان احداً لم يهتم بتعليمه القراءة والكتابة فقد كانت القراءة والكتابة ليست ذات اهمية لدى العرب. لذلك كان هنالك سبعة عشر نفراً فقط في قريش ممن يحسنون القراءة والكتابة. (قصة الحضارة، ويل ديورانت: ج ٧، ص ٢١، الطبعة الاولى، دار الفكر ـ بيروت، ١٤٠٨).

الآن وفي ضوء أُمية النبيﷺ لنأخذ القرآن ومضمونه، فان نظرة عابرة على القرآن تؤكد انه كتاب ينطوي على اصنافٍ من المعارف والعلوم والاحكام والقوانين الفردية والاجتماعية مما لا يمكن مقارنته بسائر الكتب الموجودة بين الناس بالرغم من صغره نسبياً من حيث الحجم والسعة، فلقد استوعبت هذه المنظومة اعمق العلوم وارقاها واسمى التعاليم الاخلاقية وأنفَسها واكثر المواعظ والنكات التاريخية عدالة وانفع المناهج في التربية والتعليم.

ان جمع كل هذه المعارف والحقائق في مثل هذه المنظومة يفوق طاقة الناس العاديين، بيد ان ما يزيده اعجازاً ولا يدع مجالاً للشك أمام أي أحد هو ان هذا الكتاب العظيم جاء به انسان لم يدرس ولم يتعلم ولم يُمرر قلماً على ورقة ولم يخط بيده ولم يتلمذ، وقد عاش وسط بيئة بعيدة عن الحضارة والثقافة، والاكثر إثارة للدهشة انه وعلى مدى السنوات الاربعين التي سبقت البعثة لم يتفوه بعبارة واحدة من هذا الكلام، وان هذه العلوم جاء بها بصفتها وحياً قرآنياً ذات اسلوب متميز وسياقٍ خاصٍ يميزها عن سائر كلامه.

بحث عدة شبهات

اثيرت شبهات حول هذا البعد من الاعجاز القرآني نتناول بالبحث أهمَّها:

ويقول جان ديفن بورت: كما هو متعارف في العالم فيما يخص التعلّم والدراسة ان الجميع يعتقدون ان محمداًﷺ لم يدرس ولم يتعلم الّا ما كان متعارفاً ورائجاً في قومه، وقد كانوا غافلين عن ما نسميه اليوم بالادبيات. (اعتذار لمحمد والقرآن، جان ديفن بورت، ترجمة غلام‌رضا سعيدي: ص ١٧ ـ ١٨، الطبعة الثالثة، شركة انتشار ـ طهران، ١٣٤٤ هـ.ش).

ويقول هنري دوكاستري: لا شك في انه من المستحيل أن يدرس رجلٌ في المشرق دون ان يعرف به الناس لان كافة تفاصيل الحياة لدى الشرقيين معلنة ومكشوفة بالاضافة الى انعدام القراءة والكتابة في تلك الاقطار في ذلك العصر، ولم يكن في مكة سوى شخص واحد كانت له القدرة على القراءة والكتابة. (الاسلام، افكار وعلوم، كانت هنري دوكاستري: ترجمة سيد محمد قي الفاطمي: ص ٢٧، الطبعة الاولى، مطبعة خاور ـ طهران، ١٣٠٩ هـ ش).

١ـ ان الاستدلال بكلمة «أمّي» على عدم دراسة النبيﷺ ليس صحيحاً لان «أمي» نسبة الى أم القرى وهو اسم مكة. اذن الأُمي مرادف للمكي، وليس هنالك دليل آخر على أُمية النبيﷺ.

الجواب

لا يمكن نسبة مفردة «أُمّي» الى «أم القرى» لان أم القرىٰ صفة لمكة وليس اسمها، والنسبة انما تكون لاسم الشيء وليس لصفته. بالاضافة الى ان النسبة في المركبات الاسنادية والمزجية تكون لصدرها وفي مركبات الاضافة المعنوية والالحاق بـ«أب، وأم، وابن» انما تكون لعجزها، من هنا لا يصح القول: إبني أو أُمي في النسبة لابن عمرو أو أم كلثوم وصحيحه: عمروي أو كلثومي. واستناداً الى ذلك ليس صحيحاً نسبة الأُمّي الى أم القرى وصحيحه: قروي.

وقد استفيدت الأُميّة من خلال كلمة «أمّي» في آيات اخرىٰ من القرآن، من قبيل الآية ٧٨ من سورة البقرة التي تقول في وصف اهل الكتاب وبالذات اليهود الذين لم يكونوا من اهل مكة:

«وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاٰ يَعْلَمُونَ الْكِتٰابَ إِلاّٰ أَمٰانِيَّ»

وليس الدليل على أميّة النبيﷺ هو اطلاق كلمة «أمّي» عليه فقط، فكما تقدم جرى الحديث عن ذلك بوضوح في الروايات وسائر الآيات والمنقولات التاريخية.[1]

٢ـ لقد تعلّم النبيﷺ العلوم الواردة في القرآن من الآخرين من قبيل سلمان وبعض اهل الكتاب الذين كانوا يقطنون مكة وكانوا على معرفة بالتوراة والانجيل

---

١. للاطلاع على الروايات في هذا المجال، راجع: مكاتيب الرسول، علي احمدي: ج ١، ص ١٧ ـ ٢٠، الطبعة الاولى، دار المهاجر ـ بيروت.

مثل يعيس، نضر بن الحارث، عداس ويسار، وكذلك رهبان المسيحية الذين التقى بهمﷺ خلال سفره الى الشام.[١]

الجواب

وردت هذه الشبهة والرد عليها في الآية ١٠٣ من سورة النحل، حيث نقرأ في هذه الآية:

«وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ».

بناءً على هذا ان معرفة صياغة حديث هؤلاء ومقارنته مع لغة القرآن يثبت جيداً تعذُّر ان يكون القرآن كلامهم. بالاضافة الى ان سلمان قد آمن في المدينة وحتى ذلك الوقت كان جانب يُعتد به من آيات القرآن قد نزل، كما ان الآخرين لم يكونوا قد اسلموا في بداية البعثة ولا كان النبيﷺ يتردد عليهم، وسفرهﷺ الى الشام حدث مرة واحدة عندما كان في الخامسة من عمره، والسفر الثاني كان مع قافلة ولم يحدث اي تردد أو لقاء.

اضف الى ذلك ان القرآن تطرق لاكمال وتصحيح ونقد ما جاء في التوراة والانجيل المحرَّف، وما كان يطرحه النبيﷺ من علوم ويتحدث عنه يختلف عمّا ورد في تلك الكتب، كما ان النبيﷺ لو كان قد تعلَّم القرآن من الآخرين لتيسر الاتيان بمثله ولحدث ذلك.

٣ـ ورد في الروايات أنهﷺ كتب اموراً أو همَّ بكتابتها من قبيل ما تضمنته الروايات الخاصة برحيلهﷺ حيث قال: «هلمّوا أكتبْ لكم كتاباً لن تضلّوا بعده».[٢]

---

١. نفس المصدر، فخر الدين الرازي: ج ٢٠، ص ١١٨.

٢. نفس المصدر للاحمدي: ص ٦١٩.

الجواب

ربما تكون بعض هذه الروايات ناظرة للكتابة غير المباشرة، فاستناداً لوجود كتّاب الوحي وامنائهﷺ الذين تولوا كتابة رسائله من الممكن ان يكون المراد من الكتابة اصداره الاوامر للامناء بكتابته. بالاضافة الى ان الحديث يدور حول أُميّة النبيﷺ، وربما تقصد هذه الروايات كتابة النبي وقراءته بشكل اعجازي، كما ورد في بعض هذه الروايات:

«فاخذ رسول الله وليس يُحسن ان يكتب، فكتب».[1]

ومن الواضح ان الكتابة بشكل اعجازي لا تتنافى مع الأُمية. اضف الى ذلك ان هذه الروايات تتنافى مع آيات القرآن والروايات الاخرى التي تدل على أُمية النبيﷺ وقد تقدم نموذج منها، وينبغي توجيهها أو ردها.

٤ـ نُسبت التلاوة والقراءة في آيات القرآن لرسول اللهﷺ لاسيما تلاوة الصحف والكتب، وان تلاوة الكتب والصحف تستلزم القدرة على القراءة والعلم بها.

الجواب

أولاً: ان القراءة والتلاوة تشمل قراءة نص الكتاب والقراءة عن ظهر الغيب. ثانياً: ان الواح الوحي وكتاباته ليست مادية. ثالثاً: ربما تكون هذه التلاوة والقراءة قد جاءت بارادة الله وبشكل خارق للعادة وهي لا تتنافى مع الأُمية.

٥ـ ان القراءة والكتابة نوع من الكمال، وان الانبياء اكمل اهل زمانهم، اذن يجب ان يتمتع النبيﷺ بكمال القراءة والكتابة.

---

١. نفس المصدر للاحمدي: ص ١٧.

الجواب

لو سلّمنا بان القدرة على القراءة والكتابة تعدّ على نحو الاجمال كمالاً بالنسبة لكل انسان، فمن المسلّم به ان بلوغ هذا الكمال عن طريق التعليم والتعلّم لا يعد كمالاً، وفي مثل هذه الحالة لعل النبيﷺ قد تلقى هذا الكمال بشكل اعجازي من الله سبحانه وتعالى، وهذا مما لا يتنافى مع أُميتهﷺ.

بالاضافة الى ان المراد من ان النبيﷺ اكمل الناس هو انه الاكمل في قربه من الله، وان اموراً من قبيل القدرة على القراءة والكتابة لا تُعد كمالاً بحد ذاتها وبهذا المعنى، اذ من الواضح بانه لا دور للقدرة على القراءة والكتابة في قرب النبيﷺ من الله لاسيما اذا كانت القدرة على القراءة والكتابة عن طريق التعليم والتعلّم. نعم، ان النبيﷺ يتمتع بما هو ضروري لابلاغ رسالة الله وهداية الآخرين، وان قراءة النبي ليست من هذا القبيل، كما اننا لا نمتلك دليلاً على ضرورة سائر الامور من قبيل السلامة البدنية والخلو من العاهة التي يولد بها الانسان، وان الاعتقاد بها جاء نتيجة لدليل نقلي خاص بتلك الموارد، والكتابة ليست من تلك الموارد الخاصة.

من خلال ما تقدم نصل الى هذه النتيجة وهي ان النبيﷺ لم يتعلّم القراءة والكتابة عبر الطرق المتداولة أي التعليم والتعلّم البشري، وهوﷺ لم يخطّ ولم يقرأ مكتوباً قبل البعثة، بيد ان الادلة الآنفة الذكر لا تنفي القدرة على القراءة والكتابة بشكل خارق للعادة وبعد بعثة النبيﷺ، وليس ثمة ـ بالطبع ـ دليل عقلي وقرآني واضح على هذه القدرة أو ممارستها بعد البعثة، لكن بعض الروايات ـ وكما تقدم ـ تدل على ان النبيﷺ كان يتمتع بالقدرة على الكتابة والقراءة بشكل خارق للعادة وقد مارسها احياناً.

المقدار المعجز من القرآن

استخدم القرآن الكريم ثلاثة تعابير في آيات التحدي لدى مطالبته الناس بالاتيان

بنظير للقرآن، فقد وردت في الآية ٨٨ من سورة الاسراء المطالبة بمثل القرآن «بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ»، وفي الآية ٤٤ من سورة الطور، بكلام مثله «بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ»، وفي سائر آيات التحدي بسورة واحدة أو عشر سنور.

ان هذه التعابير المختلفة تسببت في إثارة عدة مسائل جرى بحث بعضها في الابحاث المتقدمة ونتطرق الآن لواحدة اخرى من تلك المسائل وهي المقدار المُعجز من القرآن.

تقدم القول في الفصل الاول من الكتاب لدى توضيح مفردتي «قرآن» و«حديث» بوصفهما إسمين من اسماء القرآن، بان القرآن الكريم استخدم هاتين المفردتين بنفس معناهما اللغوي، وعلى هذا الاساس فان لفظ الحديث يعني الكلام، والمراد من عبارة «حَدِيثٍ مِثْلِهِ» في آيات التحدي هو (كلام مثل القرآن)، كما ان مفردة القرآن وإن اتخذت صيغة العَلَم بالنسبة للقرآن تدريجياً، ولكن في ضوء الروايات التاريخية المؤكدة بان الآية ٨٨ من سورة الاسراء هي أول آية نزلت بخصوص التحدي، وليس هنالك دليل على صيرورة هذه المفردة عَلَماً للقرآن في زمن نزول هذه الآية، فلا يمكن القول ان المراد منها هو كل القرآن، لاسيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان جانباً كبيراً من آيات القرآن لم يكن قد نزل إبان نزول هذه الآية ولا معنى لمطالبة المخالفين بان يأتوا بمثيل لآيات لا معرفة لهم بشكلها ومضمونها.

في ضوء ما تقدم اذا كانت الآيتان الآنفتا الذكر ترميان الى تحديد المقدار المُعجز من القرآن فهما لا تدلان على عدم امكانية المجيء بمثل كل القرآن، بل المراد ان مثل هذا الكلام أو المقروء ليس مما يمكن المجيء بمثله، ولكن نظراً لان اعجاز القرآن مضموناً وشكلاً منوط تماماً بالصياغة الخاصة السائدة على مجموعة العبارات ذات الغاية والبداية والنهاية المحددة[1] وان التقطيع أو التمثيل بمجموعة الآيات والعبارات

١. هنالك اختلاف قديم في وجهات النظر حول مقدار المُعجز من القرآن، فالبعض يرى الاعجاز في كل القرآن

المترابطة مع بعضها يُفقدها مزاياها ورونقها ويذهب بالنظم الخاص السائد عليها، فلا يمكن الاستنتاج من هاتين الآيتين اعجاز ما يقل عن مجموعة مترابطة مع بعضها من آيات القرآن.

غالباً ما يتصور فيما يخص مفردة «سورة» المستخدمة في سائر آيات التحدي بان المراد هو سورة واحدة من السور الـ ١١٤ في القرآن المعروفة بدايتها ونهايتها بـ«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ»، لكن مقتضى التحقيق يفيد ان هذه المفردة استخدمت بمعناها اللغوي بما يقارب معنى (فقرة) في اللغة العربية و(باراغراف) في الانجليزية و(فراز) في الفارسية، والمراد منها مجموعة الآيات المترابطة فيما بينها وهي ذات نظم معين بالمفهوم الذي تقدم، والسورة بهذا المعنى بامكانها ان تشمل آية واحدة من قبيل آية الدَّين، وان سورة واحدة اصطلاحية ربما تشمل عشر سور أو اكثر بمفهومها اللغوي، والدليل على هذا الاستنباط لمفهوم السورة هذا هو الكلام المتقدم حول مفردتي القرآن والحديث.[1]

اعجاز القرآن واثبات التوحيد في الالوهية

يعتقد علماء الكلام لاسيما بعض المتكلمين النصارى لدى بحثهم للاعجاز بامكانية

باعتباره كتلة واحدة، وكلٌ من السور الـ ١١٤ في القرآن، ومجموعة من الآيات التي تقدّر بمقدار سورة قصيرة من القرآن، فيما يرى البعض اعجاز كل القرآن وكثير الآيات، ويرى البعض الآخر اعجاز ما هو اقل من سورة وحتى آية واحدة من آيات القرآن احياناً.

١. بالاضافة الى انه لو كان المراد من السورة معناها الاصطلاحي، لكان مناسباً ان يقال «فأتوا بمثل سورة منه» بدلاً من «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» وما شابه ذلك. وكذا لو اعتبرنا ان الحد الادنى من اعجاز القرآن هو سورة واحدة بمعناها الاصطلاحي فان لازم ذلك ان نؤمن بامكانية مجيء البشر بجميع آيات سورة كاملة مثل سورة البقرة ماعدا آية واحدة أو عدة آيات منها، أو اذا ما جاء أحد بجانب كبير من آيات مثل هذه السورة فيكون بمقدورنا الادعاء بعجزه عن الاتيان بما تبق أو إنه لم يأت بعد بنظير القرآن. من الواضح ان مثل هذا الادعاء لا يتناسب مع ظاهر آيات التحدي ولا يتيسر اثباته الّا على اساس القول بالصرف أو السماع والنقل. وقد تقدَّم آنفاً ان ظاهر آيات التحدي لا يتناسب مع القول بالصرف واثبات الاعجاز عن طريق النقل.

استنتاج واثبات وجود الله وعصمة الانبياء ومطابقة مضمون الوحي مع الواقع وقضايا من هذا القبيل، من خلال الاعجاز، ولكن ينبغي الالتفات الى ان مثل هذا النمط من المسائل يُستحصل عبر براهين يمثل الاعجاز أحد مقدماتها ولا يمكن الحصول على هذه النتائج من الاعجاز لوحده، وقد ورد في الآية ١٤ من سورة هود بشأن اعجاز القرآن:

«فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

ترتب في هذه الآية أثران على اعجاز القرآن (التحدي بعشر سور وعدم استجابة القوى غير الالهية للمشركين بالمجيء بالمثل) هما: انبثاق القرآن عن علم الله، والتوحيد في الالوهية.[١]

هناك اجماع حول ارتباط اعجاز القرآن بانبثاق القرآن عن علم الله بهذا الشكل: لو كان القرآن منبثقاً عن علم الانسان لكان ممكناً المجيء بمثله، ولكن نظراً لعجز المشركين عن الاتيان بمثل عشر سور من القرآن بالرغم من استعانتهم بكافة القوى غير الالهية، اذن يُعرف ان القرآن منبثق عن العلم الخاص بالله. وقد قدَّم المفسرون رأيين مختلفين فيما يخص ترتب اثبات توحيد الله على اعجاز القرآن:

الاول: هو ان القرآن الكريم يقول لكافة البشر لاسيما المشركين: استعينوا بجميع القوى غير الالهية كي تأتوا عبر معونتهم بمثل سورة من سور القرآن. فبما ان هذا القرآن يناهض عبادة الاوثان من الاساس ويعادي الشرك بأيّ صورة أو شكل كان ويحاربه، فلو كان هناك إله أو آلهة اخرى غير الله، لتعيَّن على هذه الالهة إعانة المشركين في هذا الأمر في ظل مثل هذه الظروف حيث يعني عدم الاتيان بسورة مثل

---

١. وردت آراء اخرى في كتب التفسير في باب المراد من عبارة «فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا» بيد ان ما جاء في النص كاساس للاستدلال الآنف الذكر هو اكثر تناسباً مع ظاهر الآية، بل هو الوجه الوحيد المتناسب مع ظاهر الآية. للاطلاع على سائر الوجوه وعدم صحتها، راجع: نفس المصدر للطباطبائي، ونفس المصدر للآلوسي، ونفس المصدر للرازي، ذيل الآية ١٤ من سورة هود.

سور القرآن هزيمة للمشركين وبطلاناً لعقيدة عبادة الاصنام والشرك، لتكون قد دافعت عن معتقد عبادة الاصنام الذي يحظى بمناصرة هؤلاء المشركين، وابراز ربوبيتها أمام المشركين ايضاً، فاذا لم تستطع آلهة المشركين ان تستجيب لاستغاثة عبادها في مثل هذه الظروف المتأزمة والحساسة فهذا بحد ذاته يعبر عن عدم كونها معبودات وآلهة وهو بنفسه دليل على توحيد الله.

الثاني: هو اذا ما عجز المناوؤن للقرآن عن الاتيان بمثل القرآن ولم تستجب لهم القوى التي استنجدوا بها ـ ومنها آلهتهم ـ اذ ذاك يثبت ان القرآن من عند الله وتثبت حقانية معارف القرآن وان جانباً من تعاليم القرآن ومعارفه بل أهمّها هو التوحيد في الالوهية.

بالتأمل فيما تقدم يتضح ان لازم اعجاز القرآن استناداً للرأي الثاني ليس التوحيد في الالوهية فحسب بل يثبت المعاد ايضاً بما يمثله من ركن آخر للدين، ويمكن القول ان الآية ٢٣ من سورة البقرة التي تعقب التحدي بسورة واحدة بالحديث عن اجتناب جهنم والتبشير بالجنة، تشير الى هذا الأمر، كما يمكن استنتاج صفات الله بل حقانية جميع المعارف الالهية منها، بيد ان الرأي الثاني أقل تناسباً مع ظاهر الآية الكريمة، والأول مرجّح عليه.

٢ـ الآيات الدالة على الدليل النقلي:

البشارة بنزول القرآن في تعاليم الانبياء السابقين

الطريق الآخر الذي سلكه القرآن الكريم لإثبات حقانيته وكونه من عند الله هو الطريق النقلي، فقد نوّه القرآن الكريم في آيات عديدة وباساليب مختلفة الى هذه القضية وهي ان مجيء هذا الكتاب من لدن الله ونزوله على النبي الاكرم ﷺ ومواصفاته ﷺ، كانت مذكورة في الكتب السماوية السابقة وقد كان علماء اهل الكتاب

على اطلاع بهذه الامور، من هنا فقد شهد بعضهم على هذا الأمر وآمن بالنبيﷺ لكن بعضهم امتنع عن الايمان به لاسباب ما. ويمكن تصنيف هذه الآيات الى اربع طوائف هي:

١ـ الآيات التي تعتبر القرآن «مصدّقاً» و«تصديقاً» للكتب السابقة من قبيل الآيات الكريمة:

«وَمَا كَانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللهِ وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» يونس / ٣٧.[١]

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ» النساء / ٤٧.[٢]

ان تصديق القرآن للكتب السماوية السابقة إما بمعنى الشهادة على نزول هذه الكتب من عند الله أو بمعنى تأييد مضمونها بشكل عام أو في الجملة، أو بمعنى ان الكتب السماوية السابقة قد أنبأت بنزول القرآن من عند الله وان نزول القرآن ـ وليس شهادته اللفظية ـ دليل على صحة ذلك الخبر الغيبي، مما يعني تطابقه مع الواقع وكون الكتب السماوية السالفة من عند الله. وعلى هذا الاساس لا علاقة لتصديق القرآن بمعناه الاول والثاني مع اثبات حقانية القرآن، ولكن حقانية القرآن تثبت اذا أخذنا بالمعنى الثالث.

٢ـ الآيات الدالة على ان الانبياء الماضين قد اخبروا بمجيء نبي الاسلام ونزول القرآن، وقد ورد هذا الأمر في الكتب السماوية الماضية. يقول تعالى في الآية ١٩٦ من سورة الشعراء:

«وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ».

---

١. ونظيرتها الآية ١١١ من سورة يوسف.

٢. ونظير ذلك الآيات ٤١، ٨٩، ٩١، ٩٧ من سورة البقرة، ٣ من سورة آل عمران، ٤٨ من سورة المائدة، ٩٢ من سورة الانعام، ٣١ من سورة فاطر، ١٢ و٣٠ من سورة الاحقاف. وفي الآية ١٠١ من سورة البقرة وُصف النبيﷺ شخصياً على انه مصدق للكتب السماوية السابقة.

ويقول في الآية السادسة من سورة الصف:

«وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ».(١)

وتتعرّض الآية ٢٩ من سورة الفتح لذكر خصائص نبي الاسلام وأتباعه الحقيقيين في التوراة والانجيل. فيقول تعالى:

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً».

ويقول في الآية ١٥٧ من سورة الاعراف:

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ».

٣ـ الآيات التي تؤكد على ان اهل الكتاب كانوا على اطلاع كافٍ بنزول القرآن وقد ادركوا حقانيته وكانوا يتمتعون بمعرفة تامة بنبوة الرسول الاكرمﷺ.

---

١. يقول في الآية ٨١ من سورة آل عمران: «وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ...»، فهذه الآية تدل على أخذ الله العهد من كافة الانبياء أو اتباعهم بالايمان بالنبي الآتي ونصرته، فاذا كان المراد من النبي الآتي نبي الاسلام على وجه الخصوص فان الآية الكريمة تدل بشكل مباشر وصريح على ما جاء في النص، ولكن اذا لم يكن مرادها نبي الاسلام لوحده، فلا شك في ان نبي الاسلام مشمول لها في ضوء سياق الآيات السابقة، وان الآية تدل بقرينة السياق على ان الحديث جرى في تعاليم عيسىعليه السلام على اقل تقدير عن مجيء نبي الاسلام وضرورة الايمان به ونصرته. والمراد من أخذ الميثاق من كل نبي هو أخذ العهد من الانبياء بوصفهم قادة المجتمع ومن امهم بالتبع، أو ان المراد هو أخذ الانبياء الميثاق من امهم.

فني الآية ١٩٦ ـ ١٩٧ من سورة الشعراء وبعد ذكره لموضوع ورود نزول القرآن على النبيﷺ في الكتب السابقة، يقول تعالىٰ:

«أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

ويقول في الآية ١١٤ من سورة الانعام:

«وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ».

ان التأكيد على ان اهل الكتاب يعلمون ان القرآن منزل بالحق من عند الله دليل على ان المراد اطلاع ومعرفة اهل الكتاب بنزول القرآن عن طريق الكتب السماوية وتعاليم الانبياء الماضين، ونظير هذه الآية، الآية الكريمة:

«فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» يونس / ٩٤.

الأمر الجدير بالذكر فيما يخص الآيتين الاخيرتين هو بالرغم من ان الخطاب فيهما موجَّه للنبي الاكرمﷺ لغرض ازالة الشك في حقانية القرآن مما يثير مجالاً للتساؤل لدى اهل الكتاب، لكنما يستفاد من ظاهر آيات القرآن وقد ثبت في محلّه ان نبي الاسلامﷺ كان يتلقى الوحي بنحو لا يثير لديه أية ريبة ولا يعتريه الشك والترديد بكونه وحياً، بناءً على هذا بالرغم من ان الخطاب موجَّه في مثل هذه الآيات للنبيﷺ شخصياً لكن المراد هو شك وارتياب الآخرين وازالته في ضوء تبشير الكتب السماوية السابقة بنزول القرآن ومعرفة اهل الكتاب بذلك، وان توجيه الخطاب للنبيﷺ على غرار المثل المعروف: «اياك اعني واسمعي يا جارة»، من هنا جاء في الروايات ان القرآن نزل بلغة «اياك اعني واسمعي يا جارة».[1]

يقول تعالى في الآية ٨٩ من سورة البقرة فيما يخص موقف بني اسرائيل ازاء القرآن:

---

١. نفس المصدر، محمد باقر المجلسي: ج ٩٢، ص ٣٨٢.

«وَلَمّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكافِرِينَ».(١)

تشير هذه الآية الى ان بني اسرائيل بالاضافة الى معرفتهم المسبقة بالقرآن، كانوا يتحرّون عن النبي الذي سوف ينزل عليه هذا القرآن أو كانوا ينتظرون ظهور ذلك النبي وتحقيق الظفر على الكفار في ظل دينه وحاكميته، ولكنهم اتخذوا موقفاً مناقضاً لما يعلمونه بعد بعثة نبي الاسلام ﷺ.(٢)

وقد جرى الحديث في الآية ١٤٦ من سورة البقرة عن معرفة اهل الكتاب الدقيقة أو علمائهم بالنبي ﷺ ومجيء القرآن من عند الله، فيقول تعالى:

«الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وورد في الآية ٢٠ من سورة الانعام:

«الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ».(٣)

---

١. ذكر المفسرون اربعة احتمالات فيما يخص المراد من عبارة «يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» هي:

أ- ان اهل الكتاب كانوا يخبرون الكفار بمجيء مثل هذا النبي.

ب- ان اهل الكتاب كانوا يسألون علماءهم عن خصائص نبي الاسلام ﷺ.

ج- ان اهل الكتاب كانوا يسألون المشركين من العرب عن صفات النبي ﷺ كي يعرفوا ما اذا كان قد وُلد ويعيش بينهم.

د- ان اهل الكتاب كانوا يسألون الله النصر على الكفار في ظل دين نبي الاسلام ﷺ وحكومته.

بالرغم من ان الاحتمال الثاني لا يتناسب كثيراً مع ظاهر الآية، وان الاحتمالين الثالث والرابع بما ورد في روايات في ذيل هذه الآية هما الأكثر تناسباً، ولكن لا فرق بين هذه الاحتمالات لاثبات ما ندعيه.

٢. ذكر الطبرسي في مجمع البيان والفخر الرازي في التفسير الكبير ورشيد رضا في المنار والعلّامة الطباطبائي في الميزان نقلاً عن تفسير العياشي، رواية مطولة حول تحرّي اليهود عن النبي وإخبارهم الكفار بمجيء مثل هذا النبي ومعرفة محل ظهوره، مما يوضح اكثر المراد من عبارة: «يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا».

٣. هناك اختلاف في الرأي حول مرجع الضمير في «يعرفونه» في هاتين الآيتين، فقد ارجعه البعض الى القرآن،

ويقول في الآية ١٠١ من سورة البقرة لدى بيانه لكفران اليهود:

«وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ».

وفي ذلك دلالة على ان اهل الكتاب كانوا على معرفة بمجيء نبي الاسلام ﷺ وخصائصه، وقد اتخذوا موقفاً بعد ظهوره يوحي وكأنهم لم يكونوا يعلمون به.

٤ـ الآيات التي ذُكر فيها فرح جماعة من اهل الكتاب وذرفهم دموع الشوق وشهادة طائفة منهم على حقانية القرآن وايمانهم به. يقول تعالى في الآية ٣٦ من سورة الرعد:

«وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ».

ويقول في الآية ٨٣ من سورة المائدة واصفاً النصارى:

«وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدِينَ».

ويقول في الآية ١٠ من سورة الاحقاف منوهاً الى شهادة بعض بني اسرائيل على حقانية القرآن:

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ».(١)

واعتبر آخرون النبي ﷺ مرجعاً للضمير حيث يعتقدون ان الآية تنبئ عن المعرفة الدقيقة لبني اسرائيل بالنبي وصفاته. والاحتمال الاول يرتبط مباشرة بالبحث المطروح، لكن الاحتمال الثاني الذي هو اكثر تناسباً مع ظاهر الآية يرتبط بصورة غير مباشرة بالبحث الدائر بلحاظ ان ابرز مواصفات النبي ﷺ نزول القرآن عليه. وجديرٌ ذكره ان شأن النزول الوارد في كتب التفسير لهذه الآية يؤيد الاحتمال الثاني. راجع نفس المصدر، الفخر الرازي: ج ٤، ص ١٢٨.

١. ورد في بعض كتب التفسير: ان الذي شهد على حقانية النبي والقرآن هو عبدالله بن سلام أحد اكبر علماء اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ، فقد حضر عند رسول الله ﷺ وبعد سؤاله إياه عدة اسئلة وتلقيه الجواب

ونقرأ في الآية ٥٢ من سورة القصص:

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ».

وقد حظي الاستدلال النقلي على حقانية القرآن واثبات نبوة نبي الاسلام ﷺ عن هذا الطريق باهتمام الروايات ايضاً، فلدى مناظرة الامام الرضا عليه السلام مع اهل الكتاب استدل عليه السلام بعبارات من التوراة تحكي عن تبشير النبي موسى عليه السلام ببعثة نبي الاسلام ﷺ.[1] وهذه العبارات موجودة في التُوراة الحالية ايضاً.

ان اقوال القرآن الكريم غالباً ما تؤكد على معرفة اهل الكتاب لاسيما علماءهم بهذا الموضوع، ويمكن النظر الى بعض الآيات فقط على انها تقصد التوراة والانجيل في زمن النبي ﷺ، وعلى أية حال فسماوية «العهدين» الحاليين لا تحظى بالقبول بل لا شك في ان الجانب الاعظم منهما وبالذات العهد الجديد يفتقد الواقعية، ولهذا السبب فان ما ورد في القرآن الكريم بهذا الخصوص لا وجود له في العهدين تماماً، وان ما يُعثر عليه عبارات عامة تنطبق على النبي الاكرم ﷺ.

ان استدلال الامام الرضا عليه السلام بالعبارات المسطورة في التوراة الحالية ربما يأتي من باب الجدال والاستناد على مسلّمات الخصم المُناظِر، وان كان هنالك احتمال وجود العبارات التي يُستند اليها لدى المناظرة في التوراة الحقيقية.

على أية حال ان العبارات الموجودة في العهدين الحاليين لا تتحدث بصراحة ولو

آمن به ﷺ ثم قال: يا رسول الله ان اليهود قوم ديدنهم البهتان، واذا سألتهم عني بعد ان يفهموا باسلامي فسوف يلصقون بي التهم. فلما حضر اليهود عند النبي ﷺ بادرهم النبي ﷺ بسؤالهم عن عبدالله بن سلام فقالوا: هو وأبوه خيارنا وعلماؤنا وساداتنا. فنوّه النبي ﷺ الى اسلام عبدالله بن سلام، فقال اليهود: نعوذ بالله، وهنا دخل عبدالله بن سلام وشهد على حقانية النبي ﷺ فاخذ اليهود بذكر معايبه وقالوا هو وأبوه من اراذل اليهود. فقال عبدالله بن سلام هذا ما كنت اخشاه يا رسول الله. الكشاف عن غوامض التنزيل، الزمخشري: ج ٤، ص ٢٢٩.

١. راجع: عيون اخبار الرضا، ابو جعفر الصدوق: ج ١، ص ١٣٢ ـ ١٣٤، الطبعة الاولى، مكتبة المصطفوي.

في مورد واحدٍ منها ينطبق كثيراً على نبي الاسلامﷺ عن الموضوع ذي العلاقة بالبحث، بينما تدل اقوال القرآن على ورود الاخبار بوضوح وصراحة في الكتب السماوية السابقة عن مجيء النبيﷺ.[1]

---

١. نورد هنا ثلاثة نماذج من العبارات الواردة في العهدين والتي تنطبق على نبي الاسلامﷺ:

أ ـ انني اقول لكم صادقاً بان ذهابي مفيد لكم لانني ان لم اذهب لن يأتيكم المواسي (فارقليط) أما اذا ذهبت فارسله اليكم واذا جاء سيُلزم العالم على ترك المعصية وعلى العدالة والقسط... ولديَّ الكثير من الاشياء الاخرى اقولها لكم ولكن لا طاقة لكم بها الآن، واذا ما جاء هو أي روح الصدق سيهديكم الى الصدق الكامل لانه لا ينطق من نفسه بل يتحدث بما يسمع وسيخبركم عن المستقبل. الكتاب المقدس، العهد الجديد، دار السلطنة ـ لندن، ١٩١٤.

هناك مفردتان في اللغة اليونانية هما Periclite وParaclite متقاربتان جداً من ناحية التلفظ بهما، فالاولى تعني العالي، الجليل، المجيد، الشهير، احمد، محمود، ومحمد، والثانية تعني المواسي، ونثة اختلاف في الرأي بين علماء النصارى والمسلمين في انه ايّ من هاتين المفردتين وارد في الانجيل الحقيقي والقديم، فالنصارى يرون صحة المفردة الثانية وجعلوا مفردة المواسي مرادفة لها عند ترجمتها، فيما يعتقد بعض علماء المسلمين ان المفردة الاولى هي الواردة في النسخ القديمة من الانجيل ويوردون شواهد على دعواهم. على أية حال، اذا كانت المفردة الاولى هي الحقيقية فان هذه العبارات تنطبق على نبي الاسلام وربما يمكن ايراد إسناد لها من بعض الابحاث الكلامية. لكن علماء النصارى يوجهون هذه العبارات والاوصاف العامة بنحو تنطبق معه على روح القدس ويوردون موارد اخرى من الانجيل تأييداً لمدعاهم. وعلى أية حال، فان هذه العبارات ـ كما تقدم القول ـ بمفردها ليس فيها صراحة بالنسبة للنبيﷺ.

ب ـ يا يهوه! ان ربك سيبعث منك نبياً من اخوتك مثلي ـ موسىؑ ـ فاسمع له... سابعث لهم نبياً من بين اخوتهم وسأُلقي في فمه كلامي وسيقول لهم ما آمره به وكل من لا يسمع كلامي الذي ينطق به باسمي فسأُطالبه به. الكتاب المقدس، العهد القديم، دار السلطنة ـ لندن، ١٩١٤.

يقول بعض علماء المسلمين: بما ان موسى من نسل اسحاق فان المراد من عبارة: (بعثة نبي من اخوة يعقوب بن اسرائيل) هو نبي الاسلامﷺ الذي هو من نسل اسماعيل أخي اسحاق، والمراد من (أُلقي كلامي في فمه) و(كلامي الذي ينطق به باسمي) هو القرآن الذي هو كلام الله الذي تلاه النبي باسم الله، وان نبي الاسلام يشابه موسى في الكثير من الجوانب، كما ورد في عبارات «مثلي»، «مثلك» لكن عيسى يختلف في كثير من الجوانب مع موسى ويشابهه في القليل جداً من الجهات، لكن علماء اليهود يعتقدون ان المراد من اخوة موسى هم بنو اسرائيل، والنصارى يطبقونها على عيسى، وشأنها شأن المورد الاول ليس فيها بمفردها صراحة بالنسبة الى نبي الاسلامﷺ.

ج ـ هذه هي شهادة يحيى عندما ارسل يهود أورشليم الكهنة والاحبار ليسألوه: من انت؟ فاعترف ولم يُنكر بل

بحث طائفتين من سائر الآيات

بالاضافة الى الآيات المتقدمة في باب «الادلة على ان القرآن من عند الله» فاننا نواجه طائفتين أُخريين من الآيات ثمة اختلاف في الرأي في مفادها والمراد منها وما اذا كانت ترمي الى اثبات كون القرآن من عند الله أو بيان أمر آخر.

الطائفة الاولى: آيات الشهادة

وهذه الآيات تقع في ثلاث مجاميع هي:

أ ـ الآيات الدالة على كفاية الله كشاهدٍ في رسالة النبيﷺ أو أنّ القرآن غير مفترى:

«قُلْ كَفىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً» الاسراء / ٩٦.

«قُلْ كَفىٰ بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» العنكبوت / ٥٢.

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ ... كَفىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» الاحقاف/٨.

«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفىٰ بِاللهِ شَهِيداً» الفتح / ٢٨.

اقرَّ: انني لستُ المسيح، فسألوه: هل انت إلياس؟ قال: لست الياس. هل انت ذلك النبي؟ فاجاب: كلا. فقالوا له: اذن من انت كي نأخذ الجواب لاولئك الذين ارسلونا؟ وماذا تقول بشأنك؟ قال: انا صوت المنادي في الصحراء: اسلكوا صراط الله كما قال اشعيا النبي، فكان هنالك مبعوثون من فريسيان فسألوه: اذا لم تكن المسيح وإلياس ولست ذلك النبي فلماذا تُعمّد...؟ الكتاب المقدس، العهد القديم، دار السلطنة ـ لندن، ١٩١٤. ورد في البندين ٤٠ ـ ٤١ من الباب السابع من نفس هذا الانجيل: عندما سمع الكثير من اولئك الناس هذا الكلام قالوا ان هذا الرجل هو المسيح حقاً، وقال آخرون: هذا الرجل هو ذلك النبي.

وقال المسيحيون في هذه العبارة: ربما يكون المراد من «ذلك النبي» هو عيسىعليه السلام، وربما يكون المراد نبياً آخر، ثم رجحوا ان يكون المراد عيسىعليه السلام، لكن علماء المسلمين رأوا انطباقها على نبي الاسلامﷺ وهذا أوضح مورد لا ينطبق على عيسى وموسىعليهما السلام ويدل على ان المسيحيين كانوا ينتظرون نبياً آخر غير عيسىعليه السلام، والعبارة تدل بوضوح على ان «ذلك النبي» غير عيسى وواضح انطباقها على نبي الاسلامﷺ إلّا بالنسبة للذين يؤمنون بنبي آخر خلال الفترة ما بين عروج عيسى وبعثة نبي الاسلامﷺ، فليس هنالك شك في دلالتها على مجيء نبي بعد عيسىعليه السلام.

«وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً» النساء / ٧٩.

وفي الآية ١٩ من سورة الانعام عُدّ الله اكبر شاهدٍ[١] على حقانية القرآن، فيقول تعالى:

«قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».[٢]

ب ـ الآية التي تقول بان الله والملائكة يشهدون على ان القرآن من عند الله، وان الله يكفي شاهداً:

«لٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً»[٣] النساء / ١٦٦.

ج ـ الآيات التي تتحدث عن شهادة مخلوق آخر يحمل عنوان «مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ» و«شٰاهِدٌ مِنْهُ»:

«وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ» الرعد / ٤٣.

«أَفَمَنْ كٰانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسَى إِمٰاماً وَرَحْمَةً أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ...» هود / ١٧.

هنالك ثلاثة أمور يجدر ذكرها في ما يخص الآيات اعلاه هي:

---

١. ان السر في عدّ شهادة الله اكبر شهادة وان الله هو اكبر شاهد في هذه الآية هو ان عظمة وجلالة أي شاهد منوطة بثلاثة مقامات هي التحمل، الضبط، الأداء، وان الله اكبر شاهد في ثلاثتها، ففي مقام تحمل الشهادة، يقول القرآن: «وَمٰا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقٰالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاٰ فِي السَّمٰاءِ وَلاٰ أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَلاٰ أَكْبَرَ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ» يونس / ٦١. وفي مقام الضبط يقول: «قَدْ عَلِمْنٰا مٰا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنٰا كِتٰابٌ حَفِيظٌ» ق / ٤. وفي مقام الاداء فقد قدَّم الله سبحانه افضل بيان وتفسير في هذا المجال حيث يقول: «بِلِسٰانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» الشعراء / ١٩٥. و«نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ» يوسف / ٣. وبناءً على هذا فان الله هو الافضل في المقامات ثلاثتها واعظم واكبر شاهد وشهيد وضابط للشهادة. من هنا فهو يقول في عدة موارد حتى عندما ترد شهادة الملائكة: «وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً».

٢. ووردت كفاية شهادة الله على رسالة النبي ﷺ في الآية ٤٣ من سورة الرعد ايضاً.

٣. بما ان الله اكبر شهيد ـ كما مرّ خلال الكلام في الهامش المتقدم ـ وان شهادة الآخرين ومنهم الملائكة و«مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ» هي في طول شهادة الله وليس في عرضها فقد اكتُفي بالله شهيداً في هذه الآيات.

المراد من الشهادة

ليس المراد من الشهادة علم الله أو علم الملائكة أو علم من عنده علم الكتاب، لان العلم يختلف عن الشهادة، فالشهادة ترتبط باثبات أمر أو موضوع، بينما العلم أوسع من ذلك، كما انه ليس المراد من الشهادة في جميع هذه الآيات تحمُّل الشهادة، بل المراد في بعضها الناظر الى اثبات حقانية القرآن، هو اداء الشهادة بدليل ان ما له التأثير المباشر في مقام اثبات المدّعى هو اداء الشهادة وليس مجرد تحمّل الشهادة، وان سياق بعض هذه الآيات يثبت بوضوح ان المقام فيما يخص هذه الآيات هو مقام انكار أو اثبات حقانية الرسالة وكون القرآن من عند الله، وسيأتي المزيد من توضيح ذلك.

انواع الشهادة

الشهادة في مرحلة الاداء نوعان: الشهادة اللفظية التي تؤدى بواسطة الالفاظ والعبارات، والشهادة العملية حيث يُدلي الشهيد بشهادته من خلال قيامه بفعل ما، ففعله اداء للشهادة.

على صعيد دراسة القرآن وكونه من عند الله يجب ان تستند الشهادة اللفظية الى الشهادة العملية، والّا فان الشهادة اللفظية ليست لا تثبت المدّعى المتقدم فحسب بل تثير مدّعىً جديداً بالاضافة الى المتقدم وهذا بذاته يحتاج الى اثبات، واستناد الشهادة اللفظية الى الشهادة العملية تعني ان يشهد الله في البداية شهادة عملية على رسالة النبي بانزال معجزة ويثبتها، وبعد اثبات الرسالة وان ما يقوله النبيﷺ هو كلام الله، يتسنى للرسولﷺ التحدث بالشهادة اللفظية والقولية لله علي ايّ أمر آخر، وفي مثل هذه الحالة فقط تكون الشهادة اللفظية معتبرة ولها القابلية على اثبات المدّعى، ولن يكون هنالك مدّعى جديد يحتاج للاثبات.[1]

---

١. ربما يقال: احياناً تثبت نبوة نبي الاسلامﷺ من خلال إخبار الانبياء السابقين. اذن الشهادة اللفظية نافعة

المراد من قوله تعالى «مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ»

ورد الحديث في الآيات الكريمة عن ثلاثة شهود حول قضية رسالة نبي الاسلام صلى الله عليه وآله وحقانية القرآن وهم «الله»، «الملائكة» و«مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ»، والمراد من الله والملائكة واضحٌ، ولكن هناك آراء فيما يخص الشاهد الثالث، فبعض رأى ان الشاهد الثالث هو الله ايضاً وان العطف هو عطف تفصيلي، فيما قال البعض الآخر ان المقصود هو علماء اهل الكتاب الذين آمنوا وشهدوا أو الذين سيؤمنون وسيشهدون فيما بعد، أو المراد هو علمهم بحقانية القرآن وليس شهادتهم، واعتقد البعض ايضاً ان المراد هم الذين ادركوا حقانية القرآن عن طريق الاعجاز.

وكما قال البعض فيما يخص الكتاب بما يتناسب مع الاقوال اعلاه من ان المراد هو القرآن، وقال آخرون انه التوراة والانجيل لاسيما التوراة المتداولة، وقال البعض الآخر هو اللوح المحفوظ، ولكن في ضوء وقت نزول الآية وخصوصياتها، فان الوجه الاكثر مناسبة هو ان المراد من قوله «مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتٰابِ» و«شٰاهِدٌ مِنْهُ» هو مَنْ ادرك حقانية القرآن عن طريق ارقى من الطرق المتعارف عليها ـ الاعجاز أو إخبار الكتب السماوية السابقة ـ ويدلي بشهادته ويتحمل الشهادة معولاً على تلك المعرفة، وان ارتباطه الوثيق جداً بالنبي صلى الله عليه وآله ادى الى ان يحظى بانتماء خاص له صلى الله عليه وآله بحيث تُستخدم بحقه عبارة «يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ» ومضداق ذلك ـ كما ورد في العديد من الروايات ـ هو أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام.[1]

بالرغم من عدم استنادها الى الشهادة العملية، ولكن ينبغي الانتباه الى ان الشهادة اللفظية للانبياء السابقين وبالتالي شهادة نبي الاسلام صلى الله عليه وآله تستند الى الاعجاز والشهادة العملية لله على يد الانبياء السابقين، واعتبارها ناجم عن الاستناد الى الشهادة العملية.

١. للمزيد من التوضيح في هذا المجال، راجع: نفس المصدر للطباطبائي: ج ١١، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٩؛ والتفسير الموضوعي، عبدالله الجوادي الآملي: ج ٣، ص ٢٨٢ ـ ٣٢١، الطبعة الاولى، مركز رجاء للنشر الثقافي ـ طهران، ١٣٦٤ هـ.ش.

الآن وفي ضوء الموضوعات الآنفة الذكر يتم بحث المراد من هذه الآيات وعلاقتها بالادلة على ان القرآن من عند الله، وكما تقدمت الاشارة بان آراء المفسرين مختلفة في هذا المضمار، وهذه الرؤى تتلخص في أربع نظريات هي:

١ـ المراد هي الشهادة اللفظية لله في آيات القرآن الكريم على رسالة النبيﷺ ونزول القرآن من لدن الله سبحانه، من قبيل:

«يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» يس / ١ ـ ٥.

فاذا كان المراد من هذه النظرية ان الله يريد بشهادته اللفظية اثبات حقانية القرآن ورسالة النبيﷺ أمام المنكرين، فهذا ـ كما نوّهنا سابقاً ـ خاضع للنقاش، فنظراً لان المنكرين يعتبرون القرآن كله افتراءً فهم لا يرون آيات الشهادة اللفظية من عند الله ايضاً، ولا يمكن من خلالها اثبات شيء أمام المنكرين.

٢ـ المراد الشهادة العملية لله من خلال الادلة والمعاجز التي وضعها تحت تصرف النبيﷺ.

وهذه النظرية لا تنسجم ايضاً مع سياق وظاهر الكثير من هذه الآيات، فقد سبقت هذه الآيات وتلتها الادلة والشهادة العملية لله وهي اعجاز القرآن، وهي لا تتناسب بما فيه الكفاية مع عبارة «بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» الواردة في معظمها، وكذلك لا تتناسب مع ذيل الآيات.

٣ـ المراد شهادة الله على رسالة النبيﷺ في الكتب السماوية السابقة.

وهذه النظرية مما لا يمكن القبول بها ايضاً لأن حصر الشهادة بالشهادة في الكتب السماوية السابقة يحتاج الى قرينة لا وجود لها في هذه الآيات، كما ان كون المخاطب بهذه الآيات هم الكفار لا يتناسب مع هذه النظرية.

٤ـ ان الغاية من هذه الآيات ليس اثبات المدّعى، وانما يجري الحديث عن شهادة الله لتهديد المخالفين وانهاء النزاع وارجاع الأمر الى مالكه الحقيقي، بعد

اثبات حقانية القرآن ورسالة النبيﷺ عن طريق اعجاز القرآن ووضوح الحقيقة أمام المنكرين، لغرض التأثير عاطفياً ونفسياً على المخالفين كي يتخلوا عن عنادهم وتعصبهم.[١]

يبدو ان الغاية من الآيات التي تطرح شهادة الله ـ ماعدا الآية ١٦٦ من سورة النساء ـ هي تلك الملاحظة الواردة في النظرية الاخيرة، وان سياق الآيات ومستهلها وذيلها وعبارة «بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» يؤيد هذا الأمر. ولكن المراد في الآية ١٦٦ من سورة النساء هو الشهادة العملية لله بمعنى ان الله شهد على ان القرآن من عند الله وعلى رسالة النبيﷺ بجعل القرآن معجزة وانزاله على النبيﷺ. وهذا أمر تُبرزه الآية الكريمة بقوة بل بكل صراحة حيث تقول: «لٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ». يتضح مما تقدم ان المراد من الشهادة في الآية ١٦٦ من سورة النساء هو اداء الشهادة أو تحمّل الشهادة واداؤها.

الطائفة الثانية: آيات التهديد بالعقوبة

تدل هذه الآيات على ان الله سبحانه وتعالى يعاقب النبيﷺ عقوبة شديدة وعاجلة إن هو افترى على الله.

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاٰ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» الاحقاف / ٨.

«تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنٰا بَعْضَ الْأَقٰاوِيلِ * لَأَخَذْنٰا مِنْهُ بِالْيَمِينِ[٢] * ثُمَّ لَقَطَعْنٰا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمٰا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حٰاجِزِينَ» الحاقة / ٤٣ ـ ٤٧.

---

١. راجع نفس المصدر للطباطبائي: ج ١٣، ص ٢٠٨، ذيل الآية ٩٦ من سورة الاسراء.

٢. ذُكرت اربعة وجوه لهذه العبارة هي: أ ـ المراد من اليمين اليد اليمنى حيث يُمسك المجرم من يده اليمنى لدى القاء القبض عليه. ب ـ المراد القوة والقدرة حيث يسلب الله تعالى القوة والقدرة من المفتري على الله. ج ـ المراد هو الحق أي نأخذه وننتقم منه بالحق. د ـ المراد قدرة الله، أي ننتقم منه بكل قوة، والوجهان الثاني والرابع اكثر تناسباً مع ظاهر الآية.

«وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً».[١] الاسراء / ٧٣ ـ ٧٥

كما ورد في شأن نزول هذه الآيات،[٢] فانها تدل على ان مناوئي القرآن كانوا يسعون لحمل النبيﷺ على التلاعب بمعارف الوحي وان يقرأ كلاماً طبقاً لرغبتهم على انه وحي قرآني، لكن مثل ذلك لم يحصل بفضل الامداد الالهي والعصمة، غير ان الله يذكّر بانه لو كان مثل العمل قد بدر عن النبيﷺ لعوقب عقاباً شديداً وعاجلاً. وهذا الأمر أحد مصاديق اللطف الذي عدّه المتكلمون في بحث التوحيد أحد الامور اللازمة على الله وقسّموه الى اللطف المقرّب واللطف المحصّل، وقد عرّف المتكلمون اللطف المقرب بما يلي:

«اللطف هو ما يقرّب العبد الى الطاعة ويبعده عن المعصية ولا حظّ له في التمكين ولا يبلغ الالجاء».[٣]

وعلى اساس قاعدة اللطف يرى المتكلمون وجوب العديد من الامور على الله من قبيل التكليف، وبيان الحلال والحرام، وعصمة الانبياء، وضرورة وجود الامام، وعصمة الائمة وضرورة بعث الانبياء واثبات نبوة النبي الخاص عن طريق الاعجاز.[٤] وقدّم بعض المفسرين كلاماً مشابهاً لقاعدة اللطف في تفسير الآيات المتقدمة واستنتجوا منه اثبات النبوة واثبات ان القرآن من عند الله سبحانه وتعالى.[٥]

---

١. شبيه هذه الآيات، الآيات ١٢٠ من سورة البقرة و٣٧ من سورة الرعد حيث جرت الاشارة فيها الى عقوبة النبيﷺ في حالة مجاراة رغبة الكفار.

٢. راجع نفس المصدر للطبرسي: ج ٦، ص ٤٣١.

٣. الباب الحادي عشر، العلّامة الحلي: ص ٣٢، تحقيق مهدي محقق، الطبعة الثانية، مؤسسة الروضة الرضوية للطباعة والنشر ـ مشهد، ونفس المصدر لنصير الدين الطوسي: ص ٢٥٤. اما تعريف اللطف المحصّل فهو كما يلي: «ما يُخرج فعل المكلّف عن كونه لغواً أو ما يتوقف عليه غرض المخلقة وصونها عن اللغو».

٤. راجع نفس المصدرين حسب ترتيب الصفحات ٣٦ ـ ٣٧ و ٢٧١ ـ ٢٧٣ و ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

٥. راجع حاشية مجمع البيان، ابوالحسن الشعراني: ج ٩ ـ ١٠، ص ٣٥٠، الطبعة الرابعة، المكتبة الاسلامية ـ طهران، ١٣٩٠.

ولكن ينبغي الانتباه الى ان هذه الآيات ناظرة الى نبوة ثابتة وهي تقصد اثبات عصمة رسول الله ﷺ بمعنى ان هذه الآيات وبعد اثبات حقانية القرآن ورسالة النبي ﷺ عن طريق الاعجاز، ترمي الى بيان ان الرسول ـ بما هو رسولنا ـ اذا ما افترى علينا كذباً فاننا سنعاقبه وبناءً على هذا فهو معصوم. إذن فان النبوة اعتبرت أمراً مفروضاً ومفروغاً عنه في هذه الآيات ويتم الاستدلال فيها على عصمة النبي ﷺ.

وبعبارة اخرى، اذا سلّمنا بقاعدة اللطف بتلك الشمولية التي وردت في تعريفها واعتبرنا الآيات ناظرة الى قاعدة اللطف فان هذه القاعدة تتخذ مجراها في موضع يعجز اهل الفن أو يقعون في الحيرة عند تشخيص المعجزة، ولكن لا تجري هذه القاعدة حينما لا يقع الشك في تمييز المعجزة عن غيرها، أي اذا ما ادعى أحد انه نبي ولكن اتضح أمام اهل الفن بان ما جاء به كمعجزة ليس معجزة، فليس لزاماً على الله ان يعاقب مدّعي النبوة عقوبة عاجلة، كما نرى على ارض الواقع من عدم تعرض الذين ادّعوا النبوة كذباً الى الانتقام الالهي العاجل. كما ان مدّعي النبوة اذا ما جاء بمعجزة بحيث يتيقن الناس بانها معجزة فلا يلزم على الله أمر آخر يحمل عنوان اللطف لاثبات النبوة، نعم اذا ما ادعى أحد النبوة واقدم على فعل على انه معجزة ولم يستطع الناس التمييز ما اذا كان ذلك الأمر معجزة أم لا، وجبَ على الله بيان الحقيقة وفضح مدّعي النبوة أو معاقبته اذا ما كان كاذباً؛ لكن موضع البحث أي اعجاز القرآن هو من الصنف الثاني، وان اعجاز القرآن الذي هو موضع بحثنا وعدم اعجاز غيره من السور التي افتعلها البشر من الوضوح بحيث ينتفي جريان هذه القاعدة، كما انه في حالة وضوح اعجاز القرآن تثبت نبوته ﷺ وحقانية القرآن، ولا يصل الدور الى ان نبي الاسلام اذا لم يكن نبياً فعلى الله ان يعاقبه ولا يلزم مثل هذا الأمر على الله لان الناس يميزون طريق القرب بدونه، وواضح أمامهم عدم اعجاز ما قدمه ادعياء النبوة

كمعجزة لهم، ولا يبتلون بالضلالة في مجال قربهم من الله كي يقوم الباري تعالى بالانتقام من المدّعين زيفاً للنبوة لغرض هدايتهم.

نعم بعد اثبات نبوة النبيﷺ وان القرآن من عند الله عندما تأخذ هذه الآية مكانها ضمن مجموعة الآيات النازلة، يصبح مفادها: ان كل ما يتكلم به النبيﷺ هو كلام الله، وان النبيﷺ لا يفتري على الله ابداً، كما ان قاعدة اللطف تقتضي مثل هذا الأمر ايضاً.

وبالنتيجة اذا ما ثبتت نبوة أحد من خلال مجيئه بالمعجزة ثم افترى بعد ذلك كذباً على الله فعلى الله ان يعاقبه، والّا فان وجود مثل هذا النبي يؤدي الى إضلال الصادقين والتواقين الى الحقيقة من الناس ويستدعي نقض الغرض من بعث الرسل ـ وهو هداية البشر ـ ومن التكليف.

في ضوء ما تقدم اتضح ان هاتين الطائفتين من الآيات لا تمثل سبلاً أو ادلة اخرى على كون القرآن كله هو من عند الله وعلى احقية رسالة النبيﷺ، وان طريق اثبات هذه الامور المتلازمة مع بعضها هو اعجاز القرآن وإخبار الانبياء السابقين عن مجيء مثل هذا الكتاب وهذا النبي.

الفصل الرابع

صيانة القرآن من التحريف

ان قضية صيانة القرآن من التحريف تحظى بأهمية فائقة من جهات متعددة؛ فمن ناحية اذا لم تثبت صيانة القرآن من التحريف (النقص، الزيادة، تغيير الآيات والكلمات والسور أو تبديلها) سيتعرض للتشكيك ايُّ استناد الى آيات القرآن لوجود احتمال تحريف الآيات المستند اليها وتغيير ما كان يريده الله، ومع وجود مثل هذا الاحتمال لن يكون الاستدلال بها مثمراً.

ومن ناحية اخرى ـ وكما سيأتي في الادلة القرآنية على نفي التحريف ـ هناك ترابط وثيق بين اعجاز القرآن وعدم تحريفه، وان القبول بتحريف القرآن ـ على اقل تقدير في بعض صوره ـ يستلزم انكار اعجاز القرآن وبالتالي عدم امكانية اثبات نبوة النبي الاكرمﷺ بشكل مباشر عن طريق اعجاز القرآن.

بغض النظر عن الأمر اعلاه، فان اعتبار احاديث النبيﷺ والائمة المعصومينعليهم السلام لاسيما لدى تعارض الروايات مع بعضها يستند الى القرآن، فاذا ما وقع تحريف في القرآن فان التشويه يمس اعتبار الاحاديث ايضاً،[1] وعلى هذا الأساس فان اكثر الابحاث تجذراً في معرفة القرآن بعد بحث اعجاز القرآن هو صيانة القرآن من التحريف.

---

١. بالرغم من ان هذه الآثار تترتب على بعض صور تحريف القرآن، لكن ادلة الذين يدّعون التحريف تتضمن مثل هذه الصور نوعاً ما، وان هذا النمط من التحريف هو موضع الاختلاف والنزاع.

مفهوم التحريف وانواعه:

مفردة التحريف مأخوذة من اصل «الحرف» وتعني الشفا والجانب وحدود الشيء، وتعني في اللغة الإمالة والانحراف والتغيير،[١] وتحريف الكلام يعني إحداث نوع من التغيير والانحراف فيه.

وفي تصنيف عام يمكن تقسيم تحريف الكلام ومنه تحريف القرآن الى نوعين: تحريف معنوي وتحريف لفظي، والمراد بالتحريف المعنوي الفهم المنحرف وتفسير الكلام وتوجيهه بما يناقض مرام المتكلم، ومن المسلّم به وقوع مثل هذا التحريف في القرآن، وقد شكا عليؑ الى الله تعالى في نهج البلاغة من وقوع هذا التحريف في زمانه،[٢] وهو ينبئ عن وقوعه في المستقبل ايضاً،[٣] وذكر القرآن الكريم ايضاً وقوع هذا النوع من التحريف في الكتب السماوية السابقة معبراً:

«يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ» النساء / ٤٦، «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ» المائدة / ٤١، «يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ» البقرة / ٧٥.

وقد اتخذت النقطة المعاكسة للتحريف المعنوي للكتب المقدسة، في الآيات والروايات عنوان تلاوة الآيات حق تلاوتها.[٤]

واذا كان التحريف اللفظي يعني عدم الالتزام بتسلسل نزول الآيات والسور لدى كتابة القرآن وتلاوته فمن المسلّم به انه قد وقع أيضاً في القرآن بما يعني ان آيات

---

١. راجع: اساس البلاغة للزمخشري، الطبعة الاولى، اصدارات مكتب الاعلام الاسلامي، قم، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير لابي العباس احمد الفيومي المقرّي، الطبعة الاولى، مطبوعات محمد علي صبيح واولاده ـ مصر، ١٣٤٧.

٢. «الى الله اشكو من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضُلالاً ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب اذا تُلي حق تلاوته ولا سلعة انفق بيعاً ولا اغلى ثمناً من الكتاب اذا حُرّف عن مواضعه» نهج البلاغة: الخطبة ١٧.

٣. «وانه سيأتي عليكم من بعدي زمان... ليس عند اهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب اذا تُلي حق تلاوته ولا انفق منه اذا حُرّف عن مواضعه» نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧.

٤. «يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ» البقرة / ١٢١.

القرآن وسوره التي بين ايدينا لم يتم تنظيمها في كثير من الموارد طبقاً لتسلسل النزول.

ومن ناحية اخرى، ان القرآن النازل على نبي الاسلام ﷺ لم يُفقد ولم يُضَفْ عليه شيء منذ نزوله وحتى الآن، بل كان على الدوام يُكتب ويُحفظ بين المسلمين وقرئ بتواتر قطعي لا نظير له جيلاً بعد جيل حتى وصل الينا،[1] وهذا الموضوع من مسلّمات التاريخ وموضع اجماع وقبول المسلمين بل العلماء من غير المسلمين.

ان الموضوع الذي يخضع للاختلاف في التحريف اللفظي هو التغيير في اعراب الكلمات، وتغيير الآيات والكلمات وحذف بعض آيات القرآن الكريم أو كلماته أو حروفه مع المحافظة على اصلها.

لقد ذُكرت شواهد تاريخية وادلة عقلية ووثائق روائية وقرآنية عديدة لاثبات صيانة القرآن من التحريف، ونظراً للصفة القرآنية لابحاث الكتاب ستكون الوثائق والادلة القرآنية على عدم التحريف هي المحور الاساسي، ويُكتفى بالاشارة الى سائر الادلة والشواهد.

الشواهد التاريخية

ثمة امور مهمة فيما يخص الشواهد التاريخية على عدم التحريف هي:

١ـ قوة الحفظ المذهلة لدى العرب المعاصرين للقرآن ورغبتهم الفائقة بالقرآن بسبب فصاحته وبلاغته ونغمته المعجزة.

٢ـ الاستئناس الكبير للمسلمين بالقرآن وحفظه وتلاوته.

٣ـ قداسة القرآن لدى المسلمين وحساسيتهم ازاء احداث أي تغيير فيه.

٤ـ تعاليم النبي الاكرم ﷺ ووصاياه بتلاوة القرآن وكتابته وحفظه وجمعه.

---

١. ليس المراد من التواتر هنا ما يصطلح عليه بالتواتر في علم الاصول حيث يُروى الموضوع عبر سلسلة من الاسانيد المختلفة والمتعددة، بل المراد التواتر المنطقي وإن لم تُسجل اسماء الاشخاص ولم نطّلع عليها.

٥ـ عدم إثارة تحريف القرآن ضمن الانتقادات الموجهة للحكام من بعد رسول الله ﷺ.[١]

الدليل العقلي

في الدليل العقلي تُستنتج صيانة القرآن عن التحريف من خلال الارتكاز على مقدمتين وكما يلي: ان الله الحكيم قد انزل القرآن لهداية البشر، ونظراً لخاتمية الدين الاسلامي ونبيه ﷺ، فلو تعرّض القرآن للتحريف فانه لن يأتي نبي ليوضح الطريق الصحيح أمام الناس وسيتعرضون للانحراف دون ان يكونوا مقصّرين في هذا الانحراف، بل ان هذا الانحراف يرجع الى فقدان الصيانة الالهية، وهذا ما لا ينسجم مع ساحة القدس الالهي ويعدّ نقضاً للغرض ومخالفة للحكمة الالهية.[٢]

ان هذا الاستدلال لا يخلو من المناقشة، فمن ناحية لا يستلزم كل لون من الوان التحريف اضلالاً للناس، ومن جهة اخرى فان الحفظ الكامل للقرآن أو ارسال النبي الجديد ليس هو السبيل الوحيد للحيلولة دون ضلال الناس.

---

١. جرى التصريح احياناً ـ ضمن الانتقادات المثارة ـ بعدم وقوع التحريف اللفظي ووقوع التحريف المعنوي، ففي الرسالة ـ على سبيل المثال ـ التي كتبها الامام الباقر عليه السلام الى سعد الخير، يقول عليه السلام بعد ذمه لزعماء اهل الكتاب الذين حرفوا نصوصهم الدينية معنوياً: «ثم اعرف اشباههم من هذه الامة الذين أقاموا حروف الكتاب وحرّفوا حدوده». الروضة من الكافي، الكليني: ص ٥٤، الطبعة الثانية، دار الكتب الاسلامية ـ طهران، ١٣٤٨.

٢. ورد هذا الدليل في كلام آية الله الجوادي الآملي. راجع: نزاهة القرآن عن التحريف، الجوادي الآملي، مؤسسة الاسراء (لم يصدر لحد الآن). وذُكر دليل آخر في كتاب «البيان في تفسير القرآن» وهو موصوف في بعض مصادر علوم القرآن بانه دليل عقلي لكن مستنده الاصلي هي الشواهد التاريخية. راجع: نفس المصدر للسيد ابي القاسم الموسوي الخوئي: ص ٢١٥ ـ ٢٢٠.

الدليل الروائي

كثيرة هي الروايات التي يُستند عليها لاثبات صيانة القرآن من التحريف، وبعضها عبارة عن:

١ـ حديث الثقلين المعتبر المروي بشكل متواتر في المصادر الروائية للشيعة والسنّة، وقد ورد في هذا الحديث ان القرآن واهل البيت عليهم السلام ثقلان لن تضلّ الامة الاسلامية مادامت متمسكة بهما.[١]

٢ـ هناك روايات كثيرة توصي باتخاذ القرآن محوراً ومحكاً في تمييز الآراء والاهواء والتيارات الفكرية والاجتماعية، والحق من الباطل، من قبيل: «اذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن».[٢]

٣ـ الروايات التي تؤكد على عرض الاحاديث على القرآن وإلقاء ما خالف منها القرآن جانباً. ورد في بعض هذه الروايات:

«تركك حديثاً لم تروه خير من روايتك حديثاً لم تحصه... فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه».[٣]

٤ـ هناك روايات كثيرة تدل بصراحة أو بالملازمة القطعية على صيانة القرآن من التحريف في عهد الائمة عليهم السلام،[٤] والظاهر منها صيانة القرآن على مر التاريخ، من قبيل الرواية الواردة عن الامام الصادق عليه السلام حيث يُسأل عن القرآن فيقول في الجواب:

«هو كلام الله وكتاب الله ووحي الله وتنزيله، وهو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من

---

١. للاطلاع على أسانيد هذا الحديث، راجع مصادر الشيعة والسنّة.

٢. نفس المصدر، محمد باقر المجلسي: ج ٩٢، ص ١٧.

٣. مستدرك الوسائل، الميرزا حسين النوري الطبرسي: ج ١٧، ص ٣٢٥، الطبعة الاولى، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث ـ بيروت، ١٤٠٨.

٤. ان موضوع عدم مبادرة علي عليه السلام لأي اجراء فيما يخص القرآن بعد استلامه للخلافة الظاهرية يعد من الناحية التاريخية والروائية شاهداً آخر على عدم تحريف القرآن حتى ذلك الوقت.

بين يديه ولا من خلفه»،[١] أو قوله في رواية اخرى: «وانه حقٌ من فاتحته الى خاتمته».[٢]

الادلة القرآنية على الصيانة من التحريف

١ـ آيات التحدي

كما تقدم في الفصل السابق فان آيات التحدي تدل على العجز عن الاتيان بمثيل لأي سورة من سور القرآن، وقد ذكّرنا هناك ان المراد من السورة ليس معناها الاصطلاحي الدارج بل المراد معناها اللغوي أي مجموعة معينة ومحددة ومبرزة ومستقلة من الآيات، أو منظومة من الآيات المترابطة مع بعضها تصبو نحو غاية واحدة ولها بداية ونهاية، ومقدمة ونتيجة وذروة محددة، سواء كانت واحدة من السور الـ ١١٤ في القرآن أو أقل منها.

في ضوء ما تقدم، اذا ما زعم زاعم ان احدى سور القرآن الذي بين ايدينا لم تكن ضمن القرآن النازل على النبيﷺ واضيفت اليه فيما بعد، فان آيات التحدي تدحض هذا الادعاء، فلو كان الأمر كذلك فانه يُفترض ان يكون بالامكان الاتيان بسورة مثلها، لان هذه السورة ليست من كلام الله الذي لا يمكن الاتيان بمثله، وبما انه من غير الممكن الاتيان بمثيل لأيٍّ من سور القرآن يتضح عدم وجود سورة فيما بينها من صنع وتدبير عقل الانسان.

واذا قال مدّعي التحريف ان التحريف وقع في السور القرآنية بهذا النحو وهو ان مقطعاً من سورة واحدةٍ هو من الله والمقطع الآخر أضافهُ الانسان، وفي الحقيقة ان جانباً من السورة قد جرى حذفه واستُبدل به مقطع من صنع الانسان.

---

١. نفس المصدر، محمد باقر المجلسي: ج ٨٩، ص ١١٧ ـ ١١٨.

٢. نفس المصدر، ابو جعفر محمد الصدوق: ج ٢، ص ١٢٠.

هذا النمط من التحريف تفنده آيات التحدي ايضاً، لانه من الممكن الاتيان بمثل هذه السورة لأن المقطع الذي من صنع الانسان ليس الهياً وليس معجزة وبالامكان الاتيان بمثله، ونظراً لان المقطع الآخر اقل من سورة فليس ثمة دليل على عدم امكانية المجيء بمثله لان مقتضى آيات التحدي هو العجز عن الاتيان بمثيل لسورة من القرآن. علاوة على ما ذُكر فان هاتين الصورتين وايّ صورة اخرى تستلزم زيادة في القرآن تعتبر ـ كما مرّ علينا ـ مخالفة لمسلّمات تاريخ القرآن واجماع الباحثين في القرآن.

ان آيات التحدي عاجزة عن اثبات عدم تحريف القرآن بصورة الغاء سورة كاملة من القرآن، ففي حالة وقوع مثل هذا التحريف فان مفاد آيات التحدي التي تقول بعدم امكانية المجيء بمثل سورة من سور القرآن يبقى صحيحاً.

واذا زعم مدّعي التحريف حذف اقل من سورة من القرآن فان آيات التحدي تفند هذا النمط من التحريف لان باقي تلك الآيات سيكون اقل من سورة واحدة ويُفترض امكانية المجيء بمثلها، إذ ان آيات التحدي ترى تعذر المجيء بما يعادل سورة واحدة، إذاً بامكان الانسان الاتيان بأقل من سورة واحدة، في حين انه لم يقع مثل هذا الأمر بحيث يأتي أحدٌ بمقطع من القرآن يكون مستقلاً عن مجموع سائر الآيات الاخرى.

أما اذا كان التحريف المزعوم في مجال تغيير الآيات وتبديلها الى جانب المحافظة على السور وعدم حدوث زيادة أو نقيصة فيها، فان كان التغيير الى الحد الذي يغيّر النظام الظاهري أو مضمون القرآن النازل بحيث يكون اختلاف النظم السائد مع النظم الاعجازي بيّناً بالنسبة لاهل الفن، فان آيات التحدي تدحض مثل هذا التحريف ايضاً، اذ في مثل هذه الحالة يكون النظم الاعجازي الذي كان قد نزل من لدن الله وعدم امكانية المجيء بمثله قد اصيب بالارباك وحدث نظم اقلّ مستوى من الاعجاز

ويُفترض المجيء بمثله، ولكن اذا ما كان تغييراً لا يُحدث مثل هذا الارباك في النظم فان آيات التحدي لا تدحضه.[١]

٢ـ دلالة اوصاف القرآن على عدم التحريف

في هذا الدليل تثبت صيانة القرآن في ضوء عدة مقدمات هي:

أـ ان ظهور نبي الاسلام قبل اكثر من اربعة عشر قرناً، وادعاءه النبوة، والمجيء بكتاب اسمه القرآن والتحدي به، هي من مسلمات التاريخ.

ب ـ من مسلّمات التاريخ ايضاً موضوع ان القرآن المتداول حالياً هو نفس ذاك القرآن الذي جاء به نبي الاسلامﷺ، أي لم يكن الأمر بحيث ان القرآن قد فقد في مقطع معين من تاريخ الاسلام، وأُلف كتاب بدلاً عنه سواء كان مشابهاً أو غير مشابه له وجرى تداوله في اوساط المسلمين.

جـ نشاهد من خلال البحث في القرآن الحالي ان القرآن يصف نفسه باوصاف عامة تتصل بكافة آياته ويتحدى بها من قبيل الفصاحة والبلاغة، عدم وجود الاختلاف، وعدم تضمنه لموضوع خاطئ وكونه ذكراً.[٢]

دـ ان التمعن في آيات القرآن الحالي تكشف عن هذه الحقيقة وهي ان كافة مقاطع القرآن الفعلي تتمتع بهذه الصفات العامة، فجميع آياته ذات فصاحة وبلاغة خارقة للعادة، ويُلاحظ بينها تناسق تام، ولا يوجد فيها موضوع يفتقد الصواب، وتتطابق

---

١. لا شك بوجود آيات التحدي بهذا المضمون في القرآن النازل على النبيﷺ وان مدّعي التحريف يعترف بذلك ايضاً بالاضافة الى ان التحدي بالقرآن من المسلّمات التاريخية والروائية مضافاً اليها اننا نثبت اعجاز القرآن في ضوء القرآن الموجود فعلاً، واستناداً الى اعجازه نستنتج عدم تحريفه. بناءً على هذا لا وجود لاشكال الدور وما شابهه لدى الاستدلال بآيات التحدي.

٢. ان الآيات التي تتضمن هذه الاوصاف من الكثرة بحيث ينتفي كلياً الادعاء بتحريفها ولا يقول المدّعون بالتحريف ايضاً انها محرفة.

الاخبار المتعلقة بسالف التاريخ والتنبؤات بالمستقبل مع الحقائق القائمة، وتنطبق صفات من قبيل النور والهدى على كافة آياته، وتصدق اشمل صفاته أي الذكر ـ التي وصف بها القرآن في آيات التحدي ايضاً ـ على جميع آياته تماماً.

في ضوء المقدمات الآنفة الذكر، لو كان قد وقع تحريف في القرآن بحيث يؤثر في معناه، لكان من المفترض ان تنطبق هذه الصفات على بعض آياته على اقل تقدير، ولكن كما تقدم فان البحث في القرآن يؤكد التطابق الدقيق لهذه الاوصاف مع آيات القرآن بأسرها على افضل وجه. اذن لو كان قد وقع تحريف في القرآن لانحصر في أمور ليست مؤثرة في هذه الاوصاف من قبيل حذف آية مستكررة أو اختلاف في الاعراب أو في نقاط بعض الكلمات.[١]

لقد جرى بحث دلالة اعجاز القرآن على صيانته من التحريف باعتباره أول دليل قرآني على عدم التحريف، واتضح ان اثبات الحصانة بمقتضى تلك الخصيصة (الاعجاز) لا يحتاج الى المقدمات المذكورة في هذا الاستدلال وهو نتيجة تحصل عن اعجاز القرآن مباشرة، لكن دلالة سائر الاوصاف العامة للقرآن على نفي التحريف تحتاج الى ضمّ تلك المقدمات، وفي نفس الوقت ـ كما جاء في كلام المرحوم العلّامة الطباطبائي ـ فان هذا الاستدلال يفند الزيادة والنقيصة والتغييرات التي من شأنها تغيير الاوصاف المذكورة (الهداية، والذكر، والحق...الخ)، ولكن اذا ما افتُرضت بعض التغييرات التي تعتبر ثانوية ولا تأثير لها على هذه الاوصاف فانها لا تُفند بهذا الدليل، كما ان هذا الدليل بحد ذاته لا ينظر الى المستقبل ولا ينفي التحريف المفترض مستقبلاً.[٢]

---

١. ليرجع من يشاء الى نفس المصدر للسيد محمدحسين الطباطبائي: ج ١٢، ص ١٠٦ ـ ١١٠.

٢. لقد جرى نقد هذا الاستدلال في بعض مصادر علوم القرآن بما يلي:

ان هذا الاستدلال نافع في بعض الموارد كنفي الاضافات الكثيرة أو النواقص المتعددة، ولكن نفي القليل من الزيادة

٣ـ آية الذكر

ذكرنا في الفصول الماضية ان مسألة صيانة القرآن من التحريف بالزيادة تعتبر من مسلّمات التاريخ وهي مورد اجماع المسلمين بل يوافقهم في هذا العلماء المنصفون من غير المسلمين، والآن بعد اثبات عدم تحريف القرآن بما تقدم من الادلة وكون عدم الزيادة في القرآن امراً يقينياً فانه بالامكان الاستناد الى الآيات الكريمة لاثبات عدم تحريف القرآن بوصفها دليلاً نقلياً على عدم التحريف. ومن بين الآيات التي جرى الاستناد اليها كدليل نقلي على عدم التحريف، الآية الكريمة:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» الحجر / ٩.

لقد تألفت هذه الآية من جملتين، الاولى تنبئ بشكل حازم ومسلّم به عن نزول القرآن من عند الله من خلال تأكيدين «إنا» و«نحن» واستخدام ضمير الجمع «نا» و«نحن». لقد جاء استخدام التأكيد وضمير الجمع الذي يدل على عظمة الفعل وتعرضه لشكوك البعض، لان الآيات التي سبقته تشير الى ان اعداء الاسلام كانوا

أو النقص لا يستطيع هذا الدليل ان ينهض به، فعلى سبيل المثال: لا يمكنه نفي حذف عبارة «في علي» في الآية الكريمة «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» المائدة / ٦٧، اذ لا يتغير ايٌّ من اوصاف القرآن في حالة وجود أو عدم وجود عبارة «في علي».

يبدو ان هذا الانتقاد ليس مقبولاً لجهتين، الاولى: ما جرى التأكيد عليه في كلام المرحوم العلّامة الطباطبائي ﷺ في عدة مواضع من ان هذا الاستدلال ينفي النقص أو الزيادة المؤثرة في الاوصاف العامة للقرآن ومورد النقض هذا بما أنه لا يؤثر في الاوصاف العامة للقرآن فهو خارج عن حدود هذا الدليل. ومن ناحية أُخرى ان مجرد قلة الزيادة أو النقص لا يعد معياراً لعدم تغير الاوصاف العامة للقرآن، بل ربما يُحدث زيادة أو نقص حرف واحد تغييراً في تلك الاوصاف، وكمثال على ذلك، لو حُذف حرف «لن» من الآية «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» آل عمران / ٨٥، كما في القرآن المطبوع داخل اسرائيل ـ استناداً لما نقله المرحوم مغنية ـ يُفهم بان مفاد الآية تغير من حق الى باطل ومن هداية الى ضلال، وهناك الكثير من هذه الموارد على غرار ذلك في القرآن الكريم، كما يُمكن اضافة عبارات كثيرة بشكل متفرق دون ان يحدث خلل في الاوصاف العامة ماعدا الفصاحة والبلاغة لان المضمون حقٌ. راجع: التفسير الكاشف، محمدجواد مغنية: ج ٤، ص ٤٦٨، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين ـ بيروت.

يشككون في نزول القرآن من عند الله وينكرونه ويرون تأثير القوى غير الالهية في هذا المجال. وان الله سبحانه باستخدامه لهذا التأكيد وضمير الجمع يؤكد عظمة القرآن ونزوله، وكذلك ينفي تدخُّل أية قوة اخرى، ويؤكد على صيانة القرآن اثناء نزوله ونسبته اليه تعالى وحده.

وفي الجملة الثانية من الآية الكريمة يتحدث من خلال اداة التأكيد «إنا» و«لام التأكيد» وضمير الجمع وصفة الجمع، عن المحافظة القطعية والمسلّم بها على القرآن بعد نزوله.

ان طريقة بيان هذه الجملة تفيد امكانية التشكيك وكذلك عظمة الموضوع، وحيث انها تحدثت عن حصانة القرآن بعد النزول بشكل مطلق فانها تشمل المحافظة على القرآن من التحريف ايضاً اذ ليس هناك نوع من الحفظ اهم من الصيانة عن التحريف، فمن الطبيعي ان يقع تحريف رسالة ما وهنالك الكثير من الدوافع له لاسيما اذا كانت كرسالة القرآن الهادية ذات القوة الجاذبة والدافعة وتشمل كافة شؤون الحياة ومنطقها موجّه الى كافة الامم والاقوام.

ومن ناحية اخرى، مع افتراض وقوع التحريف في الرسالة فان ما يصبو اليه الله والقرآن سينتفي وتزول عنه صفة الهداية، ويجعل من نزول القرآن والجهود التي تحمّلها النبي الاكرمﷺ لابلاغه وهداية البشر في المستقبل أمراً عبثاً. فما ذُكر ـ من صيانة القرآن اثناء النزول وبعده حتى النهاية ـ هو مقتضى ظاهر الآية الكريمة.

كما ان ظاهر الآية المباركة هو الحفاظ على القرآن بوصفه كلام الله ورسالته ولا فرق بين آيات القرآن في هذا الجانب. بناءً على هذا، فالغاية هي المحافظة على كل آيات القرآن وان حصر الحفظ بمجموعة معينة من الآيات من قبيل الآيات النازلة حتى وقت نزول الآية التاسعة من سورة الحجر[1] يخالف ظاهر الآية وليس هنالك دليل عليه.

---

١. راجع: فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الارباب، الميرزا حسين النوري الطبرسي: ص ٣٧٠.

كما ان المراد من المحافظة هو الحراسة والصيانة، وحملها على علم الله ومعرفته بالقرآن[١] خلاف لظاهر الآية اذ ان أياً من علماء اللغة لم يرَ الحفظ بمعنى العلم، وان قصد هذا المعنى من هذه المفردة يفتقد المبرر والدليل.[٢]

وظاهر الآية هو المحافظة على القرآن من جميع الجوانب والأبعاد وان حصر المحافظة على القرآن بصيانته من هزيمة مضمونه أمام شبهات المخالفين أو نسخه أو امكانية المجيء بمثله ما هو الّا ادعاء ليس الّا،[٣] ولا يمكن حصر مفاد الآية فيه.

بحث عدة شبهات

نتطرق الآن لبحث شبهتين مطروحتين حول دلالة هذه الآية على عدم تحريف القرآن وهما:

الشبهة الاولى

لقد أُطلقت مفردة الذكر في الكثير من الآيات على النبيﷺ من قبيل:

«فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ» الطلاق / ٩ ـ ١٠

وعلى هذا الاساس فان المراد من الذكر في الآية التاسعة من سورة الحجر هو النبيﷺ ايضاً، ومفاد هذه الآية كما هو في الآية الكريمة:

---

١. راجع: قوانين الاصول، الميرزا ابوالقاسم القمي: ص ٤٠٥، الاصدارات العلمية الاسلامية ـ طهران، ١٣٧٨.

٢. نحتاج الى أمرين لاستخدام مفردة بالمعنى المجازي، الاول: ان يكون استخدام تلك المفردة في معنىً مجازي متداول في ذلك الزمان فلا يمكن استخدام أية مفردة مجازاً في اي معنىً. والثاني: ان تكون هنالك قرينة في الكلام تعد دليلاً على استخدام تلك المفردة في ذلك المعنى المجازي من قبل المتكلم. واستخدام مفردة «حفظ» بمعنى العلم لا هو متداول ولا في الكلام قرينة تدل على قصد هذا المعنى من هذه المفردة في القرآن الكريم.

٣. راجع: نفس المصدر للنوري الطبرسي: ص ٣٦٩.

«وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» المائدة / ٦٧

هو التكفل بالمحافظة على النبيﷺ من اذى اعداء الاسلام، وعلى اقل تقدير هناك احتمال بان يكون المراد من الذكر في الآية التاسعة من سورة الحجر هو النبيﷺ، وفي هذه الحالة تصبح مفردة الذكر مشتركاً لفظياً أو معنوياً وبالتالي تغدو مفردة متشابهة ولا يصح الاستدلال بها على عدم تحريف القرآن.[1]

الجواب

ان بحث موارد استخدام مفردة «الذكر» في القرآن تثبت بجلاء عدم امكانية القطع بان المراد من «الذكر» هو النبيﷺ، ويُحتمل في بعض الآيات فقط واوضحها الآية التاسعة من سورة الطلاق ان يكون المراد من الذكر هو النبيﷺ. اذن الادعاء بان مفردة الذكر اطلقت على النبيﷺ في الكثير من الآيات ادعاء عارٍ عن الدليل، ولا شاهد في القرآن على ان المراد من الذكر في الآية موضع البحث هو النبيﷺ.[2]

من ناحية اخرى فقد اطلقت مفردة الذكر بكل صراحة على القرآن في آيات كثيرة من قبيل:

«وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» النحل / ٤٤.

وفي هذه الحالة لا تُعدّ مفردة الذكر مشتركاً لفظياً أو معنوياً كما هو مزعوم في هذه الشبهة.

---

١. راجع: نفس المصدر للميرزا النوري الطبرسي.

٢. هنالك اربعة احتمالات حول المراد من الذكر في الآية التاسعة من سورة الطلاق هي: أ- القرآن، ب- ملك الوحي، ج- المعنى المصدري، د- النبيﷺ. والاحتمالات الأولان هما الاكثر تناسباً مع عبارة انزلنا المستخدمة في الآية، والرؤية الاولى مقبولة لدى لفيف من المفسرين مثل السدّي، وابن عطية، وأبي حيان الاندلسي، والانصاري القرطبي، والفضل بن الحسن الطبرسي، واحمد مصطفى المراغي ووهبة الزحيلي. راجع: نفس المصدر للآلوسي «الاندلسي الغرناطي»، «ابي حيان»، «البحر المحيط في التفسير»، «الانصاري القرطبي»، «ابي عبدالله محمد»، الجامع لاحكام القرآن للطبرسي، نفس المصدر لابي علي فضل، تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي، التفسير المنير لوهبة الزحيلي، ذيل الآية ٩ من سورة الطلاق.

بالاضافة الى ان الآية السادسة من سورة الحجر بمثابة قرينة واضحة على ان المراد من الذكر في الآية التاسعة من نفس السورة هو القرآن، لان الآية التي اطلقت فيها مفردة الذكر على القرآن بكل صراحة تقول:

«وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» الحجر / ٦.

والآية التاسعة رد على ذلك الافتراء الوارد في الآية السادسة، وان الالف واللام في كلمة «الذكر» هما للعهد الذكري.

الشبهة الثانية

اذا كان المراد من حفظ القرآن في هذه الآية، هو الحفاظ على كافة نسخ القرآن المكتوبة فذلك خلاف الواقع الخارجي، لان الكثير من نسخ القرآن قد جرى تحريفها على مدى تاريخ الاسلام إما عمداً من قبل اعداء الاسلام أو سهواً من قبل الكتّاب والناشرين المسلمين. واذا كان المراد هو بعض النسخ حتى وان كانت واحدة منها، لوسعَ القبول بتحريف القرآن المتداول بين المسلمين والاعتقاد بحصانة النسخة الموجودة لدى الامام صاحب الزمان عليه السلام واعتبار مفاد الآية ناظراً الى ذلك.[١]

الجواب

ان الغاية من نزول القرآن ونمط كلام الآية الكريمة واجابتها على الموضوع الوارد في الآية السادسة من نفس السورة[٢] تقتضي ان يبقى القرآن النازل على النبي صلى الله عليه وآله

---

١. راجع: نفس المصدر للميرزا حسين النوري الطبرسي: ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

٢. بعبارة واحدة، ان هدف القرآن هو هداية البشر الى المعارف والأحكام الواردة في هذا الكتاب ليبلغوا السعادة الابدية من خلال الاعتقاد والعمل بها، وهذا الهدف لا يتيسر بتحريف القرآن، وقد تكرر استخدام التأكيدات وضمائر الجمع في منطوق الآية مما يبرهن على عظمة الموضوع واهميته، وان المحافظة على القرآن محرّفاً أو الاحتفاظ بنسخة واحدة لدى الامام المعصوم عليه السلام ليس بتلك العظمة والاهمية، فاجابة الآية على

محفوظاً بين المسلمين بحيث يستطيعون الوصول اليه كي تتوفر مقومات فهم ما انزل الله لهدايتهم والاعتقاد والعمل به.

ان مثل هذه الحصانة ليست منوطة بأي حالٍ بتحريف طائفة من الآيات في بعض أو كافة نسخ القرآن، فمن الممكن مثلاً ان تُحرّف جميع النسخ في فترة من الفترات إلّا ان المسلمين مطّلعون على تحريفها ويعرفون ان القرآن الحقيقي شيء آخر، فيحصلون ـ على سبيل المثال ـ على القرآن الواقعي عن طريق حفّاظ القرآن.

وهذه القضية واضحة ايضاً وهي ان مثل هذه الحصانة لا تتحقق بالاحتفاظ بنسخة واحدة لدى الامام المعصوم عليه السلام.

٤ـ آية العزة

الآيتان الاخريان اللتان تم الاستناد اليهما لاثبات عدم تحريف القرآن هما:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» فصلت / ٤١ ـ ٤٢.

لا شك في ان المراد من الذكر والكتاب في هاتين الآيتين هو القرآن الكريم الذي وصف بثلاث صفات هي: «عَزِيزٌ» و«لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ...» و«تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».[1]

والصفتان الأوليان تدل كلٌّ منهما على عدم تحريف القرآن، والصفة الثالثة تشير الى منشأ هذه الخصيصة وسببها.

الآية السادسة من هذه السورة انما تتناسب بالصورة اللازمة او الكاملة حينما تكون الآية الكريمة قاصدة الحديث عن المحافظة على كلّ القرآن من أي نوع من التحريف. لتوضيح المسألة الاخيرة، راجع: نفس المصدر للطباطبائي: ج ١٢، ص ١٠١.

١. هنالك بحوث في كتب التفسير حول ارتباط جملة «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ» مع الجملة التي سبقتها، وكذلك خبرها في الجملة الاولى، لم يتم التطرق اليها هاهنا لعدم تأثيرها في استفادة عدم التحريف من الآيات الكريمة. للاطلاع على هذه المواضيع، راجع: نفس المصدر للآلوسي: ج ٢٧، ص ١٢٨.

«عزيز» من اصل «العزة» وقد أُخذت مفردة العزة عن الارض العزاز أي الصلبة، من هنا فان العزيز تعني الشيء الذي لا يُقهر والصلب[١] وما لا يمكن النفوذ فيه.

و«باطل» تعني الضال المضلّ والمفسد وتُطلق على كل ما يؤدي الى الضلال والفساد أو يجر شيئاً آخر الى الضلال والفساد، من هنا تُسمى الامور الفاسدة والخاطئة والتي لا ثبات لها، باطلاً.[٢]

ان «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» في الآية الكريمة إما تعني الخلف والامام من الناحية الزمانية والمراد بها حين نزول الآيات وبعده، أو تعني على نحو الاجمال: بأي نحو ومن كل جانب، وهي تدل على النفي التام.[٣]

ان صفة «عزيز» لوحدها تدل على حصانة القرآن من التحريف لأن التحريف ضربٌ من الانهزام وقبول النفوذ وهذا ما لا ينسجم مع عزة القرآن.

ويستفاد جيداً من الصفة الثانية تلقائياً عدم تحريف القرآن ايضاً لأنه وفي ضوء اعجاز القرآن وحقانيته فأي تغير يؤدي الى احداث تغير في اعجازه ومعارفه يجعله مصداقاً للضال والمضل وقد فندت هذه العبارة نفوذ ذلك الى القرآن بشكل تام في كل زمان ومن كافة الابعاد، كما انها تنفي أيّ حذف لآيات القرآن النازل من القرآن الموجود، لان الله سبحانه وتعالى اذا كان يريد وضع تلك المعارف تحت تصرف الانسان فان حذف تلك الآيات يصبح بمثابة مصداق لنفوذ الباطل الى القرآن النازل.

---

١. لمفهوم «عزيز» مصاديق متعددة، فتارة تُذكر لها معانٍ مختلفة منها على سبيل المثال انها تُطلق على الحكام الاقوياء لانهم لا يُقهرون، وعلى الاشياء النادرة لصعوبة الحصول عليها، وعلى الحوادث المؤلمة لرغبة الانسان بقبولها. وفي جميعها يُلاحظ نوع من عدم قبول النفوذ.

٢. «باطل» إما اسم فاعل من «بطل» وتعني الضال أو المضل، فبالرغم من ان «بطل» فعل لازم ولكن اسم الفاعل من الفعل اللازم يأتي في حالات استثنائية بمعنى الفعل المتعدي من قبيل «وارس» التي تعني «المورس»، والاحتمال الآخر له ان يكون الباطل مصدراً على غرار العافية ويستخدم بمعنى اسم الفاعل اللازم أو المتعدي.

٣. تُفسر «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» بمعنيين: أ ـ من بين يديه تعني قدامه وامامه، ومن خلفه تعني وراءه. ب ـ من بين يديه ومن خلفه تعني في الجملة الايجابية على نحو الاجمال «كاملاً» ومن كل ناحية، وفي عبارة اخرى بمعنى باي نحو ومن اية جهة.

وكما تقدمت الاشارة فان المقطع الاخير من هذه الآية يشير الى ان القرآن الكريم مصون عن التحريف والانهزام لانه نازل من عند الله العليم الحكيم الذي لافعاله غايات معقولة ومناسبة فهو الحائز على كافة الكمالات.

ان المقارنة بين الآية الحادية والاربعين من سورة فصّلت مع آية «الذكر» تثبت الاختلاف في طبيعة منطوق ومفاد الآيتين، ففي آية الذكر جرى الحديث عن حفظ الله للقرآن، لكن المقصود في هذه الآية ـ ٤١ ـ هو صلابة القرآن نفسه، ويصبح مفاد هاتين الآيتين ان حصانة القرآن مكفولة من الداخل ـ بتماسكه ـ ومن الخارج ـ بالحفظ الالهي ـ. والمحافظة الالهية واضحة لكن تماسك الكتاب وعدم قبوله للنفوذ يحتاج الى قليل من التوضيح، فلماذا كان القرآن غير قابل للنفوذ؟ وأي خصيصة في القرآن تجعله مصوناً من نفوذ المخربين؟

في ضوء ما تقدم في الدليل القرآني الثاني على عدم التحريف ـ آيات التحدي ـ يتضح ان تلك الخصيصة هي اعجاز القرآن، فاعجاز القرآن هي السر في تماسكه وعدم نفوذ الباطل اليه. ان اعجاز القرآن لا يتوقف على استخدام حروف معينة أو كلمات خاصة أو عبارات قصيرة ـ من فعل وفاعل، أو مبتدأ وخبر، أو حال وذي الحال وما شابه ذلك ـ فكثيراً ما تتوفر الامور الآنفة الذكر في اللغة العربية وعلى اقل تقدير في شعر بلغاء العرب قبل وبعد نزول القرآن. بل اعجاز القرآن يكمن في مضمونه الثرّ وعلومه المتجانسة الحقة، وفي النظم المتميز السائد على منظومة آيات السورة الواحدة وعباراتها ومفادها، مثلما لا ترتكز جودة الشعر الغزلي أو النثر الادبي الرائع على مفرداته ومكوناته الصغيرة بل انها تنبع من النظم الخاص الطاغي على منظومته. فاذا كان نظم القرآن ومضمونه المتميز يفوق طاقة الانسان فان أي تلاعب من قبل الانسان في هذه الآيات بحيث يلحق الضرر بذلك المضمون والنظم سيُخرج القرآن عن مستوى الاعجاز وبالتالي يصبح بالامكان الاتيان بمثله، غير ان

البحث في القرآن يثبت ان القرآن معجزة ولا يمكن المجيء بمثله، وبناءً على هذا فان القبول بتحريف القرآن يستلزم انكار اعجازه، والاعتقاد باعجاز القرآن ملازم للاعتقاد بعدم تحريفه.[١]

لقد اثيرت شبهات حول دلالة هاتين الآيتين ـ ٤١، ٤٢ من سورة فصلت ـ على عدم تحريف القرآن نتناول اهمها بالبحث.

الشبهة الاولى

بالرغم من ان معاني مختلفة ذُكرت لهذه الآية في المصادر الروائية وكتب السلف من العلماء ـ سواء كتب التفسير أو غيرها ـ ولكن لم يرد في ايٍّ منها ذكر لعدم التحريف حتى بعنوان انه احد الاحتمالات. وبناءً على هذا فان استفادة عدم تحريف القرآن من هذه الآية يخالف الروايات وفهم العلماء السابقين ولا يمكن الاعتماد عليها.

الجواب

ان الروايات لا تهدف الى بيان كامل مفاد الآية وليست ترمي الى حصر معناها بما جاء في الروايات، كما ان علماء الاسلام لم يأخذوا بنظر الاعتبار مثل هذا الحصر، وبالتالي فان هذه الاستفادة لا تنافي مقتضى الروايات ولا تنافي رؤية علماء الاسلام.

بالاضافة الى ان معظم الروايات المتضمنة لهذه الآية الكريمة لم يرد فيها أي ايضاح لمفاد هذه الآية، بل ان في بعضها اشارة الى هذا الفهم، وهنالك روايات معدودات تطرقت لتفسير الآية لكنها لا اعتبار لها من حيث السند ولا يمكن الاستناد اليها.

---

١. ربما يُشير المقطع الاخير من الآية ٤٤ من سورة فصّلت الى انه نظراً لان القرآن كلام الله وقد انزله الله لهداية البشر فان تحريفه يصبح بمثابة نقض للغرض ويعتبر متناقضاً مع حكمة الله، واذا ما كان خاضعاً للتحريف منذ البداية فانه وفي ضوء خلود القرآن وخاتمية النبي ﷺ يعد علامة على النقص الذاتي ولا ينسجم مع كون الله حميداً.

وان الادعاء بان العلماء السالفين لم يستفيدوا ـ ولو على نحو الاحتمال ـ عدم تحريف القرآن من الآية الكريمة، خلاف للحقيقة ايضاً، فلقد ذكر عدد من المفسرين عدم تحريف القرآن كرأي خاص بهم وبعضهم ذكره كاحدى النظريات لدى تفسيرهم لهذه الآية، وبالوسع الاشارة على سبيل المثال الى مفسرين من امثال: ابي علي الفضل الطبرسي في مجمع البيان، والسيد محمود الآلوسي في روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، واسماعيل حقي بروسوي في روح البيان، وفخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب، وقد نُسبت هذه الرؤية في بعض التفاسير الى قتادة وابن عباس،[1] وقد ذكر الشيخ الطوسي ـ الذي ادعى مثيروا الشبهة بالاستناد الى تفسيره، ان استفادة عدم التحريف من الآية خلاف لما يراه العلماء السالفون ـ هذا الاستنباط في تفسير التبيان في مجالين.[2]

الشبهة الثانية

المراد من ان القرآن عزيز وعدم نفوذ الباطل اليه هو عدم صيرورته مغلوباً وعدم

---

١. على سبيل المثال: ورد في تفسير مجمع البيان في ذيل الآية التاسعة من سورة الحجر: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ أي القرآن وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ عن الزيادة والنقصان والتحريف والتغيير عن قتادة وابن عباس، ومثله «لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ». نفس المصدر للطبرسي: ج ٥، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

وفي الصفحة ١٤ ـ ١٥ من الجزء الخامس من هذا التفسير وردت استفادة عدم تحريف القرآن من صفتي «عزيز» و«لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ» في الآيتين ٤١ ـ ٤٢ من سورة فصلت على انها احدى النظريات، وأعتُبرت الآية التاسعة من سورة الحجر مؤيدة لها. للاطلاع على آراء سائر المفسرين الآنفي الذكر، راجع التفاسير المذكورة، ذيل الآية التاسعة من سورة الحجر والآيتين ٤١ و٤٢ من سورة فصّلت.

٢. ورد في تفسير التبيان في ذيل الآية التاسعة من سورة الحجر: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ» يعني القرآن في قول الحسن والضحاك وغيرهما و«إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» قال قتادة: لحافظون من الزيادة والنقصان؛ ومثله «لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ». نفس المصدر لابي جعفر الطوسي: ج ٦، ص ٣٢٠. كما وردت استفادة عدم التحريف من مفردة «عزيز» في الآيتين ٤١ و٤٢ من سورة فصّلت، في الصفحة ١٣١ من الجزء التاسع من هذا التفسير.

بطلان مضمونه وعدم نسخه وليس الحفاظ على عباراته والفاظه، وبناءً على هذا فان الآية الكريمة لا تكون شاملة للتحريف اللفظي المقصود.

الجواب

أولاً: ان منطوق الآية الكريمة مطلق خالٍ من أي قيد وحصره بهذا النوع الخاص من الحصانة يحتاج الى دليل.

ثانياً: كيف يمكن لالفاظ القرآن وعباراته ان تتغير بذلك المستوى الواسع الذي يقول به مدّعوا التحريف لكن معارفه تبقى محافظة على حقانيتها لاسيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار فصاحة القرآن وبلاغته واذا ما عرفنا ان اضافة حرف او نقصانه يؤدي احياناً الى تبديل الحق الى باطل، والباطل الى حق.

وقد زعم مدّعوا التحريف حدوث تغييرات حوّلت المضامين الحقة في القرآن النازل ـ كما يتصورون ـ الى مضامين خاطئة، وليست تغييرات تُبقي حقائق القرآن على حالها بشكل تام على الرغم من وقوع التحريف.

الشبهة الثالثة

ولا تقتصر هذه الشبهة على هذه الآية الكريمة بل هي تسري الى ما يتعلق بالآية التاسعة من سورة الحجر وكل آية اخرى يُستند اليها لاثبات عدم تحريف القرآن ايضاً، وهي: ان الاستدلال بآيات القرآن على عدم تحريفه استدلال دوري لان صحة الاستدلال بهذه الآيات يتوقف على ان لا يكون القرآن ومن جملته هذه الآية قد حُرِّف، وعدم تحريف القرآن يتوقف على الاستدلال بهذه الآية. وبعبارة اخرى، ربّ قائل يقول: ان هذه الآيات المُستند اليها لاثبات عدم التحريف هي نفسها

محرفة وليست قرآناً حقيقياً.[١] أو اننا نحتمل انها كذلك، وبناءً على هذا فان الاستدلال بها لنفي التحريف ليس مجدياً.

الجواب

لقد اذعن بعض علماء الشيعة والسنة لهذه الشبهة واقرّوا بهذا الاشكال معتبرين إياه سؤالاً لا اجابة عليه.[٢] ويبدو ان هذه الشبهة يمكن اثارتها على ثلاثة انحاء هي:

أ ـ بما ان هناك احتمالاً بتحريف القرآن ـ كما هو الأمر في اي نص تاريخي آخر ـ ونظراً لتاريخه المديد نسبياً بالاضافة الى كثرة اعدائه فان ذلك مما يعزز هذا الاحتمال من عدم جدوى الاستدلال به لنفي تحريف القرآن وإن لم نكن على يقين بتحريفه، اذ هناك احتمال بتحريف أي آية يُستدل بها وبالتالي فهي فاقدة للاعتبار.

حريٌ الانتباه الى ان هذه الشبهة لا تنحصر في استفادة عدم تحريف القرآن من آياته، واذا ما قبلنا بمثل هذه الشبهة سيصبح عرضة للتشكيك كل استدلال بأي آية ومن اجل اي موضوع، ويخرج القرآن كلياً عن ميدان الفكر والاستدلال بل تتعرض الروايات الى مثل هذه الحالة ايضاً.

لكن هذه الشبهة لا اساس لها لان مجرد احتمال التحريف لا يُسقط أي نصٍّ من

---

١. راجع: نفس المصدر لفخر الدين الرازي: ج ١٩، ص ١٦١.

٢. من بين الذين استسلموا لهذه الشبهة فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب: ج ١٩، ص ١٦١، ويقول آية الله السيد ابوالقاسم الخوئي ﷺ في الصفحة ٢٢٨ من تفسير البيان بعد ايراده لهذه الشبهة: ان هذه الشبهة واردة بالنسبة لمن لا يرى منزلة للعترة، أما الذي يرى ان العترة عدل القرآن ويقول بوجوب اتباعهم فلا ترد عليه هذه الشبهة، لان استدلالهم بالقرآن وتأييد اصحابهم للاستناد بالقرآن والاستفادة منه يحكي عن اعتبار القرآن الموجود وان كان محرفاً.

ان مثل هذا الرد على الشبهة يعني أولاً الاقرار بالاشكال، وثانياً يجعل اعتبار القرآن منوطاً بتأييد الروايات بينما ان اعتبار الروايات منوط بالقرآن، واذا ما تعرضت صحة واعتبار القرآن للتشكيك فلا سبيل لاثبات الروايات. للمزيد من الايضاح في مجال توقف اعتبار الروايات على القرآن، راجع نفس المصدر للطباطبائي: ج ١٢، ص ١١١ ـ ١١٢.

الاعتبار، وان اقصى ما يقتضيه مجرد احتمال التحريف هو ضرورة البحث في تحريف أو عدم تحريف ذلك النص، فيثبت اعتبار النص اذا لم يحصل دليل على التحريف ولا يطرأ أي خلل في الاستدلال به.

ب ـ بما ان لدينا قطعاً بتحريف بعض الآيات فان هذا العلم القاطع من شأنه ان يشككنا في واقعية وعدم تحريف كل آية، وان الاستدلال بها عندئذ لا يجدي نفعاً.

ينبغي القول في الرد على هذا الكلام: اذا كانت الآيات التي زُعم الفراغ من تحريفها لا تتضمن الآيات التي يُستدل بها في بحث عدم التحريف فان هذه الصيغة من الشبهة عودة الى الصورة المتقدمة ويكون قد جرت الاشارة فيها الى مصدر آخر لاحتمال التحريف، وبالتالي فان الرد على هذه الصورة هو ذات الرد على الصورة الاولى، ولكن اذا كان المراد ان الآيات المحرفة هي ذاتها الآيات مورد الاستدلال في بحث عدم التحريف أو انها تشملها فيكون الرد ان هذا الكلام ليس سوى ادعاء ولم يقدَّم اي دليل على تحريف الآيات الآنفة الذكر حتى الآن، بل حتى تلك الفئة من مدّعي تحريف القرآن الذين انبروا لتقصي وجمع الآيات المحرّفة ـ كما يظنون ـ لم يعتبروا هذه الآيات من الآيات المحرّفة.[1]

ج ـ نظراً لعلمنا الاجمالي بتحريف بعض آيات القرآن وعدم علمنا الدقيق بمواردها، فاننا نحتمل بان تكون كل آية ضمن الآيات المحرّفة، وبالنتيجة فان الاستدلال بها استدلال عقيم.

كما نوهنا سابقاً فان اعجاز القرآن يقتضي العجز عن الاتيان بمثل أيٍّ من سوره، وهذا الأمر بمقدوره ان يكون حاسماً لدرء هذه الشبهة، اذ بالامكان الأخذ بنظر الاعتبار الآيات موضع الاستدلال الى جانب الآيات التي تسبقها والتي تليها التي تترابط معها بحيث تشكل سورة واحدة والبحث فيما اذا جيء بمثلها لحد الآن أو

١. راجع: نفس المصدر للميرزا حسين النوري الطبرسي: الدليل الثاني عشر.

بمقدورهم الاتيان بمثلها؟ فاذا كانت النتيجة سلبية ـ وكذلك كان الأمر على مدى تاريخ الاسلام، وهكذا هو الآن ـ يتضح ان هذه الآيات لم تحرّف وهي من القرآن المنزّل، لانها لو كانت قد حُرّفت لارتبك النظم والمضمون الخاص بالقرآن المنزّل من عند الله ويُفترض امكانية المجيء بمثله[١] وعلاوة على ذلك فان كان المقصود من التحريف هو زيادة آية أو بعض آية فهذا يعتبر مخالفاً للمسلّمات التاريخية واجماع المسلمين وتواتر القرآن الكريم.

بحث استدلالين عقيمين

بالاضافة الى الآيات التي جرى الاستدلال بها لنفي تحريف القرآن، هنالك طائفتان أُخريان من الآيات لا يبدو الاستدلال بها متقناً لاثبات عدم تحريف القرآن، ونكتفي هنا ببحث موجز لهاتين الطائفتين من الآيات:

الطائفة الاولى

الآيتان السادسة عشرة والسابعة عشرة من سورة القيامة اللتان تقولان:

«لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ».

قال البعض ان المراد من مفردة «جمعَه» في هذه الآية جمع القرآن بعد نزوله فلقد تعهّد الله بذلك وان ارادة الله متحققة لا محالة.[٢] وقد جرى الاستناد الى تفسير

---

١. رد البعض على هذه الشبهة بالاجماع على عدم الزيادة في القرآن، وبالاضافة الى عدم جدوى الاجماع في مثل هذه المسائل ـ على افتراض القبول بالاجماع كدليل مستقل ـ فهو ينفي الزيادة في هذه الآيات فقط لكنه لا ينفي التغيير والتبديل فيها أو تغيير الكلمات أو الحروف.

واستنتج البعض من تأييد الروايات للقرآن الموجود صحة الاستدلال بهذه الآيات لكن هذا الرد لا يثمر عدم تحريف القرآن بل النتيجة تكون حجية القرآن الموجود واعتباره عن طريق التعبد والدليل النقلي.

٢. ورأى البعض ان مفردة «قرآنه» في الآية الكريمة تعني جمع القرآن، وهذه نظرية ضعيفة لا صحة لها. راجع نفس المصدر لابي علي الفضل الطبرسي: ج ١٠، ص ٣٩٧.

مروي عن ابن عباس بخصوص هذه الآية لتأييد هذا الاستنباط. اذ جاء في هذا التفسير:

«ان المعنى ان علينا جمعه وقرآنه عليك حتى تحفظه ويمكنك تلاوته فلا تخف فوت شيء منه».[١]

ان هذا الاستدلال يفتقر الى الاتقان الكافي وتفسير ابن عباس لا يقوى على ان يكون مؤيداً لهذا الاستنباط. فظاهر الآية هو ان هذا الجمع مهما كان فهو يتعلق بالمرحلة التي سبقت القراءة على النبيﷺ. ان الآية تنهى النبيﷺ عن قراءة الآية قبل ان يفرغ ملك الوحي منها وفي ذلك اشارة الى قلق النبيﷺ من فوت شيء من القرآن قبل القراءة. وهذا هو ظاهر تفسير ابن عباس لأن ثمرة ونتيجة الجمع وقراءة القرآن على النبيﷺ في هذا التفسير هي التمهيد لحفظه من قبل النبيﷺ وتيسير قراءته على الناس من قبله، من هنا فاننا نقرأ في روايات اخرى عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: «معناه ان علينا جمعه في صدرك».[٢]

الطائفة الثانية

الآيات التي تقول: لو افترى النبيﷺ على الله كذباً فانه سيتعرض للعقاب. وقد تقدم في نهاية الفصل الماضي، انه ربما يقال بان النبيﷺ إذا ما أنقص أو أضاف أو غيَّر معارف الوحي فانه يعاقب بأشد العقوبات بالرغم من منزلته ومكانته الرفيعة لدى الله سبحانه وتعالى، اذن اذا ما عمد غير النبيﷺ ـ وهو لا يرقى ابداً الى منزلة النبي ـ الى تحريف القرآن فهو الاحق بالعقاب الشديد، بناءً على هذا اذا ما حرَّف شخص القرآن سيعاقب أو يُفتضح عاجلاً وبعقوبته أو افتضاحه يتعرف الناس على عدم

١. التحقيق في نفي التحريف عن القرآن الشريف، السيد علي الحسيني الميلاني: ص ٣٠، الطبعة الاولى، دار القرآن الكريم ـ قم، ١٤١٠.
٢. راجع: نفس المصدر للطوسي: ج ١٠، ص ١٩٦.

صحة ما كان يقرأه أو يكتبه على انه قرآن وبالتالي يكف المنحرفون عن التحريف أو يبقى عملهم عديم الجدوى.[١]

ان هذا الاستدلال غير تام ايضاً لان معاقبة النبيﷺ في حالة تحريف رسالة الله سببها انهﷺ لما جاء بالمعجزة فان الجميع يعرفونه على أساس انه مبعوث من قبل الله وكلامه كلام الله، وبالتالي اذا ما قام بتحريف الرسالة فان الناس يعتبرون الرسالة المحرفة بلاغاً من الله فيتبعونه فيضلّون حينها وهذا نقض للغرض وهو مخالف لحكمة الله، ولكن بما ان الآخرين لا يمتلكون مثل هذه الارضية فان الناس لا يقبلون كلامهم بشكل تام ودون نقاش، بل يتدارسونه وفقاً لقواعد معينة فاذا ما ألفوه صحيحاً قبلوه، وفي حالة تحريف القرآن فانهم يبادرون لمقارنة ما يقرأ وما يكتب مع سائر القراءات والنسخ فيدركون عدم صحته وتحريفه فلا يضلّون دون وعي منهم. نعم اذا افتُرض وقوع تحريف في القرآن بحيث لا يتسنى تشخيصه حتى بالنسبة لأهل الفن بحيث ان الجميع يعتبرونه وحياً الهياً وبالتالي يصابون بالانحراف، فان الله وبسبب نقض الغرض سيحول دون وقوع مثل هذا التحريف ويفضحه. وهذا يعود الى الدليل العقلي على عدم التحريف الذي تقدَّم في بداية البحث.

نظرة على ادلة القائلين بالتحريف

لقد استدل القائلون بتحريف القرآن ببعض الآيات والروايات لاثبات التحريف، نتطرق الى ذكرها وبحثها بايجاز:

---

١. راجع: نفس المصدر لاسماعيل حقي بروسوي: ج ١٠، ص ١٥١. وجدير بالذكر ان لازمة قول الذين يعتبرون ان فاعل «تقوَّل» في الآية الكريمة «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ» الحاقة / ٤٥، هو المتقوّل، ان الله يعاقب كل من يَنسب اليه قولاً كاذباً وتحريف القرآن مصداق له. راجع: البحر المحيط في علم التفسير، لابي حيان الاندلسي: ج ٨، ص ٣٢٩، الطبعة الثانية، دار الفكر ـ بيروت، ١٤٢٠.

١ـ الآيات التي تدل على تشابه الامة الاسلامية مع الامم السالفة من قبيل الآية: «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» الانشقاق / ١٩. ومن قبيل الحديث الشريف «كل ما كان في الامم السالفة يكون في هذه الامة مثله».[١]

زُعم ان الآية والحديث اعلاه والآيات والاحاديث المشابهة لهما من قبيل آيات «السنن الالهية»[٢] تدل على ان الامة الاسلامية ستسير كما سارت الامم السالفة وتطرأ في هذه الامة ذات الاحداث التي شهدتها تلك الامم، وبما ان من الوقائع المهمة التي مرت بالامم الماضية كان تحريف كتبهم السماوية. اذن فان التحريف سيطال الكتاب السماوي لهذه الامة ايضاً.[٣]

اذا ما غُضَّ الطرف عن مناقشة سند الروايات الآنفة الذكر[٤] وجرى التسليم بدلالة الآيات والاحاديث المتقدمة على مشابهة الامة الاسلامية للامم السالفة في كافة الامور[٥] فان مقتضى ذلك وقوع التحريف في القرآن على امتداد التاريخ فيما بعد النبي ﷺ، لكنه لم يحدد زمان وقوع التحريف، ولربما تكون قد بقيت سنوات طوال على وقت وقوعه. بناءً على هذا فهي لا تدل على تحريف القرآن الموجود بأي حال.

---

١. كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق، ترجمة وشرح محمدباقر كمرهاي: ج ٢، ص ٢٦٤، الطبعة الاولى، المكتبة الاسلامية ـ طهران، ١٣٧٩ هـ.ق.

٢. المراد مجموعة الآيات التي ذكرت قصص الامم السالفة وتقول: «سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً».

٣. نفس المصدر لميرزا حسين النوري الطبرسي: ص ٣٥.

٤. ان اكثر الروايات المُستند اليها فاقدة للاعتبار من حيث السند، والروايات الاربع المروية عن «الكافي» و«قرب الاسناد» و«بصائر الدرجات» لسعد بن عبدالله و«الرجال» للكشي تحظى بالاعتبار فقط، والروايتان الأوليان من الاربع تفقدان موارد خاصة والاخيرتان تفقدان مشابهة الامة الاسلامية لبني اسرائيل فحسب وليس كافة الامم السالفة.

٥. ان أياً من الآيات المُستند اليها لا تفيد التشابه في جميع الامور بل هي تقصد معاداة الامم ـ تكذيبها ومعارضتها ـ للانبياء وفناء تلك الامم، وقد ذُكرت خمسة احتمالات في تفسير الآية الواردة في النص وذكرت بعض كتب التفسير ان احدها احتمال تشابه الامة الاسلامية مع الامم السالفة. راجع تفاسير: التبيان، والجامع لاحكام القرآن، والبحر المحيط، ومفاتيح الغيب ومجمع البيان، ذيل الآية التاسعة من سورة الانشقاق.

بالاضافة الى ذلك فأن هناك موارد للنقض كثيرة ترد على التشابه مع الامم السالفة اذا اخذنا التشابه على انه شامل لجميع الموارد وقد صرحت بهذه الموارد الآيات والاحاديث من قبيل: عبادة العجل، وانشقاق نهر النيل وغرق فرعون وجنوده، وامتداد مملكة سليمان عليه السلام، وتيه بني اسرائيل وسط الصحراء اربعين عاماً، ومسخ طائفة من بني اسرائيل، وحادثة عجل بني اسرائيل وقضية خاتمية نبي الاسلام صلى الله عليه وآله وانتفاء عقوبة الاستئصال بالنسبة الى الامة الاسلامية. اذن هذا التشابه العام خاضع للاستثناء وفي ضوء الادلة على عدم تحريف القرآن فان عدم تحريف القرآن هو أحد موارد الاستثناء في هذه الآيات والاحاديث.

اضف الى ذلك انه يستفاد من النماذج المذكورة في هذه الروايات ان المراد من هذه الآيات والاحاديث لون من التشابه وليس هو التشابه التام والكامل،[1] وفي هذه الحالة يمكن القول بشأن قضية التحريف، ان التحريف المعنوي للكتاب أو عدم الاكتراث به في مقام الفهم والعمل يأتي على شاكلة تحريف كتب الانبياء السابقين.

ولو كان المراد من هذه الروايات هو التشابه الكامل في جميع الامور فان هذه الروايات تصبح مخالفة للآيات التي تنفي التحريف ويتعين توجيهها أو تنحيتها جانباً.

٢ـ ورد في الروايات ان هنالك مصاحف اخرى عدا القرآن الموجود منها مصحف علي عليه السلام وثمة فوارق بين المصاحف المذكورة والقرآن الحالي، وان بعضها مثل مصحف علي عليه السلام ومصحف ابن عباس ومصحف ابيّ بن كعب يحظى باعتبار تام في نظر الشيعة لاسيما مصحف علي عليه السلام الذي يمثل معياراً ومحكاً لصحة أية نسخة اخرى من القرآن وقد جرى جمعه بأمر من النبي صلى الله عليه وآله وقُدِّم للخليفة الاول كي يستفيد منه الناس فرفضه

---

١. على سبيل المثال في احدى هذه الروايات اعتبرت رجعة الائمة عليهم السلام في الامة الاسلامية مماثلة لعودة اهل ايوب اليه من موارد تشابه الامة الاسلامية مع الامم السالفة، بينما رجعة الائمة عليهم السلام تكون بعد الشهادة ومن عالم الآخرة الى الدنيا وبمواصفاتها الخاصة بها، لكن عودة اهل ايوب كانت مجرد رجوع اليه وعيش معه بعد انفصال عنه. راجع: نفس المصدر للميرزا حسين النوري الطبرسي: ص ٧٥.

الخليفة وقال بعض المحيطين به ان لدينا مصحفاً مثله. فنظراً لتعدد المصاحف واختلافها مع القرآن الموجود وتمتع بعضها بالاعتبار يتبين ان القرآن قد حُرِّف.

لكن المصاحف المذكورة والقراءات التي تحظى بتأييدهم لا تختلف عن القرآن الموجود وما ذُكر بانها موارد اختلاف هي من قبيل شأن النزول، وذكر المصداق، وتفسير وتأويل القرآن ولا علاقة لها بنص القرآن، كما ان غالبية هذه المصاحف ليس هناك دليل على اعتبارها، واذا ما كان هناك فارق في نصها مع القرآن الموجود فهذا الاختلاف دليل آخر على فقدانها الاعتبار، لان القرآن الموجود جرى تناقله بشكل متواتر وان البحث فيه يؤيد كونه من عند الله، أما المصاحف المزعومة فليس هناك دليل على اعتبار موارد اختلافها مع القرآن الموجود، بل ان البحث في بعض الموارد المنقولة عنها يؤيد عدم كونها قرآناً. واختلاف مصحف عليعليه السلام مع القرآن الموجود يكمن في امرين فقط هما:

أـ ان مصحف عليعليه السلام منظم وفق تسلسل النزول.

بـ بالاضافة الى نص القرآن، فقد ثُبت فيه شأن النزول، وبعض المصاديق، وتفسير وتأويل الآيات ايضاً.

ولو كانت هناك فوارق جوهرية وجديرة بالاهتمام بين سائر المصاحف ومصحفهعليه السلام لاعترض على ذلك بشكل جاد بينما لم يُنقل عنهعليه السلام أي اعتراض بهذا الخصوص.

من خلال هذا الكلام تتضح الاجابة على الاستدلال بالقراءات السبع أو العشر أو اكثر من ذلك[1] والروايات التي مفادها نزول القرآن على سبعة أحرف اذ لا دليل

---

١. ورد في الروايات نزول القرآن بعدة حروف منها: ثلاثة حروف، اربعة حروف، خمسة حروف، سبعة حروف وعشرة حروف، وقال البعض ان المراد من سبعة حروف هو كثرة الحروف وليس خصوص العدد سبعة. راجع: حقائق هامة حول القرآن الكريم، السيد جعفر مرتضى العاملي: ص ١٨٠ ـ ١٨١، الطبعة الاولى.

على اعتبار القراءات المذكورة أو كونها قرآناً في الحالات التي هي موضع الاختلاف، كما ان هناك معاني مختلفة للروايات الدالة على نزول القرآن على سبعة حروف ولا يمكن الاستدلال بها لاثبات القراءات السبع،[١] وفضلاً عن عدم اعتبار سندها، فان هذه الروايات تتعارض مع العديد من الروايات المعتبرة التي تفند نزول القرآن على سبعة أحرف وتتحدث عن نزوله على حرف واحد وتؤيده،[٢] وهذا التكذيب يعني ان القراءات الاخرى مزيفة وان القراءة الحقيقية كانت مفهومة لدى المسلمين في عصر الائمة عليهم السلام، لذلك لم يجر التساؤل عن تلك القراءة، لا إن الآيات المحرّفة والقرآن الحقيقي كانت تلفّها هالة من الغموض.

٣ـ الروايات الكثيرة التي تحدثت ـ حسب قول مدّعي التحريف ـ عن تحريف القرآن بشكل عام، أو قرئت آيات القرآن فيها بنحو آخر،[٣] وتوجد في القرآن علائم تحريف تلك الآيات.

مؤسسة النشر الاسلامي ـ قم، ١٤١٠، وللاطلاع على طبيعة وعدم اعتبار القراء السبعة وقراءاتهم، راجع: نفس المصدر للسيد ابي القاسم الموسوي الخوئي: ص ١٣٧ ـ ١٩٩.

١. ذكر لهذه الروايات المنقولة في اغلبها عن مصادر اهل السنة، اكثر من عشرة معان أحدها القراءات السبع، وليس فقط لا يوجد ما يرجح هذا المعنى على سائر المعاني، بل ثمة شواهد في هذه الروايات على بعض المعاني الاخرى. راجع: نفس المصدر للسيد ابي القاسم الموسوي الخوئي: ص ١٩٥ ـ ٢٠٩، ونفس المصدر للسيد جعفر مرتضى العاملي: ص ١٨٠.

٢. للاطلاع على الروايات الدالة على نزول القرآن على سبعة احرف وعدم اعتبارها، راجع: نفس المصدر للسيد جعفر مرتضى العاملي: ص ١٧٧ ـ ١٨٦، ونفس المصدر للسيد ابي القاسم الموسوي الخوئي: ص ١٨٧ ـ ٢١١.

٣. لاثبات تحريف القرآن استدل البعض بنسخ التلاوة أو نسخ التلاوة وحكمها الرائج بين اهل السنة والروايات الواردة بهذا الخصوص، ونظراً لفقدان تلك الروايات للاعتبار يكون الاستدلال بها على تحريف القرآن عديم الاساس. للاطلاع على قضية نسخ التلاوة وفقدان رواياتها للاعتبار، راجع: آلاء الرحمن في تفسير القرآن، محمدجواد البلاغي: ص ١٩ ـ ٢٥، الطبعة الاولى، دار احياء التراث العربي ـ بيروت، ١٣٥٥، ونفس المصدر للسيد ابي القاسم الموسوي الخوئي: ص ٢٢٠ ـ ٢٢٥، ونفس المصدر للسيد جعفر مرتضى العاملي: ص ٣٠٣ ـ ٣٦٨.

ان هذه الروايات المزعوم تواترها ليست معتبرة بأغلبيتها، وان مجموع المعتبر منها يناهز الاربعين رواية، البعض منها مكرر وبعضها الآخر لا علاقة له بالتحريف مطلقاً وعددٌ منها يتحدث عن تغييرات غير مؤثرة في معنى الآيات، وان الكثير منها عبارة عن مواضيع تفسيرية وذكر للمصداق وشأن النزول ونقل للمعنى واقتباس، وفي بعضها استخدمت تعابير عامة يحتاج شمولها للتحريف اللفظي الى دليل آخر. وهناك رواية واحدة صحيحة فقط ظاهرها بل صريحها يؤكد حذف ما يقرب من ثلثي القرآن الكريم. ان البحث المفصل في هذه الروايات لا يتناسب مع كون بحوث الكتاب قرآنية لذلك يُكتفى بتوضيح موجز في هذا المجال:

ـ من مجموع الروايات الآنفة الذكر الواردة في الدليل الحادي عشر والثاني عشر من كتاب فصل الخطاب تبدو هنالك ما يقرب من اربعين رواية، وان مجموع رواياته المسندة ـ سواء الصحيح منها أو الضعيف والمجهول ـ اكثر من اربعمائة رواية والادعاء بتواترها الاجمالي ليس كلاماً مبالغاً فيه بالرغم من وجود كثير من الجدل والنقاش حول مفاد وحدود التواتر، ومن غير الممكن استفادة التحريف منها بما يقصده مدّعوا التحريف. ومن مجموع الروايات المسندة هناك عدد كبيراً جداً ـ ما يقرب من ثلثي الروايات ـ مروي عن شخص اسمه السيّاري يصفه علماء الرجال بالكذاب ومفتري الاحاديث وجاعلها.

ـ من مجموع الروايات المعتبرة ـ من حيث السند ـ هناك اربع عشرة رواية مكررة أي ان كل روايتين تتحدثان حول آية واحدة وبالتالي تقل موارد ادعاء التحريف سبعة موارد، وأربعة موارد من هذه الروايات لا علاقة لها ببحث التحريف وان ذكرها ضمن هذه المجموعة مثارٌ للتساؤل بل مثير للدهشة، فعلى سبيل المثال وردت في هذه المجموعة رواية عن كامل الزيارات يقول فيها الامام الصادق عليه السلام بشأن الآية الكريمة «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ». «نزلت في الحسين بن علي عليه السلام».[1] فمن

١. كامل الزيارات، ابن قولويه القمي: ص ٦٣، الطبعة الاولى، المكتبة المرتضوية ـ النجف الاشرف، ١٣٥٦ هـ.ق.

الواضح عدم امكانية الادعاء بأي حال بان عبارة نزلت في الحسين بن علي عليه السلام استمرار للآية الكريمة وقد حذفت من المصاحف الموجودة. وفي ضوء الملاحظتين المتقدمتين تتقلص موارد ادعاء التحريف الى اقل من ثلاثين مورداً.

ـ هناك سبع روايات احداها مكررة، وصدر ثلاث اخرى يتضمن تغييراً طفيفاً في الآية لا تأثير له على معنى الآية من قبيل ما هو منقول في احدى هذه الروايات من ان الآية الكريمة «فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» التوبة / ٤٠ هي «فانزل الله سكينته على رسوله»[١] حيث لا تأثير لذلك في المعنى. وبالنتيجة تقل موارد ادعاء التحريف الى عشرين وبضع من الروايات.

٤ـ ان ما يقرب من نصف الروايات المتبقية تعرضت لتفسير أو ذكر المصداق أو شأن النزول أو التأويل أو المعاني الباطنية للآيات، فعلى سبيل المثال لدى مواصلة تلاوة الآية الكريمة «حٰافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلٰاةِ الْوُسْطىٰ» ورد «وهي صلاة الظهر وهي اول صلاة صلاها رسول الله وهي وسط النهار».[٢]

من خلال قليل من التأمل في الرواية الآنفة الذكر والموارد المشابهة لها، يتضح ان هذه الروايات ليست بصدد تلاوة الآية بل هي في معرض تفسير وتوضيح الآية الكريمة، ونظراً لأن الآية المذكورة في هذه الرواية وردت في روايات عديدة تناقلتها المصادر المعتبرة لدى الشيعة والسنّة بصيغتها الموجودة في المصاحف المتداولة فلا يبقى مجال للشك بعدم امكانية الادعاء استناداً الى بعض الروايات المرسلة أو المروية في المصادر غير المعتبرة بتحريف هذه الآية وحذف عبارة «صلاة العصر»[٣] منها.

ان منشأ اللبس لدى مدّعي التحريف هو انهم قصدوا هذه الروايات بذهنية تحمل

---

١. نفس المصدر، عبد علي العروسي الحويزي: ج ٢، ص ٢٢٠.

٢. نفس المصدر، للكليني: ج ٣، ص ٢٧١.

٣. تفسير العيّاشي، العياشي، نقلاً عن نفس المصدر للعروسي الحويزي: ج ١، ص ٢٣٧، وتفسير القمي، ابوالحسن علي القمي: ج ١، ص ١٠٦، الطبعة الاولى، دار السرور ـ بيروت، ١٤١١ هـ.

افتراض تحريف القرآن، وحملوا سؤال راوي الحديث الذي استفسر عن مفاد الآية وتفسيرها على انه سؤال عن تلاوة الآية وقراءتها ظانين بان الراوي كان شاكاً في قراءة الآية فسأل الامام عنها فقدّم الامام للراوي القراءة الصحيحة للآية، في حين انه لا وجود لأي شاهد أو قرينة على ان مراد السائل قراءة الآية الكريمة، بل توجد في نفس الروايات شواهد بيّنة على ان السؤال عن مفاد الآية.

٥ـ في عدد من هذه الروايات ـ اربع عشرة رواية ـ نُقلت الآية بمعناها واستند الامام الى مفادها أو اقتبس منها في كلامه من قبيل الرواية المنقولة عن الكافي التي يسأل فيها الراوي عن الآية الكريمة «أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» النساء / ٥٩، فيجيب الامام:

«فان خفتم تنازعاً في أمر فردّوه الى الله والى رسوله والى اولي الأمر منكم. كذا نزلت الآية، كيف يأمرهم الله عز وجل بطاعة ولاة الأمر ويرخّص في منازعتهم».[١]

ان عبارة «كيف يأمرهم» تدل بوضوح على انه ليس المراد من «كذا نزلت الآية» ان عبارة «فان تنازعتم» كانت حين نزول «فان خفتم تنازعاً في أمر» اذ لا فرق في هذا التعليل بين «تنازعتم في شيء» و«خفتم تنازعاً في أمر»، بل ان ما كان موضع تساؤل بالنسبة للراوي هو هل المراد من «تنازعتم في أمر» تنازع الناس مع أولي الأمر أم تنازع الناس فيما بينهم؟ حيث يقول الامام ان المراد هو تنازع الناس فيما بينهم، وإلّا فكيف يأمر بالطاعة المطلقة لأولي الأمر في صدر الآية ويجيز التنازع معهم في خاتمتها؟

ان هذا النمط من الفهم للآية يعني تناقضاً بين صدر الآية وذيلها وهو باطل. اذاً المراد هو تنازع الناس فيما بينهم وهم مكلفون طبقاً لمفاد الآية بالرجوع الى الله

١. نفس المصدر، الكليني: ج ١، ص ٢٧٦.

ورسوله ومن بعده الى اولي الأمر لفض النزاع. وبهذا الكلام يتبين ان تعبير «والى رسوله والى أولي الأمر منكم» من باب بيان مفاد الآية وهو المقصود منه.

٦ـ في سائر الروايات ـ ماعدا الروايتين اللتين سنتطرق اليهما في التسلسل رقم «٧» وردت تعابير كليّة يحتاج شمولها للتحريف اللفظي الذي يزعمه مدّعوا التحريف الى دليل وقرينة، وليس من دليل وقرينة متقنة عليه، أو ان فيها موضوعات لا ملازمة بينها وبين تحريف القرآن، من قبيل الروايات التالية:

أـ لو قرأ الناس القرآن كما نزل لما اختلف فيه اثنان.

بـ ان المهدي (عج) اذا ظهر يأتي بمصحف عليؑ فيتلو القرآن حق تلاوته.

جـ لا يدّعي جمع القرآن بظاهره وباطنه الّا أوصياء الانبياء.

دـ لقد حرّفوا القرآن فانحرف الناس في معتقداتهم واخلاقهم.[1]

الانواع الثلاثة الاولى من الروايات ناظرة لتفسير القرآن وشأن النزول وبيان المصداق وتأويله بما يتطابق مع تسلسل النزول بالنحو الذي ذُكر لدى بيان الفارق بين مصحف عليؑ والقرآن الموجود، وهذا ما يستفاد ايضاً من الرواية في النوع الثالث.

الروايتان الرابعة والخامسة ناظرتان ايضاً الى التحريف المعنوي لان انحراف الناس في معتقداتهم يستلزم ان تكون الآيات ذات الصلة باصول الدين قد حُرّفت في كلٍّ القرآن أو ان الناس منحرفون في اعتقادهم بالتوحيد والنبوة والمعاد. بناءً على هذا ليس ثمة دليل على شمول هذه الروايات للتحريف اللفظي في القرآن، وان الاستدلال بها لاثبات هذا الزعم لا يتمتع بما فيه الكفاية من الاتقان لاسيما وان

---

١. وردت هذه الروايات حسب تسلسلها في الصفحات ٢١٥ الرمز «يا»، و٢١٢ الرمز «كه»، و٣، الرمز «يا»، و٢٢٣ الرمز «ن» من كتاب فصل الخطاب.

التأكيد ورد في روايات اخرى على التحريف المعنوي للقرآن وصيانة الفاظه وعباراته من التحريف.

٧ـ احدى الروايتين المتبقيتين تتعلق بمقطع من الآية الخامسة والتسعين من سورة المائدة التي تُقرأ في المصاحف الموجودة بعبارة «يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ» وتُقرأ في الرواية «يحكم به ذو عدل منكم»، اضافة الى انها تعتبر الامام مصداق «ذو عدل». ولكن ينبغي الانتباه الى انه وفي اكثر الروايات التي استخدمت فيها هذه الآية ورد التعبير بـ«ذَوَا عَدْلٍ» ـ طبقاً للعبارة في المصاحف الموجودة ـ وورد تعبير ذو عدل في رواية واحدة فقط، وذُكر فيها ان ذوا عدل من اخطاء الكتّاب،[١] لكن هذه الرواية نقلت بصيغتين، فالصيغة الاخرى هي:

«يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ» فالعدل رسول الله ﷺ والامام من بعده يحكم به وهو ذو عدل فاذا علمت ما حكم الله به من رسول الله ﷺ والامام فحسبك ولا تسأل».[٢]

في ضوء هذه الرواية يتبين ان الرواية نقلت بصيغة اخرى أو قُطّعت أو لُخّصت بصورة غير صحيحة وان الروايات هي في معرض توضيح الآية الكريمة وقد أسمت الامام والنبي بانه «ذو عدل» وتذكّر بان النبي أو الامام اذا ما اصدر حكماً ففيه الكفاية ولا داعي للسؤال وان «ذوا عدل» الواردة في الآية ذات الصلة ليسا رجلين عدلين من المسلمين بل هو حكم النبي أو الامام وهما شخصان بارزان ذوا عدل وتنطبق عليهما «ذوا عدل».

وجاء في الرواية الثانية «ان القرآن الذي جاء به جبرئيل عليه السلام الى محمد ﷺ سبعة عشر الف آية».[٣]

---

١. نفس المصدر للكليني: ج ٨، ص ٢٠٥.

٢. تهذيب الاحكام، الطوسي: ج ٦، ص ٢٧٢، الطبعة الثانية، دار الاضواء ـ بيروت، ١٤١٣ هـ.

٣. الاصول من الكافي، الكليني، الطبعة الثالثة، دار الكتب الاسلامية ـ طهران، ١٣٨٨ هـ.

ونُقلت هذه الرواية في كتاب الوافي دون كلمة «عشر» وبهذه الصيغة «سبعة آلاف آية».[١] فيصبح مفادها سبعة آلاف آية بما يقارب عدد آيات القرآن الموجود.[٢]

بالاضافة الى ذلك ربما يكون المراد من هذه الرواية اضافة الى نص القرآن، هو توضيحه وتفسيره الذي جاء به جبرئيل الى النبيﷺ من الله، ونظير هذا الكلام ما قاله المرحوم الصدوق في كتابه «الاعتقادات» من انه اذا ما أُضيف ما نزل من وحي على انه ليس من القرآن، الى الوحي القرآني فسيبلغ سبع عشرة الف آية.[٣]

---

١. الوافي، الفيض الكاشاني: ج ٥، ص ٢٧٤، الطبعة الاولى، مكتبة آية الله المرعشي النجفي ـ قم، ١٤٠٤ هـ.

٢. جدير بالذكر ان اعتبار كتاب الوافي من حيث الدقة موضع قبول ذوي الاختصاص فعلى سبيل المثال لقد اكد عليه المرحوم الشعراني.

٣. الاعتقادات، الصدوق: ج ٥، ص ٥ ـ ٨٥، المطبوع ضمن مصنفات الشيخ المفيد، الطبعة الاولى، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد ـ قم، ١٣٧١ هـ.ش.